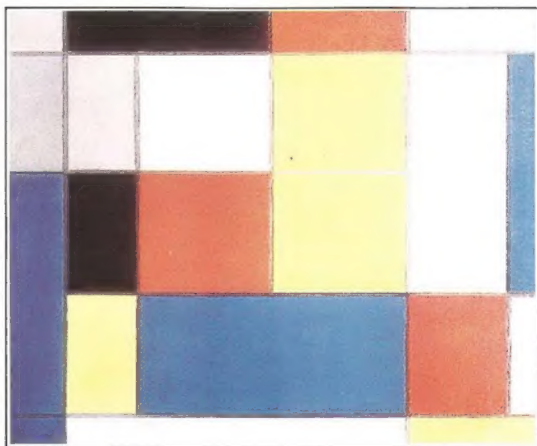


حسن نجمي

شعرية الفضاء

المتخيّل والهوية في الرواية العربية



دراسة نقدية

المركز الثقافي العربي



طبع هذا الكتاب بدعم
من وزارة الشؤون الثقافية

- * شعرة الفضاء السّردى
- * تأليف : د. حسن نجمي
- * الطبعة الأولى، 2000
- * عدد الصفحات : 240 صفحة
- * القياس : 17 × 24 سم
- * جميع الحقوق محفوظة
- * الناشر : المركز الثقافي العربي

□ الدار البيضاء • 42 الشارع الملكي (الأحياس) • فاكس /305726/ • هاتف /303399 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب. /4006/ درب سيدنا.

العنوان:

□ بيروت/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب. /113-5158/ • هاتف /352826 - 343701/ • فاكس /343701 - 00961-1-00961/.

د. حسن نجمي

شعرية الفضاء السّردِي

المركز الثقافي العربي



مقدمة

I.

لعل فكرة موضوع هذه الدراسة نبت أول ما نبتت من سيرورة انشغال شخصي ببعض أسئلة الكتابة. لكنها تبلورت كموضوع للدراسة بعد اختبار الفكرة مع عدد من الأساتذة والأصدقاء، مما ملأني في نهاية الثمانينيات بضرورة الانحياز الموضوعي للفضاء.

والواقع أن اختيار موضوع معين للبحث والدراسة لا يكون اعتباطيا، بل انطلاقا من كونه يُشكّل معنى في نظر الباحث وفي نظر الآخرين. ومن ثمّ اخترتُ موضوعا تقتضيه المرحلة الفكرية والنقدية والجمالية الراهنة في العالم العربي باعتبار ما يشكّله مفهوم الفضاء كبعد جوهري من أبعاد الكائن، وكسؤال يخترق الكيان العربي بأبعاده الجغرافية والثقافية والسياسية.

ولا أكتفكم، فقد اخترتُ هذا الموضوع للاستمتاع الشخصي فيما يشبه لعب طفلٍ مندهش بالأسئلة وبالأشياء، طفل لم يلعب في طفولته بما يكفي. ذلك لأن الفضول الفكري، خصوصا إذا كان شائقا كالفضول الذي حفّزني في هذه الدراسة، يصلح لبورة المتعة والرضى الذاتي. وربما لذلك كنتُ أكتبُ هذا البحث مثل طفل، وأتكلم عنه دائما بشغف وثقة ومشاعر فياضة لطفل يحبُّ لعبه ومع ذلك، ففي حضرة البحث العلمي وأمام سطوة السلطة الجامعية لا يبقى ثمة مجال للعب أو لـ «وهم المعرفة الفورية».

II.

لقد شكّل الفضاء على الدوام «محاذا للعالم» تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، معيارا لقياس الوعي والعلائق والتراثيات الوجودية والاجتماعية والثقافية، ومن ثمة تلك التقاطعات الفضائية التي انتهت إليها الدراسات الأنثروبولوجية في وعي وسلوك الأفراد والجماعات، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

لذلك، سعينا إلى إعادة الاعتبار لمفهوم الفضاء في الفكر والكتابة، بل وإعادة التفكير في الوضع الاعتباري الذي أضحي يعطيه الخطاب النظري والنقدي الغربي لهذا المفهوم انسجاماً - بطبيعة الحال - مع تراثه النظري وحاجياته الراهنة. فقد اعتبرنا أن تلقي الفضاء يظل مركزياً في «تلقّي رمزية اجتماعية» معينة، في سياق اجتماعي ثقافي وتاريخي معين، خصوصاً إذا كانت هذه الرمزية الاجتماعية، بتعبير كاسير (E. Cassirer)، لا تظن. نمتأى عن الحلس والتعبير ذاتهما.

وإذا عرفنا أن «الباحث والموضوع يسيران معاً نحو المعرفة» (لوين Lewin)، سندرك بأن الموضوع لم يكن سهلاً بالتأكيد. ولعل الصعوبة الأساسية كانت مطروحة على مستوى تلقيق المفاهيم الأساسية التي اقتضتها سيرورة البحث، خاصة وبالأساس مفهوم الفضاء نفسه الذي أنهكه حالة الالتباس القصوى التي اقترفها في البداية المرحوم غالب هلسا عندما أقدم - تحت ضغط شَغَف غامض بأهمية المكان في الكتابة - على ترجمة كتاب غاستون باشلار «شعرية الفضاء» (المكتوب بالفرنسية، كما نعلم) عن اللغة الإنجليزية بعنوان «جماليات المكان»، ومن ثم انطلقت الجناية التي يبدو أنها لم تتوقف حتى الآن، حيث ظل يختلط مفهوم الفضاء بمفهوم المكان مع أن الفضاء غير.. والمكان غير. وهو ما تطلب توضيحات متتالية من باحثين ونقاد ومبدعين مغاربة - خصوصاً - من بينهم الأساتذة محمد يرادة، أحمد السيوري، محمد بنيس، حسن بحراري، حميد حميداني...

من هنا أخذنا على عاتقنا أن نعيد ترتيب العلاقة بين المفهومين مؤكدين على ضرورة تصحيح خطأ الترجمة الشائعة، داعين الناقد العربي إلى ضرورة الانتباه إلى «فَرْقِ الهواء» القائم بين الفضاء والمكان. وذلك لعدم ثقنا في المستقبل النقدي العربي، إذ ظل الناقد في البلاد العربية مستعجلاً وبدون مشروع نقدي لا يكتب إلا للصحف والمؤتمرات... وللإستهلاك العابر.

ولست هنا أكثر كفاءة لأقترح أو أوصي. لكنني أعتبر أن المرحوم غالب هلسا الذي كان له فضل المبادرة، كان فضلُهُ شبيهاً بالجناية تماماً كما يمكن أن تكون هدفة ما مسمومة. وإذا ظل النقد والكتاب العرب يلوكون أخطاء ترجمته فإنما يرتكبون بذلك جناية مُضاعفة. فالفضاء كنسق من الترابطات، والفضاء كعنصر تكويني في الخطاب الأدبي - شعراً ونثراً - لا يستحق ما لاقاه من تهيش أو إقصاء أو سوء فهم.

لذلك، نرى أن من الأهمية نهوض الفكر العربي، وليس الخطاب النقدي وحده، بمهام بلورة وإثراء معرفة خاصة بالفضاء، والحال أننا لم نتج حتى الآن خطاباً معرفياً عربياً حول الفضاء. فلعل مثل هذه المعرفة تتيح لنا - كعرب - أن نجد إجابات ممكنة على الأسئلة التي يطرحها علينا «ما يحيط بنا وما يحدنا». وهنا، ينبغي ألا ننسى أن القضية الفلسطينية مثلاً لم تكن في أية لحظة من اللحظات غير قضية فضاء أساساً.

.III

لقد كانت نيتنا نتجه في البداية إلى البحث في أسئلة الفضاء الشعري، قبل عودتنا إلى تغيير المتن والبدء من حيث كان ينبغي أن نبدأ للإمساك بالمفهوم وضبطه، ولكون «الساحة المرجعية والتوثيقية» للنص الروائي، بتعبير بير زعما، كانت «أكثر وضوحاً من القصيدة» في الاستجابة لأفق هذا البحث. لكننا في نفس الوقت عقدنا العزم على أن نلتقي الحقل الشعري في محطتنا القادمة، وفي نفس الأفق. وذلك بحكم التصاقنا أساساً بالفعل الشعري المعاصر وإلحاحنا أيضاً.

وهكذا، فقد اقتضينا أترين أساسيين لتشكيل أطروحتنا (الأطروحة عما هي تصورنا للمشكلة والفرضية التي نقرّحها لحلها)، وهما: الجهد الذي بلوره يوري إيزنزفيغ (Uri Eizenzweig) في دراسته «الفضاء في النص والإيديولوجيا: مقارنات نظرية» وجوزيف فرانك (J. Frank) في دراسته «الشكل الفضائي في الأدب الحديث». الأول ساعدنا على أن نوضع «الفضاء المتخيّل لنص ما داخل سياق إيديولوجي» وبلغة أكثر، أسعفنا في أن نقدم «الفرضية التي يتشكل بمقتضاها الفضاء المتخيّل لنص أدبي كمكان مفضل تنكشف فيه إيديولوجيا معينة»، ومن ثمّ لعب هذا الأثر دوراً فجعلنا ننتبه إلى أهمية «المرجع الفضائي» أو «الفضاء المرجعي» بالنسبة للنص الأدبي. بما هو نص لغوي أولاً، مما استلزم ربطه بإطار سيميائي عام، ثقافي وحضاري كان من شأنه أن وشّم الفضاء المتخيّل - بما هو فضاء مُتمثّل - بعمق دلالي. وهو ما ساعدنا في مقارنة المتن الروائي للرواية الفلسطينية سحر خليفة، بل وعثرنا في كتابه «الأراضي المحتلة للمتخيّل اليهودي: دراسة للفضاء الصهيوني» على عناصر أساسية أضاعَت قراءتنا للفضاء والهوية في روايات سحر وفي الوعي الفلسطيني المُجابِه لليوطويا الصهيونية.

أما جوزيف فرانك، فقد تعلمنا منه أن الفضاء في الخطاب الروائي يمكنه أن يشكل المادة الجوهرية للكتابة. وأن أيّ إلغاء أو إقصاء لمفهوم الفضاء في النظرية الأدبية إنما هو قمعٌ معيّن لهوية من هويات الخطاب الأدبي، وضمّنه الخطاب الروائي. معناه أن تدفق بعضٍ من المَرَق النظري الغربي أفرغَ الكتابة من عمقها الشعري والجمالي. وبالتالي، فإن الطابع الإشكالي لسؤال الفضاء يكمن في مدى تجاوزه العائق النظري الذي يجعل النص الأدبي - بوصفه نصّاً لغوياً - زمنياً بالضرورة، أي لا يمكن تلقي علاماته إلا متسلسلة ومتابعة زمنياً، في حين أن العمل التشكيلي يقدم علاماته دفعة واحدة من حيث إن العلامات التصويرية قائمة على منطق التجاور والتزامن.

واستناداً إلى هذين الاجتهادين تعاملنا مع مفهوم الفضاء في الكتابة، وأكدنا على كونه سندا (Support) أساسياً للعمل السردي، بل وهوية من هويات النص لا يمكن اختراقها - كما فعل

جيران جونيت مثلا - في مجرد وقفة حكاكية، ومن ثم كشفنا طبيعة العلامق بين الفضاء والزمن، الفضاء والوصف، الفضاء واللغة، الفضاء والمرجع، إلخ. لنصل إلى المستوى الذي يوهلنا للتأكيد على أن لا شيء يتوقف في العمل، بل تظل كل مكونات النص الروائي يَفْقَطة.

IV

ولأنه ليس خاف أن القراءة النقدية تختار نصها الخاص، فقد قررنا أن نقرأ مظاهر الاشتغال الفضائي في التجربة الروائية لسحر خليفة. وهنا قرأنا الجوانب التي يمكنها أن تضيء أسئلتنا وتستجيب للتأمل وابتكار المعنى. وربما اخبرنا سحر خليفة لأنها فلسطينية تجسد قضيتها وكتابتها مثالا أساسيا لطرح سؤال الفضاء ومسايلة الفلسطيني بهذا السؤال من خلال وعيها ككتابة ومن خلال شخصيات رواياتها.

والواقع أن سحر خليفة ككاتبة عربية كبيرة لم تحط بما تستحقه من اهتمام نقدي، رغم أنها حققت مستوى معينا من التزامكم الحضور الأدبي والثقافي. فقد ظلت تمارس نشاطها الإبداعي والاجتماعي داخل الأرض المحتلة وفي تماس يومي مع الاحتلال الإسرائيلي، إلى جانب نضالها النسوي من داخل القضية الفلسطينية وفي أفقها.

ولعل روايتها كخطاب وكوعي نقدي أسهمت في بلورة وعي بأهمية الكتابة الأدبية في تشكيل وإثراء الواقع التاريخي الفلسطيني، وفي تجذير الإحساس بفلسطين كفضاء في الوجدان العربي والإنساني. ومن ثم كانت كتابة سحر كما قرأناها ليست حصرا كتابة سحر. بل هي مخزن فكري - أدبي - تاريخي يختصر نوعا من «النوعية» لمقاربة مستوى ونمط الوعي العام الفلسطيني بإشكالية الفضاء، جوهرها ومعنى وقضية.

وإذا كانت قراءة النص «هي أيضا، هي أولا، هي بالأخص قراءته في سياقه»، فقد افترضنا أن ليست هناك معرفة فلسطينية، بل وعربية، بالفضاء كإشكالية وجود وإشكالية فكر. وبالتالي، فما ينبغي أن نفعله ليس الاكتفاء بقراءة متعاطفة مع الأدب الفلسطيني، تلذذ بمشاعره الحنينية أو تبني تمزقاته وأسئلته المقلقة، بل السعي إلى بناء معرفة مُتَقَدِّة اعتبرنا دراسة إدوارد سعيد «تجربة الاستلاب» أحد منطلقاتها الأساسية.

ولذلك، انشغلنا بسؤال الفضاء الروائي، ليس فقط كانشغال أدبي أو جمالي، بل كذلك كانشغال ثقافي ونقدي (نقصد نقد الوعي)، لأن للثقاف العربي (الإنسان العربي) مازال مُطالبًا بأن يعيش الفضاء كعلامق، وأن يعيشه أيضا كجغرافيا في الوقت الذي لم يعد سؤال الفضاء بالنسبة

للمثقف الغربي مطروحا عليه كسؤال جغرافي بنفس الحدة التي كان مطروحا بها في خريز العقلمين.

V.

يقي أن نؤكد على أن هذه الدراسة تظل مدينة لعدد من الأصقاء والإخوة. وليس اتباعا لتقليد، وإنما تأكيد حقيقة واعتراف بجميل، أن نستحضر الذين كان لهم فضل على عملنا هذا، نستسمح أن نذكر منهم بالخصوص: أحمد قايل، محمد بهاجي، محمد أسليم، صلاح بوسريف، د. أحمد المدين، مصطفى النحال، جلال الحكموي، الشرقي الحمداني، موليم العروسي، حليلة حمدان، د. عبد الله زيوزيو، أحمد جاريد، يحيى بن الوليد، عبد النبي دشين، د. محمد العمري، مصطفى فهمي، محمد المزدوي، عبد الرحمن غانمي، حسن نرايس، أحمد فرشوخ، عبد الرحيم الجلدي، نور الدين صديق، بوجمعة أشفري، فؤاد البهجة الذي سهّل إمكانية الاستفادة من المرجعيات الانجليزية. وكذا الصديق العزيز عبد القادر الحضري الذي احتفى بهذا العمل بما يستحق التقدير.

أشكر الجميع، من فتح لي مكتبته الخاصة ومن مدّني بمراجع أو أرشدني إلى أخرى. ولا أنسى بالطبع أستاذي الأعز أحمد البيوري الذي يعرف كيف يمنح صبرة وثقته ووقته، وكفاءته الأكاديمية الرصينة، ودفع تشجيعاته. وأيضا الأستاذة مصطفى الشاذلي، وعبد الحميد عقار، وبشير القمري الذين أثروا هذا العمل بقراءتهم وعمق مناقشاتهم.

وهل أحتاج لأن أشير إلى أنه لولا الفضاء الملائم الذي وفّره زوجتي ودعمها المتضامن المليء بالحب، كي أنجز هذه الدراسة، ما كانت لتكون ممكنة، بل ولما كنت لأغلب على متاهاتي اليومية المتعددة...

لجميع الشكر والمحبة والتقدير.

بحثاً عن الفضاء الضائع

(تمهيد عام)

I - بعض منطلقات الاختيار

من أين نبدأ؟

إنه السؤال الأول الذي يواجه كل باحث أو دارس. سؤال البداية الذي يعبر في الحقيقة عن قلق «الحركة الأولى» كما يسميها رولان بارت عندما توقف عند معضلة هذا السؤال ذاته: من أين نبدأ؟¹

والواضح أن البداية تنبع من انشغال جاهز، من نظرية دلالية اكتملت أهم ملاحظاتها حول الموضوع الذي نتفيا دراسته. وأيضاً تأسيساً على محددات اختيار ناضج، اختيار يتقاطع فيه الذاتي بالموضوعي. وأن يختار المرء موضوع بحثه بنضج، معناه أنه يفترض كونه «عاقلاً بما فيه الكفاية»، بتعبير بارت، كي يجابه بشجاعة ووعي كل تعقيدات مسار بحثه و«يتوقع ويتحمل الأخطاء، والأعطاب، والمعوقات، والمثبطات» («تري ما الفائدة منها؟») التي لا بد وأن تحدث خلال المسيرة التحليلية: ومتحرراً بما فيه الكفاية حتى يجرؤ على استغلال ما يمكن أن يتوفر عليه من حساسية بنيوية، وحس للمعاني المتعددة².

لقد كان غاستون باشلار يقول بصدد بدايات بحثه ودراساته ومقالاته الفلسفية وغيرها بأن الصفحات الأولى بالنسبة لفيلسوف تكون «صعبة وقاسية، ذلك لأنها تلزمه

1 - رولان بارت، من أين نبدأ؟ (ترجمة محمد البكري)، عيون المقالات، العدد 12 - 1989،

ص: 80 - 91.

2 - المصدر السابق، ص: 80.

كثيراً³. وأتصور أن من مستلزمات هذه البداية توضيح طبيعة المحددات المختلفة التي تحكمتم في اختياري للبحث في سؤال الفضاء الروائي، وذلك بالرغم مما أعرفه عن حالة التهميش والتحقيم التي عرفها هذا المفهوم في جل الدراسات النقدية والنظرية داخل حقل الانشغال الأدبي.

وإذا كان واضحاً أنني أسعى إلى تحديد وتشغيل أحد مكونات الخطاب الروائي، مكون بقي معطلاً في ركام منجزات النظرية الأدبية، فإنني مع ذلك لا أطمح مطلقاً إلى بناء نموذج نظري أو تشكيل منهج جديد في هذا الباب. إن ما أقوم به أساساً - هنا والآن - هو إزاحة نوع من الغبن عن جانب مهم من جوانب التمثل الأدبي والفني، مستندا في ذلك - وبالأساس - إلى حساسيتي الإبداعية وذائقتي وبعض تمرسي الذاتي في حقل القراءة والكتابة. حساسية مفتوحة بطبيعة الحال على شبكة من المعارف والحقول المختلفة، بل هي نتاج لها في العمق.

وما يمكن قوله في هذا المنحى هو أنني بقيت منشغلاً بهشاشة وشحوب الحضور الفضائي في الكتابة الأدبية العربية المعاصرة، شعرية وروائية على السواء. حضور الفضاء لا بوصفه أمكنة تدور فيها الأحداث والوقائع الحكائية أو تتركز حولها الفاعلية الشعرية، بل الفضاء كوعي عميق بالكتابة جمالياً وتكوينياً، الفضاء كشكل ومعنى، الفضاء كذاكرة وهوية ووجود، الفضاء كسؤال إشكالي ملتصق بوعينا الثقافي والاجتماعي والجمالي ونسبحنا السيكلوجي والمعرفي والإيديولوجي.

كما وجدتُ أن أغلب المراجع النظرية والتحليلية المتصلة بحقل دراسة الفضاء اشتغلت أساساً على الفضاء الأنثروبولوجي والمعماري والحضري (الفضاء الواقعي، المادي، المشخص)، وفي الجانب الأدبي والجمالي وجدت أن جل - إن لم أقل مجموع - الدراسات المنجزة قد انصبّت على السرديات (حكاية ورواية وقصة قصيرة) من جهة، وعلى العمل التشكيلي من نحت وتصوير، وفنون استعراضية (مسرح، رقص...)، من جهة ثانية. وبالتالي، بدا لي من الصعب أن أقوم ببحث مضاعف: أستأنس في جزء منه بالمفهوم الجديد ومستويات تطبيقه واستثماره، وأنجز في جزء آخر منه إنجازاً إجرائياً كبيراً لتحويل التطبيقات والاستعمالات من حقل سردي إلى حقل آخر مختلف. وأقصّد بالذات ما كانت في النفس من رغبة متقدة لقراءة التجربة الشعرية العربية المعاصرة.

3 - Gaston BACHELARD, *Le droit de rêver*, Paris, P.U.F., 1973, p. 233.

وبينما كنت مغموراً باندهاشي الأول تجاه ما كان يبدو لي - وأنا في خانة الشغف الزائد بموضوعي واختياري - مكوناً مركزياً في الكتابة والتفكير، في الوعي والملاوعي، في الوجدان والذاكرة، أدركت أن «الاهتمامات» المرشوشة هنا وهناك بالفضاء الروائي - لدى عددٍ من مُنظري الأدب الحديث - لم تكن تعتبر، في الحقيقة، مفهوم الفضاء كمقولة سردية، بل كانت تقاربه كنتيجة للمقولة الزمنية أو كمكان وظيفي لا يكتسب قيمة إلا من خلال دراسة الوصف أو المرجع. ومن ثم انضاف إلى رغبة الاستئناس والفهم امتلاء برغبة جديدة هي رغبة الانتصار لمفهوم بدا لي (ويبدو لي إلى الآن) أنه ذهب ضحية اقتاعات أكاديمية فضّلت أن تتمسك بإرادة بناء النموذج النظري على حساب إنصاف مختلف مكونات المتن الحكائي (القصة) أو الخطاب الروائي (السرد) ..

من هنا، إذن، نَمَتْ لدي - أقصد في ذهني وفي نفسي - قوة الانحياز الموضوعي للفضاء كما هي شاسعة لدى آخرين كثيرين قوة الانحياز الموضوعي إلى الزمن. وهكذا إذن جاء الاختيار الحاسم بأن ألا حق هذا المكون الأساس عبر استراتيجيته المعقدة والممتدة، وذلك من خلال مساءلة النظرية السردية وعبر تحليل للنصوص.

II - قراءة نقدية، وفق إستيتيقي

لذلك، فإن الوعي بالفضاء الروائي، كمُكوّن خطابي مركزي وكسؤال هوية إبداعية أو كوجود مُتمثّل، سيكون منطلق دراستنا النقدية هذه. منطلق العبور إلى جوهر الكتابة وإلى مرجعها وظلالها وآفاقها. ذلك لأن القارئ المحكوم بـ «تراث معارفه»، بتعبير أومبرتو إيكو⁴، لا يمكنه أن يعدّ تقديراته واختياراته التأويلية، في وضع تواصل معين، مع موضوعه مجرداً من تراثه الشخصي.

ونحن إذ نلح منذ البداية على الطابع النقدي لقراءتنا لاستراتيجية الفضاء الروائي في كتابة سحر خليفة، فإنما نفضّل أن نكشف عن عناصر برنامجنا، الآن وفي الفصول الثلاثة للباب الأول من دراستنا الذي نعتبره مدخلاً تأسيسياً لهذه القراءة. ومن ثم، أهمية أن نبرز إلى جانب بعض محددات اختيارنا الذاتي للموضوع طبيعة اختيارنا أيضاً للمنحى النقدي، وبالتالي قراءتنا لتجربة سحر خليفة، الروائية الفلسطينية، من خلال فضائها الروائية،

4 - Umberto ECO, *La structure absente - Introduction à la recherche sémiotique*, Paris, Ed. Mercure de France, 1972, p. 56 - 57.

تشخيصها وتكوينها ووظائفها. بمعنى أننا نحاول، نقدياً، أن نسعى إلى بناء معنى الفضاء في هذه التجربة الإبداعية العربية. قراءة تأخذ بعين الاعتبار كل مكان وكل فضاء في النص الروائي، لكنها في ذات الوقت تأتي من «كل مكان في آن واحد». وهنا قد ينبو وجه ديريدا وتعدد أصوله المعرفية والإدراكية لتسفعنا - كما نرى - إلى درجة يصبح معها الانتماء إلى ألقه ثمناً باهضاً لا يستطيع القارئ العادي دفعه⁵، وخاصة لما يصبح الجري وراء تعدد المعاني لفضاء النص جرياً خلف تعددية من الشكوك.

ونحن إذ نتمسك بالطابع النقدي لدراستنا هذه، فلأننا لا نتطلع إلى بناء نموذج نظري معين، وإنما لأننا نعتقد بأن تحديد موضوع بحثنا وتوضيح مقاصده ونواياه يستلزم بالفعل الإعلان منذ البداية عن طبيعة الموضوع وأدوات الاشتغال. ومن هنا أهمية التأمل في الأفق النقدي لهذه الدراسة خصوصاً إذا كنا ندرك بأن «كل تأمل جدي نوعاً ما - بتعبير جونيت - في النقد يستدعي بالضرورة تأملاً في الأدب ذاته»⁶، بل ولأن الطابع التأويلي عموماً عندما يلف قراءة نقدية معينة فإنه يطبع الفهم والتمثل والتحليل والاستنتاج بشخصية الناقد وألقه الإيديولوجي والفكري وتجربته الذاتية وصلاته بسياقه الثقافي والاجتماعي وبعبصره، وبالتالي يصبح تأويل العناصر النصية مندرجاً في نسق ليس هو نسق النص، كما يلاحظ تودوروف، وإنما هو نسق الناقد نفسه. ومن ثم، فإن «هذه التأويلات يمكن تبريرها، وهي على كل حال ضرورية، لكن لا ينبغي أن تنسى أنها تأويلات»⁷.

إن النقد أولاً وقبل كل شيء ليس إلا قراءة، كما تؤكد فرانسواز فان رسوم - غيوم⁸، قراءة لمغامرة ليست فقط مغامرة الشخصيات في المجرى الحكائي، ولكن أيضاً مغامرة الأدوات، والأفكار، والقيمات، بل ومغامرة الأوصاف والصور والكلمات والمشاهد. إنها مغامرة الفضاء الروائي بالمعنى العميق للفضاء. وبهذا التصور لا يكون النقد

5 - انظر وليم راي، المعنى الأدبي، من المظاهر إلى التفكيكية، ترجمة: د. يوثيل يوسف عزيز، بغداد، دار المأمون، الطبعة الأولى، 1987، ص. 162.

6 - Gérard GENETTE, *Figures III*, Paris, Ed. Seuil, 1972, p. 9.

7 - انظر تزييفان تودوروف، «مقولات السرد الأدبي»، ترجمة الحسين سحّان وفؤاد الصفا، مجلة آفاق - محور طرائق السرد الأدبي، العدد 8 - 1988/9، صص. 30 - 54.

8 - Françoise VAN ROSSUM GUYOM, *Critique du roman*, Paris, Ed. Gallimard, 1970, p. 10.

بمجرد ملحق أو تابع ذيلي للأدب، وإنما يكون «هو قرينه الضروري (فلا يمكن للنص بُدْ أن يقول حقيقته الكاملة)...»⁹. ولذلك، غدا النقد الأدبي معادلاً للنص الأدبي أو هكذا تم السعي إلى ذلك من طرف عدد من كبار النقاد (رولان بارت، موريس بلانشو...) عسى نحو ما يوضح ذلك بكثير من التفصيل جان إيف تادي في كتابه الهام حول النقد الأدبي في القرن العشرين، وليس فقط بفضل قيمة الأسلوب النقدي أصبح النقد قراءة وكتابة، بل لأن الوضع الاعتباري للنص الأدبي تغير، ففقدت الكتابة ما كان يبدو أنه «تجانسها» و«وحدتها الدلالية»، وبالتالي أصبح تشكيل معنى النص بحاجة إلى قراء مؤولين مثلما «أصبح التأويل جزءاً من النص»¹⁰.

وهكذا، يستعين تادي بموريس بلانشو في التأكيد على أن النقد له معنى كانطي؛ إنه «مرتبط بالبحث عن إمكانية التجربة الأدبية، لكن هذا البحث ليس فقط بحثاً نظرياً، بل هو المعنى الذي تشكل بواسطته التجربة الأدبية»¹¹. بمعنى آخر، فالكتابة النقدية لا تأتي أساساً لبناء المفاهيم والنماذج النظرية، وإنما لتظهر إلى الخارج ما يعتمل بداخل النص الأدبي: «فضاء فارغ ولكنه حي»، «فضاء ونين»، وتمنح لحظة للواقع غير الناطق، غير المحدد للعمل الأدبي، لحظة لكي يتكلم»¹².

وإذا كان النقد بهذا المعنى مفتوحاً على هاجس الكتابة، هاربا من كل علموية متنفخة، فلأن الفضاء الثقافي العام الذي نعيشه اليوم أصبح يقتضي ضرورة هذا العبور إلى فضاء الكتابة. وذلك حتى لا يظل وعينا النقدي جامداً متخشبا ومشلوداً إلى صدى المفاهيم وثبات النظرية، وبالتالي حتى يتسنى لهذا الوعي أن يتغذى بالآفاق الرحبة لتخييل الكتابة. من ثم، فالاختلاف القائم بين الكتابة الأدبية والنقد لا يجعل من العلاقة الممكنة بينهما علاقة «مستحيلة»، كما لاحظ محمد براءة، بسبب الاختلاف بين «دائرة المفهومات والمصطلحات التي ينتجها الفكر بالنسبة للنقد، ودائرة الكلمات والصور المجنحة التي

9 - تزييفان تودوروف، *نقد النقد (رواية تعلم)*، ترجمة: د. سامي سويدان ومراجعة: د. ليليان سويدان، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، 1986، ص. 16.

10 - Jean Yve TADIE, *La critique littéraire au XXème siècle*, Paris, Ed. Belfond, 1987, p. 9.

11 - *Ibid.*, p. 11.

12 - *Ibid.*, p. 11.

«يبدعها» الأديب مستوحيا طاقاته الخاصة والتميزة»، فهو اختلاف قائم فقط من حيث علاقة كل طرف باللغة وتشكيل الخطاب، و«لكنهما يلتقيان في كونهما يتقصدان التعبير عن تجارب وحقائق ومشاعر، وعن معرفة وتصورات تلامس أسئلة الإنسان في حياته اليومية والداخلية ولا تستوفيها الخطابات الأخرى. هكذا، فإن النقد مثل الأدب يصدر أيضا عن نصوص غائبة، وعن تذكرات مترسبة من القراءات والملاحظة والمعايشة، فيتخذ من النص الأدبي نقطة انطلاق لمسألة فحوى ما تنقله الخطابات العلمية والفلسفية، وما تعاينه الحواس والمشاعر»¹³. ولذلك، فالعناصر الجنينية للمعنى الأدبي التي تهويها النصوص الأدبية إنما تأتي القراءة النقدية لبلورتها وإساعفها على أن تكتمل وتولد «بحرية لا تقل عن حرية الكتابة»¹⁴ ذاتها، أو لنقل إن الناقد يأتي إلى النص ليمنحه معنى جديدا «قاصدا بذلك إلى أنه ليس هناك معنى وحيد للعمل الأدبي، وأن معاني أخرى لابد أن تتولد لتصارع المعنى الذي توصل إليه الناقد، على نحو يجعل المعاني كلها قابلة للتبدل»¹⁵. بتعبير آخر فالمعنى بالنسبة للناقد هو ما يشكله هو، وما يقوله هو، مسترشدا بالملاحم الدلالية الأولى المندسة في النص كشذرات وفراغات وظلال ومناطق غير محددة.

لذلك، لاجابة لأن يكرر المرء السؤال باستمرار: ماذا على النقد أن يفعل؟¹⁶ طالما أجمعت أهم المناهج النقدية الحديثة على وظائف نقدية محددة: «أن يتيح لعلمق النتائج أن يتكلم»، أن يرتبط بالبحث عن إمكانية التجربة الأدبية»، أن يكون «مرتبطا بواحدة من المهمات الأكثر صعوبة، ولكن الأكثر أهمية في زمننا (...): مهمة صون الفكر وتحريكه من مصطلح القيمة»¹⁷. ومعنى هذا التحرير أن النقد في عبوره إلى الكتابة يرقى عن تسخير معرفته لمجرد تقييم ثمرات النص الأدبي، فالتقييم «لا يمكنه أن يكون إلا بممارسة هي ممارسة

13 - محمد براءة، النقد وصياغة الأسئلة المضمرة، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 70 - 17 مارس 1985.

14 - وليم راي، المعنى الأدبي، مرجع مذكور، ص. 197.

15 - إديث كيروزيل، عصر البنيوية، من ليفي سيراوس إلى فوكو، ترجمة جابر عصفور، الدار البيضاء، منشورات عيون، الطبعة الثانية، 1986، ص. 191.

16 - سؤال طرحه تودوروف في نقد النقد، مرجع مذكور، ص. 36 لكي يسائل ويتمحن إجابات المدارس النقدية المختلفة التي شكلت مرجعيات مركزية لتجربته الشخصية في النقد.

17 - المرجع السابق، ص. 63.

الكتابة»¹⁸. ومن هنا «قابلية التغير»¹⁹ التي أتاحها المناهج النقدية المعاصرة للدراسة «الكتابة الأدبية، لا من منظور الكاتب، وإنما من وجهة نظر القارئ (الناقد)، وأتاحت إمكانيات تحققها كفعل جلبي، على نحو ما أوضح ذلك يوري لوتمان.

إن الإمساك إذن بمحضورات الفضاء الروائي في كتابة سحر خليفة هو الإمساك بمعنى الفضاء، بل بصياغة وبناء هذا المعنى. ولا يصنع ذلك غير القراءة النقدية. بمعنى آخر، فمعنى الفضاء كما سنقدمه في هذه الدراسة لن يكون في جوهره وحقيقته إلا نتاجاً لخطابنا النقدي تماماً كما كان أحد النقاد محقاً «في التشكك حول أن «رؤية العالم» التي يستخلصها المنظّر هي في أغلب الأحيان نتاج خطابه أكثر منها نتاج النص الأدبي الذي يتم تحليله»²⁰.

من هنا، وبما أن سيرورة المعنى هي سلسلة اختيارات وانتقائات، وربما سلسلة تحريفات دلالية وتركيبية، فإن كل معنى نبوره للفضاء الروائي في هذا المتن الذي ندرسه إنما هو نتاج قراءة شخصية أساسها وعي معين، تجربة معينة واستجابة خاصة لحوافز الفضاءات كما تفرض نفسها للقراءة، عبر فراغات نصية هي بمجمل حالات عدم التلاؤم بين النص وقارئه. معناه أن قراءتنا النقدية تدخل في لحظة توتر مع ما تطمح الكاتبة لأن تلزمنا به، حيث نقوم نحن بتحويل هذه «الإلزامات» وتهجينها وإسعافها على أن تعيد بناء نفسها عبر آليات أخرى في طريقها من الكتابة إلى القراءة²¹، هي آليات التأويل بالذات.

وإذا كنا نؤمن بأن الكتابة النقدية لا يمكن أن تستقيم في ظل مطلق منهجي، فإن «مشكل التأويل لا بد له من نظرية»²² مع ذلك. صحيح أن هناك من كان «يحقق نظريته أثناء قيامه بصياغة التأويل، صياغة نظرية ويخضع خطابه لمنطق نظريته...» كما فعل بارت

18 - Roland BARTHES, S/Z, Paris, Ed. Seuil, 1970, p. 10.

19 - Iouri LOTMAN, *La structure du texte artistique*, Paris, Gallimard, 1973, p. 95.

20 - انظر بيير زيمبا، *النقد الاجتماعي (نحو علم اجتماع للنص الأدبي)*، ترجمة عابدة لطفي، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1991، ص. 204.

21 - Iouri LOTMAN, *op. cit.*, p. 57 - 58.

22 - انظر مناقشة د. عبد القادر الفاسي الفهري لمداخل د. عبد الفتاح كيليطو (مسألة القراءة) ضمن مؤلف جماعي للعروبي، وكيليطو، والفاسي الفهري، والجابري، *النهجية في الأدب والعلوم الإنسانية*، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1986، ص. 35.

وفيش مثلاً²³، لكن بالنسبة لسياق كهذا يصعب على الباحث أن يخل بالتصريحات المنهجية الضرورية.

نعرف أن المنهج ليس حلاً سحرياً، وخاصة بالنسبة للنص العربي الذي له متخيله التميز وتعقيداته وملابساته التي قد لا تستسلم بالسهولة التي تتصورها المنهج نقدي، لنظرية أدبية ذات منبت فكري وحضاري مختلف، لكن مع ذلك ينبغي ألا ننسى أبداً أن النظرية هي «فرضية عمل بواسطتها يمكننا أن نعين وأن نفهم الأفعال»²⁴. والأهم من ذلك أن المشكل الأساس ليس مشكل المنهج، كما أكد إجنباوم (سنة 1925)، لكنه «مشكل الأدب كموضوع»²⁵، بل «إن ما يميز مدرسة نقدية ليس المنهج أبداً (فهذا ليس إلا تخيلاً يهدف إلى كسب أتباع)، إنه طريقة بناء موضوع الدراسات» كما أوضح تودوروف ذلك في قراءته لتجربته النقدية والنظرية، أي الطريقة التي يحضر فيها المنهج في القراءة النقدية لاعتبارين: وجوب ممارسة الافتراض، ووجوب التحقق²⁶.

وفي هذا الصدد، ربما كانت البنيوية تبدو أكثر قابلية لقراءة الفضاء على اعتبار أن من مميزات الفكر البنيوي «التركيز على أهمية المكان أو الفضاء، وأهمية الموقع (La position)، والعلاقات المنسوجة بين العناصر»²⁷. وقد أوضح جيل دولوز أن المهم بنيوياً ليس من يحتل الفضاء، وإنما المهم هو الفضاء ذاته. ولكن البنيوية، برغم كل ذلك، ليست مؤهلة كما ينبغي للنهوض بكل ثراء الفضاء الروائي، خصوصاً إذا علمنا أن «أول سمة من سمات الفكر البنيوي أنه فكر مجرد ورمزي، يتجنب الواقع المعاش ويعتبره شيئاً خارجاً عن دائرة عمله. إن مجال البنيوية ليس المعاش وليس التخيل (L'imaginaire)، وإنما هو شيء آخر أعمق من كل ذلك وأبعد غوراً: إنه الرمزي (Le symbolique) أو إنه المجرد (L'abstrait) الذي يؤدي إلى اكتشاف القوانين التي تتحكم بالأشياء قبل أن تخلق الأشياء»²⁸. ولذلك،

23 - وليم راي، المعنى، مرجع المذكور، ص. 206.

24 - Jean Yve TADIE, *op.cit.*, p. 18.

25 - *Ibid.*, p. 18.

26 - تودوروف، *نقد النقد*، مرجع المذكور، ص. 36.

27 - انظر هاشم صالح، ميشيل فوكو كما يراه النقد الفلسفي الفرنسي، مجلة *مواقف*، عدد 49، شتاء 1984، ص. 103.

28 - نفسه، ص. 102.

لكي تتلقى الفضاء في العمل الأدبي بشكل أفضل «أصبح الإدراك الإبداعي للمتلقى/المرسل إليه أمراً لا عيب عنه. إن المشهد، المرئي أو المكتوب، لا يوجد بالفعل إلا بفضل مساهمة المرسل إليه»²⁹. ومعنى ذلك، ضرورة أن تلوذ قراءة الفضاء بالمسكن الفينومينولوجي. ضرورة أن نختار استيقا التلقي لما تتيحه من أفق أرحب لالتحام القراءة بالكتابة، ولما توفره من حرية في الحركة النقدية داخل النص. نقول بهذا الاختيار المنهجي حتى وإن كنا نعرف مع دريدا بأن «النقد الأدبي بنيوي في كل عصر، بفعل جوهر وبفعل مصير»³⁰.

إن تركيز نظرية التلقي على قيمة مشاركة القارئ في بناء معنى النص الأدبي، وجعل النص مفتوحاً على الذات القارئة وعلى البعد التاريخي والسياقات الاجتماعية والثقافية، هو ما أتاح للكتابة النقدية المعاصرة الاشتغال من منظورات وبتمثلات جديدة، وهو ما يجعل النقد بالفعل ينتبه إلى مكونات أدبية وموضوعية لم تحظ بالاعتبار اللازم لفترة طويلة، ويسلط عليها عدسته المكبرة كي تصبح أكثر تنوعاً وأكثر قابلية للتحليل والقراءة والتحفيز على تناسل المعنى. ومن ثم، مدى ملائمة هذه المنهجية لموضوع دراستنا النقدية. ذلك أن مفهوم الفضاء همشته أغلب الدراسات النظرية، إن لم نقل «اضطهدته» وأقامت له محاكمات نظرية باعتباره «يوقف» جريان الحكيم³¹، في حين تتيح لنا إستيقا التلقي إمكانيات مهمة لتمثل جيد للفضاء الروائي.

صحيح أن كثيراً من الجهد النظري الغربي ركز على قيمة المقولة الزمنية في المحكي الروائي والقصصي، من حيث «يمكن لمحكي معين أن يتجاوز الفضاء وإن كان لا يستطيع مجاوزة الزمن»³²، ومن حيث تبدو حجة الفضاء «هشة» أمام «صلابة» حجة الزمن، إذ لا يتم العثور - كأدلة - إلا على روايات نموذجية قليلة جداً لا يكون فيها الفضاء مرسى وتوقفاً للخط الحكائي. غير أنه ينبغي من جانبنا أن ننظر إلى هذا الإشكال من زاوية نظر

29 - Michael ISSACHAROFF, *L'espace et la nouvelle*, Paris, Ed. José Corti, 1975, p. 13.

30 - جاك ديريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1988، ص. 133.

31 - Voir Abdellah MDAGHRI - ALAOU, «Le concept d'espace dans les théories du récit», in *Imaginaire de l'espace - Espaces imaginaires*, Casablanca, Ed. EPRI, 1988, p. 61.

32 - *Ibid.*, p. 59.

نقدية، فكرية وجمالية عربية منتظمة في تاريخها الأدبي والمعرفي، وفي سياقها الحضاري والجغرافي، لا أن نتسكع بمحاجاتنا الفكرية والإبداعية في متاهات الانشغال الأجنبي على نحو ما سنوضحه في فصولنا القادمة.

ولذلك، فما تتيحه هذه النظرية يظل أكبر من مجرد تحليل وفحص، وإنما هو تجديد الإحساس بالنص الذي نقرؤه وإعادة التفكير فيه، في حركة ذهنية يمتزج فيها - بتعبير جورج بولي³³ - الفكر المنتج للنص الإبداعي بالفكر القارئ، هي حركة الكتابة النقدية بالذات.

إن النقد هنا يستند إلى نظريته كي يكون لا فقط نقدا للنص. بما هو تجربة إبداعية، ولكن أيضا نقدا للوعي. ومن ثم معنى أن يكون للتلقي قوة «فتح العالم كما يفتح الطبيب الجراح جسدا» كما كان يقول عنه ميرلوبونتي³⁴، بمعنى أن يكون التلقي «بحشا روحيا»، بل أن يكون التلقي، في كل مستوياته، حاملا في ذاته معنى³⁵. المعنى. بما هو «كل ما يتبدى للوعي وكل ما يوجد للوعي»³⁶. والوعي. بما هو، في دراستنا هذه، وعي بإشكالات الوجود والهوية والذات واللغة والمجتمع، وعي بإشكالات الكتابة. وذلك من خلال التجربة الروائية لسحر خليفة.

III - لماذا سحر خليفة؟

لماذا سحر خليفة أو لماذا الفضاء الروائي في تجربة هذه الروائية الفلسطينية؟ ربما لأن الناقد يختار كموضوع للدراسة نصا أدبيا (أو خطابا أدبيا)³⁷ يسعف

33 - Georges POULET, «Lecture et interprétation du texte littéraire», in *Qu'est ce qu'un texte?*, Paris, Ed. José Corti, 1975, p. 69.

34 - MERLEAU - PONTY, *Le visible et l'invisible*, Paris, Ed. Gallimard, 1964, p. 271.

35 - MERLEAU - PONTY, *Phénoménologie de la perception*, Paris, Ed. Gallimard (Tel), 1945, p. 9.

36 - جاك ديريدا، *مواقع (حوارات)*، ترجمة وتقديم: فريد الزاهي، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1992، ص. 32.

37 - لا بد أن نشير في هذا الهامش إلى أنه بالرغم من الفروق النوعية القائمة بين مصطلحات: النص، الكتابة، القول، الكلام الأدبي، بالرغم من خصائصها النوعية، اللسانية والنقدية، كأجناس

نظريته النقدية، وهو أمر مشروع - على الأقل إذا استحضرنا ما قاله زبدا - مادمت «حبيب الخطابات النظرية (التي يجب أن تسعى بالضرورة إلى نوع من الاتساق) تميل إلى تحييد معنى موضوعاتها»³⁸، بل وتميل إلى اختيار طبيعة موضوعاتها أيضاً، إذ غدا لخصم النقدي العربي، كنظيره الغربي عموماً، أكثر ميلاً إلى اختيار الخطاب الروائي موضوع للقراءة النقدية والنظرية «حيث إن مساحته المرجعية والتوثيقية أكثر وضوحاً من القصيدة»³⁹.

وليس سرا - هنا والآن - أن هذه القراءة النقدية تختار نصها الخاص بها. ومن ثم يمكن القول بأنني سأقرأ سحر خليفة التي تهمني. أقرأ الجانب الذي يضيئ أسئلتي وقلقي كتابتي في كتابتها بما هي ملتقى للخطابات وحوض للدلالة. إنها، بهذا المعنى، كتابة تخصني. فيها، في إبداعها الأدبي وفي تجربة حياتها أيضاً ما يشدني إليه وما يحفزني على التساؤل والتداعي وابتكار المعنى والتأمل الجوهرية. هكذا في كل عمل نقدي، لمة شغف ما بكتابة معينة أو بتجربة خاصة. شغف لا يسمى. ولذلك، ربما تصبح فرحة القراءة انعكاساً لفرحة الكتابة كما لو أن القارئ كان شبيحاً للكاتب⁴⁰، ويصبح النقد حواراً ولقاءً بين صوتين: صوت الكاتب وصوت الناقد، بدون أن يكون لأحدهما امتياز على الآخر⁴¹.

ربما نختار سحر خليفة أيضاً، فضلاً عن هذه الاستجابة الشخصية، لكونها كاتبة فلسطينية (ولذلك معنى وقيمة)، ولكونها كاتبة حققت مستوى معيناً من التراكم والحضور الأدبي والثقافي. فقد ظلت تمارس نشاطها الإبداعي والاجتماعي داخل الأرض المحتلة وفي تماس يومي مع الاحتلال الإسرائيلي، إلى جانب نضالها النسوي من داخل القضية الفلسطينية

خطابية، فإننا نفضل استثمارها كتحليلات وكتسميات للخطاب الروائي، موضوع الدراسة هنا. وذلك من حيث إن الخطاب (على نحو ما هو واضح لدى ميشيل فوكو. انظر: نظام الخطاب، ترجمة: د. محمد سيلا، بيروت، دار التنوير، الطبعة الأولى، 1984، ص. 9) يشمل كل إنتاج ذهني، له منطقه الخاص وارتباطاته السياقية؛ «فهو ليس ناتجاً بالضرورة عن ذات فردية يعبر عنها أو يحمل معناها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنية أو فرع معرفي ما».

38 - يير زبدا، النقد الاجتماعي... مرجع مذکور، ص. 97.

39 - نفس المرجع، ص. 123.

40 - Gaston BACHELARD, *La poétique de l'espace*, Paris, PUF (Quadrige), 12ème édition, 1984, p. 10.

41 - تودوروف، نقد النقد، مرجع مذکور، ص. 147.

وفي أفقها. وبالتالي، لكونها لم تحظ بمتابعة نقدية جدية ومسترسلة، إلا من بعض القراءات القليلة. ولعلها ليست صدفة ألا نجد أية إشارة أو وقفة ذات قيمة في العديد من المؤلفات المكرسة لدراسة الأدب الفلسطيني المقاوم والتعريف به، بما فيه الأدب الصادر تحت الاحتلال، إلى نتاج سحر خليفة⁴². قد تكون أسباب هذا الإهمال «منهجية» أو «إجرائية»، لكننا نظن أن الأمر في العمق يتعلق ربما بإحساس عام ظل سائدا لدى عدد من المثقفين والباحثين الفلسطينيين بأن سحر خليفة لا تكتب «أدب مقاومة»، وهذا صحيح تماما بالمعنى التقليدي للمفهوم. وذلك لأنها في نظرنا كتبت على العكس أدبا يقاوم.

ولذلك أيضا، يمكن لنموذج سحر خليفة أن يسعفنا بخصوص دراسة استراتيجية الفضاء، كموضوع وكسؤال مركزي، في الانتباه إلى أهمية «الإفراغ الإيديولوجي» الذي تنجزه كتابتها الروائية من خلال تمثيل ورصد المفارقة الممكنة بين الخطاب والفعل في المعيش وفي الممارسة السياسية الفلسطينية. إفراغ تبلوره آليات الكتابة الأدبية، وتستلزمه «جدلية الربط بين المعرفي - الثقافي والإيديولوجي - السياسي» التي يرى محمد برادة أنها فعل أساس في استيعاب تبدلات الواقع الفلسطيني والتأثير فيه، في أفق «التغير وفهم الضرورة وتدعيم الحوار الديمقراطي بالانفتاح على قيم مشتركة يستدعيها تطور النضال ومكاسبه»⁴³.

أما ما لسحر خليفة من قيمة كائن في الذات في حقل الكتابة، فلأنه جانب يمكن أن

42 - انظر تعريفا قصيرا بسحر خليفة في كتاب أحمد عمر شاهين، *موسوعة كتّاب فلسطين في القرن العشرين*، دمشق، دائرة الثقافة/منظمة التحرير الفلسطينية (الأهالي للنشر)، الطبعة الأولى، 1992، صص. 208 - 209. وفيه نقرأ: «سحر خليفة (1950) • ولدت في نابلس سنة 1950، وأنهت دراستها الابتدائية والثانوية فيها • درست في جامعة بيرزيت وحصلت على شهادة بكالوريوس في اللغة الإنجليزية • أكملت دراستها في الولايات المتحدة الأمريكية ونالت درجة الدكتوراه • تعمل في مركز الدراسات النسوية في عمان، وفي مختلف النشاطات النسائية • من أعمالها: *لم تعد جوارمي لكم*: رواية، بيروت، 1980؛ *الصبّار*: رواية، القدس، 1978؛ *عباد الشمس*: رواية، بيروت، 1980؛ *ملكات امرأة غير واقعية*: بيروت، 1988؛ *باب الساحة*: رواية، بيروت، 1991». مع الإشارة إلى أننا نعتمد هذه الروايات الخمس متنا لدراستنا هذه في طبعات سنشر إليها في حينها.

43 - محمد برادة، «فلسطين (و) السؤال الثقافي العربي»، مجلة *بياسر*، العدد 2، ربيع 1990، ص. 37.

يضيء في كتاباتها جوهر ذلك الصراع متعدد الجبهات، والذي يغذي فضاءها الإبداعي بروح شرسة تجعله على الدوام في سعي لتفتيت مختلف الإرغامات وإضعاف السلط المادية والرمزية. طبعاً، لاجابة هنا للتذكير بجهود التحليل والتنظير التي بذلها على الخصوص ميشيل فوكو، رولان بارت، يير بورديو وإيمريو إيكو في موضوع السلطة المتعددة للتناسل هنا وهناك، حيث أكلوا - كل من موقعه الفلسفي والنظري - على أن ليس هناك من رفض واحد مطلق للسلطة كإكراه وعلاق ولغة ومطاب ومبادئ وإرغام، ولكن هناك «مقاومات موزعة على الفضاء وعلى الزمن»، بتعبير مؤلف كتاب «أمبرتو إيكو»⁴⁴. وهو ما يبدو أن سحر خليفة تحاول أن تمارسه في الكتابة وفي الواقع. لكن إيكو وهو يقدم «صفحة جميلة من الأفكار» في هذا المنحى يرى بأن الأمر يتعلق بقضايا «لا تستطيع الذات الفردية حلها، إلا إذا انحصرت في الخيال الأدبي»⁴⁵. فهل بإمكان مثقفة عضوية أن تكتفي بالهم الأدبي وحده في تفويض سلط قائمة أولاً في اللغة؟ تلك أسئلة أخرى.

وإذن، فأن نتحدث عن فضاءات سحر خليفة، لا بالاعتماد على تفاصيل بيوغرافية مباشرة ومن خلالها منظور سحر للفضاء، علماً أن «الفضاء البيوغرافي يصبح فضاء حوار مع العمل [الروائي]»⁴⁶، ولكن استناداً بالأساس إلى هذا الذي يسميه س. دوبروفسكي S. Doubrovsky بـ «الخيال الذاتي» (Autofiction)، بمعنى أن يكون حديثنا معتمداً على هذا «الحو للمؤلفة» الذي يظل فيه حضورها متواصلاً مع ذلك، حيث لا ينبغي أن يشكل «توقيفاً للمعنى» بتعبير رولان بارت⁴⁷.

لقد ماتت فكرة «موت المؤلف»، فيما يبدو لنا، بموت الزمن الثقافي الذي طارد مفهوم المؤلف تحت ضغط وغلواء «بنوية منتصرة»⁴⁸. بالطبع، لن نبدل غلواء بأخرى لنقبل المبدأ اللامبالي لبيكيت القائل بأنه «لا يهم من يتكلم». ذلك لأن الجهد النظري الذي بذل بخصوص بناء مبدأ «وجهة النظر» أو «زاوية النظر» ليس من السهل تناسيه أو تخطيه

44 - Jules GRITTI, *Umberto Eco*, Ed. Universitaires, 1991, p. 93.

45 - *Ibid.*, p. 93.

46 - *Ibid.*, p. 93.

47- Michel CONTAT, «L'auteur comme espace biographique», in *De la genèse du texte littéraire*, Ed. Du Lérot - Tusson, 1988, p. 46.

48 - *Ibid.*, p. 39.

أو تجاهله عند كل قراءة تنغيا معرفة منظور كاتب معين إلى قضية ما. واضح لماذا هذا الإلحاح من جانبنا على مسألة فضاء سحر خليفة الروائي. إلحاح تستلزمه لا المسألة الأدبية فحسب، بل والفكرية أيضا. وهي مسألة نعتبر منها نحو رؤية أشمل وأعم للفضاء كسؤال وكإدراك. ومن ثم أهمية أن نحرص - ضمن ما يمكن الحرص عليه - على «حضور المؤلف» كمرجع ذاتي لكتابة معينة، بمنظور معين. أهمية أن نغيط المعنى - إذا أمكن - بين «المعيش» أو التجربة والعمل الروائي كما يخاط طبيبا بين حافتي الجرح (sutures de sens). وهذا بالخصوص لما تنطلق من «مبدأ المؤلف» كما هو في «نظام الخطاب»⁴⁹، «المؤلف طبيعا لا من حيث هو الفرد المتحدث الذي نطق أو كتب نصا، بل المؤلف كمبدأ لجميع للخطاب، كوحدة وأصل لدلالات الخطابات، وكبؤرة لتناسقها».

لنس قليلا ميرلوبونتي الذي تعلمنا منه أن ما نبحت عنه في النصوص قد لا يكون «إلا ما قد نكون نحن الذين وضعناه في هذه النصوص»⁵⁰ في أفق البحث الأعمق عن الجواهر، وبالخصوص جوهرَيّ التلقي والوعي في الكتابة. ولنطرح الأسئلة الأخرى: هل هناك وعي بحضورات الفضاء، بوظائفه وأدواره ودلالاته؟ بمعنى، هل ثمة وعي بمشترطات الكتابة الروائية وبمكوناتها الأكثر مركزية؟ هل هناك وعي لدى سحر خليفة بما يطرحه الفضاء من إشكالات سردية في كتاباتها؟ كيف تستمر - وهي تتمثل فضاءات معينة - تجليات حميميتها وإكراهاتها؟ وإذا سلمنا بأن كل حضور للفضاء في الرواية بالضرورة هو حضور إنسيج من الدلالات، فهل هناك وعي بمسؤولية الشكل تجاه هذا الفضاء؟ هل تبدو فضاءات الكتابة الروائية لدى سحر كفضاءات «حقيقية»، «واقعية» أم أنها مجرد حطام فضاء؟ هل منظور سحر خليفة للفضاء في الكتابة ينتظم في المنظور الفلسفي السائد للفضاء الأدبي الشعري والروائي؟ هل ثمة من صلات لهذا الفضاء الروائي بمستوى وطبيعة الوعي بالفضاء الوجودي والرمزي العربي عموما، أي ما يرقى بكتابة الفضاء من سياق اللغة الأدبية إلى سياق الفكر؟ باختصار، ما هي النوايا الخلاقة التي تبتكر وتشغل الفضاء في النص الروائي لسحر؟

أسئلة - فرضيات. ومن ثم الطريق نحو الإمساك بما يسميه فينيكوت Winnicott بـ

49 - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، مرجع المذكور.

50 - MERLEAU - PONTY, Phénoménologie de la perception, op. cit., p. II.

«الفضاء الكامن» للكتابة، من حيث يشكل هذا الفضاء إطاراً «تحتله التجربة الثقافية على المستوى البنيوي والعلائقي في آن واحد» والذي يتحدد «من خلال تجارب الحياة ووقائعها اليومية»⁵¹. هكذا يصبح الوعي النقدي بسؤال الفضاء الأدبي (الإبداعي) منطلقاً لبسوة وعي فكري بهذا السؤال في حياتنا وواقعنا، خصوصاً لما ندرك مدى امتداد كل وعي جمالي ومعرفي في الوعي العام. لتذكر هنا هنري لوفيفر الذي كتب يقول: «إن الفضاء الحقيقي، فضاء الفيلسوف وامتداده المعرفي (...)، يتخذ شكلاً وقاعدة في ذهن المفكر، ثم يلقي بظله على «الواقع» الاجتماعي، بل والمادي نفسه»⁵².

وإذا كانت قراءة كل نص أدبي «هي أيضاً، هي أولاً، هي بالأخص قراءته في سياقه»⁵³، فإنني أفترض - دون يقين كاف - فرضية تنطلق من أن ليست هناك معرفة فلسطينية، بل وعربية، بالفضاء كإشكالية وجود وإشكالية فكر. وبالتالي، فما ينبغي أن نفعله ليس الاكتفاء بقراءة متعاطفة مع الأدب الفلسطيني، تلذذ بمشاعره الحنينية أو تبني نمزقاته وأسئلته المقلقة، بل السعي إلى بناء هذه المعرفة المفتقدة التي يمكن اعتبار دراسة إدوارد سعيد «تجربة الاستلاب»⁵⁴ أحد منطلقاتها التأسيسية الناجحة، خصوصاً في سياق وفي مرحلة أصبح فيهما الفضاء رهاناً للصراعات و«لعرض الاستراتيجيات» المختلفة، سواء الفضاء كإشكالية يمكننا تحديدها وتقعيدها على مستوى نظري أو الفضاء كما يمكن ملاحظته تجريبياً (وهو لا يهمننا هنا كثيراً).

إن الرواية التي «تقدم نفسها كخطاب»، كما لاحظت كريستينا ذلك لتشكيل هنا بالفعل مرحلة حاسمة لا «في تصور الوعي النقدي للذات المتكلمة إزاء كلامها»⁵⁵.

51 - انظر: د. عباس مكّي، *المجال النفس الاجتماعي العربي*، بيروت، منشورات معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى، 1991، ص. 35.

52 - Henri LEFEBVRE, *La production de l'espace*, Paris, Ed. Anthropos, 13ème édition, 1986, p. 458.

53 - Georges, POULET, «Lecture et interpretation du texte littéraire», in *Qu'est ce qu'un texte?*, op. cit., p. 73.

54 - إدوارد سعيد، «تجربة الاستلاب»، ترجمة نهى سالم، *مجلة الكرمل*، العدد 8، 1983، صص. 14 - 32.

55 - جوليا كريستينا، *علم النص*، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1991، ص. 40.

فقط، بل في بلورة الوعي بأهمية الكتابة الأدبية في تشكيل وإثراء الواقع التاريخي الفلسطيني، وفي تجذير الفعل الثوري الفلسطيني في الوجدان العربي والإنساني. وبهذا المعنى، فإن كتابة سحر التي نقرأها هنا ليست حصراً كتابة سحر. إنها مخزن فكري - أدبي - تاريخي يختصر، نوعاً ما، من «الذريعة» لمقاربة مستوى وغط الوعي العام الفلسطيني بإشكالية الفضاء، جوهرها ومعنى وقضية. وذلك بدون أن نتصور مطلقاً بأن هذه الكاتبة تمنحنا نصاً روائياً «يترجم» فكراً أو أحداثاً جاهزة. إنها على العكس تقدم لنا نسيجاً معقداً يحتوي هذا الفكر وهذه الأحداث عبر كتابة تمتص الأشياء وتدججها في إيقاع عميق من فضاءات التجربة الذاتية واللغة والتلاقيات المختلفة. كل ذلك عبر صوت شخصي قادم «من موقع الفهم والانتقاد في آن واحد»⁵⁶. صوت سحر خليفة بالذات.

56 - محمد برادة، «باب الساحة»، مساهلة الانتفاضة والإيديولوجيا»، مجلة يسافر، العدد 5/4، 1991، ص. 104.

الباب الأول

الفصل الأول

الفضاء، أية استراتيجية؟

أ. فضاء الاستراتيجية

لماذا الفضاء الروائي؟

وقبل ذلك، لماذا الفضاء؟

لنقل إن استراتيجية الفضاء هي في الحقيقة استراتيجية متعددة. استراتيجيات. بعضها يسائل المنظور المشترك للفضاء داخل المحكي الأدبي (وبغير قليل من المجازفة: داخل الواقع المعيش)، وبعضها الآخر يمكن أن نسميه «استراتيجيات التميز»¹ التي يتحقق فيها منظور متميز أو فرداني أو خصوصي للفضاء، أي تحقق نوع من الانزياح عن المنظور العام والسائد.

بتدقيق أكبر، يمكن أن نقول أيضا بأن استراتيجية الفضاء الروائي (والأدبي عموما) هي استراتيجية كتابة واستراتيجية قراءة على السواء. وربما بسبب من هذا التداخل، انتشر مفهوم الفضاء دوغما أي «حاجز يعين له الحدود»² ليصبح الفضاء لصيقا بكل شيء، بكل حقل وبكل الصفات: فضاء أدبي، فضاء إيديولوجي، فضاء العلم، إلخ...

وإلى جانب كونها استراتيجية كتابة وقراءة، يمكن الحديث مع ذلك عن «سلوك استراتيجي» من ذلك النوع الذي يتحدث عنه دريدا، القائم على «الموضع داخل

1 - نستعير هذا الوصف من بيير بورديو. انظر حوار «فن مقاومة الأقوال» الوارد في كتاب: حوارات الفكر المعاصر، إعداد وترجمة محمد سبيلا، الرباط، مؤسسة الياقوت، طبعة لأوّل. 1991، ص. 61.

2 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, op. cit., p. 9 - 10.

الظاهرة»³. وذلك عبر «ترتيب استراتيجي معين، يقوم داخل الحقل نفسه وسلطاته الخاصة، وبقبله ضده استراتيجياته نفسها، بإنتاج قوة تفكيك تنتشر عبر كامل النسق»⁴. واذن، استراتيجية تفكيك كما سنرى لاحقاً.

إنها بمعنى آخر، ليس فقط استراتيجية فضاء مكتوب ينبغي أن نقرأه كما يقدم نفسه للقراءة، بل استراتيجية الإمساك بالمتوقع واللامتوقع في كتابة روائية ممتلئة - من حيث هي كتابة أدبية ومن حيث هي كذلك كتابة ذات خصوصيات أساسية - بالفضاء، بشعرية الفضاء، بسيمياء الفضاء، بإيدولوجيا الفضاء، بهندسة الفضاء، بميثولوجيا الفضاء.

لندقق أكثر في أدواتنا.

ما الذي نقصده بمفهوم الاستراتيجية ذاته؟

الاستراتيجية هي النقطة التي تجمع وتوحد كل العناصر والمكونات من أجل عملية شاملة. «إنها ليست فكراً ولا تأملاً مجرداً، لكنها عمل يضيؤه الفكر»⁵. إنها باختصار شديد هي السلوك والتنفيذ، بالوسائل الجيدة، لتصور معين. إنها أيضاً عقلنة للاختيارات، حساب وتقييم للوسائل. «ومن وجهة نظر فلسفية، فاللغز الذي ترفعه فكرة الاستراتيجية ذاتها هو السؤال التالي: أن نؤمن بفعالية فكر استراتيجي، هو أن نسلم بأن المجتمعات الإنسانية تستطيع، بمقاييس معين، أن تقود وتسيطر على تاريخها. أن نرتقي إلى الاستراتيجية هو أن نقوم بميثاق ثقة في عقلنة ومعقولة الفعل والتاريخ»⁶.

3 - جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1988، ص. 47.

4 - المصدر السابق، ص. 154.

5 - *Encyclopédia Universalis*, p. 408.

6 - لعله من الضروري أن نشير إلى أن مفهوم «الاستراتيجية» هو مفهوم عسكري في الأصل من حيث هو السياسة التي تحدد الأهداف وتعين الوسائل لتحقيق خطة معينة. ومن هنا نفهم التعريف الكلاسيكي (العسكري) لمفهوم الاستراتيجية المتداول منذ بازيل BAZIL وصولاً إلى ريمون آرون بأنها «فن استخدام القوات العسكرية للحصول على النتائج التي عينتها السياسة». وثمة من يقترح تعريفات أخرى، منها على سبيل المثال: فن العمل على تضافر القوة لتحقيق أهداف السياسة، فن جدلية الإرادات المستخدمة للقوة لحل مشاكلها، فن يترجم إلى أوامر تكون واضحة ومفصلة لكي يمكن تنظيم التاكتيك. وفي الواقع، على نحو ما يوضح «بوفر» BEAUFRE، فإن اختيار التاكتيكات هو الاستراتيجية».

وبهذا المعنى، فإن «كل استراتيجية للفضاء تستهدف عدة أهداف»⁷، كأن تكون منطقاً لبناء أنساق متخيل أدبي من خلال مراكمة لفضاءات متعددة، تكوينية أو موصوفة أو تكون تفكيكا لحمل عمليات وآليات هذا البناء وإعادة تركيبها وفق منطق القراءة النقدية الجمالية كما سنوضحها لاحقاً. ومن ثم، يمكن أن نعتبر أن الأهداف المحددة لاستراتيجية هذه الدراسة هي إيجاد أجوبة ممكنة لعدة أسئلة مركزية: ما هو الفضاء الأدبي؟ ما هو الفضاء الروائي الذي يهنا أساساً؟ ما هي قيمة ومكانة الفضاء في الكتابة الروائية؟ كيف ينبغي النظر إلى الفضاء الروائي، هنا والآن؟ كيف يكتب الأدب العربي الفضاء؟ كيف نقرأه؟ والنقد العربي، أين هو من إشكالية الوضع الاعتباري للفضاء الروائي؟ والرواية الفلسطينية بالذات، وسحر خليفة كفلسطينية وكامرأة ضمنها؟ ما طبيعة منظورها للفضاء؟... إلى آخر الأسئلة المقلقة.

ربما جاء هذا العمل النقدي ليتلمس الطريق نحو الإجابة. ربما سيتولى مهمة التوضيح، لكننا بالأساس نتطلع هنا إلى أن نجعل من الفضاء «حبة الكتابة» بالمعنى البارتي، أي أن نتيح لهذا المكون أفق التتويج في قراءة غير معزولة عن سياقات التاريخ والمجتمع والذات الكاتبة، وغير مستخفة بخصوصيات وبنيات الخطاب الروائي. تتويج يؤسسه تنوؤ قراءة.

II. استراتيجية الفضاء

يتعين أولاً أن أشير إلى أنني سأسعى، على نحو ما فعل باحث عميق، إلى أن

أما على مستوى الصراع الاجتماعي، فالاستراتيجية تعني «مواصلة السياسة بوسائل أخرى» (كلوزفيتز CLAUSEWITZ). لكنها بخلاف الاستراتيجية الكلاسيكية يكون فيها الرهان الرئيسي على الجماهير التي تتبادل هي نفسها الأدوار فتكون أداة وفاعلاً وضحية.

والآن، قد تطور مفهوم الحرب، وبالتالي ظهر أدب استراتيجي مختلف: مع الحرب النووية لم تعد مفاهيم الذكاء السياسي، الحساب الاستراتيجي والأمن التكتيكي تظهر إلا كقيم للاختصاصيين. بل للمسؤولين الذين يضعون قدر الإنسانية بين أيديهم، على نحو ما توضحه بكثير من التفصيل عدة موسوعات مختصة. لقد أصبح هذا المفهوم شائعاً في اختصاصات وحقول متعددة (اقتصادية، إيدولوجية، علمية، نقدية، إلخ...) وأصبح الفكر الاستراتيجي شمولياً. ومن ثم، يمكن القول بأننا نستعمل - هنا - هذا المفهوم بعد أن أصبح عاطلاً لا يشتغل في حقله الرئيسي.

(يمكن الرجوع أيضاً، في نفس المعنى، إلى قاموس: *Le Robert*, Paris, 1976, Tome 6,

(p. 363 - 364.

⁷ - La production de l'espace, *op. cit.*, p. 432.

«أموضع الفضاء المتخيل لنص ما داخل سياق إيديولوجي. وبدقة أكثر، فإن نيتي أن أقدم الفرضية التي يتشكل بمقتضاها الفضاء المتخيل لنص أدبي، المكان المفضل الذي تنكشف فيه إيديولوجيا معينة»⁸. على أن هذه الدراسة لن تشغل كثيرا بتحليل الفضاء الروائي في علاقته بباقي عناصر ومكونات الخطاب الروائي، وإن كانت تأخذ ذلك بعين الاعتبار، على الأقل كخلفية نظرية وكإضافة مداومة. لكنها تهتم أكثر بمعنى هذا الفضاء في مختلف مستوياته وتعبيراته.

وإذا كان يوري إيزنويغ قد درس الفضاء انطلاقا من فهمه له، وبشكل خاص، كـ «مربع فضائي» أو كـ «فضاء مرجعي» لنص لغوي⁹، مما استلزم ربطه بإطار دلالي (سيمائي) عام، ثقافي وحضاري من شأنه أن يثبّت الفضاء المتخيل - بما هو فضاء متمثّل - بعمق دلالي، فلنني إضافة إلى ذلك أود أن أقارب المستويات الجمالية لكتابة الفضاء ولقراءته، وأنفذ عبر ذلك كله، سيميائيا وإستيقيا، إلى طبيعة ونوعية الوعي بالفضاء كسؤال مركزي.

لقد شكل الفضاء على الدوام «معايشا للعالم»¹⁰ تنظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، معيارا لقياس الوعي والعلاق والتزاتيات الوجودية والاجتماعية والثقافية، ومن ثم تلك التقاطبات الفضائية التي انتهت إليها الدراسات الأنثروبولوجية في وعي وسلوك الأفراد والجماعات، والتي تنبه، - ضمن ما تنبه إليه - إلى نوع من اختراقات الفضاء لنا، لأجسادنا، لأفكارنا، لوجداننا ولعارفنا.

ومثلما يتفاعل مع الزمن¹¹، فإن المرء كذلك بقدر ما ينظم الفضاء ينظمه الفضاء. اختراق متبادل. تفاعل يدخله المرء عبر سيورة تجربته في الوجود وعبر اضطراد تشكّل تصوراتهِ وخبراته وتشبيد معرفته. ولذلك يمكن القول بأن تاريخ الإنسان هو تاريخ تفاعلاته مع الفضاء (مثلما مع الزمن). وبالتالي، فإن الفضاء يلعب دورا حيويا على مستوى الفهم

8 - Uri EISENZWEIG, «L'espace du texte et l'idéologie (propositions théoriques)», in *Sociocritique* (Claude Duchet et autres), Paris, Ed. Nathan, 1979, p. 183

9 - *Ibid.*, p. 183.

10 - J. ALEGRIA et autres, *L'espace et le temps aujourd'hui*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1983, p. 7.

11 - *Ibid.*, p. 8.

وال تفسير والقراءة النقدية. وهو لكي يلعب هذا الدور يأخذ وضعاً اعتبارياً نظرياً: فمن جهة، يتعين تكوينه وتحديده كمفهوم نقدي (سوسيولوجي، بنيوي، سيكلوجي، إدراكي...)، ثم توظيفه منهجياً وإجرائياً بعد ذلك¹².

وهكذا، تغدو استراتيجية الفضاء استراتيجية تأويلية في جوهرها، حتى وإن كتبت في الأصل وفي الأساس تكوينية وملتزمة ببناء النص. أقصد أنها بحث عن المعنى كما انكتب، وكما ينبغي أن يقرأ. إذ «مما لاشك فيه أن فكرة الاستراتيجية التأويلية توحد الكاتب والقارئ، وفعل القراءة وبنية النص ضمن إطار إدراكي واحد. ومع ذلك، فإن هذه الفكرة تنطوي على قوى موجهة تعمل ضد المعنى الموحد، فقد غدا النص غاية لاستجاباتنا بعد أن كان منطلقاً لها، ولكنه لا يزال مجالاً فارغاً، وميداناً مستقلاً، ينظر القصد الجماعي الذي يملؤه»¹³. كما تغدو أيضاً تتبعاً لمجاري الفضاء عبر «تلاقيات غير منتظرة»¹⁴ من جهة، وعبر منجزات الكتابة التي تصبح جزءاً من محددات القراءة ومنطلقاً لها.

وتأسيساً على هذا العمق التأويلي، يصبح الفضاء أداة قوية للمعرفة. خصوصاً وقد تلقت وقبلت الإستيمولوجيا وضعاً اعتبارياً للفضاء بوصفه «شيئاً ذهنياً» أو «مكاناً ذهنياً»¹⁵، أي بوصفه شكلاً قبلياً «ترسم فيه كل مسافة متخيلة، كما يذهب إلى ذلك جليبير ديران»¹⁶. وليس فقط أداة معرفة، بل ماذا تعني المعرفة ذاتها إن لم تكن أيضاً «الفضاء الذي تأخذ فيه الذات وضعاً لكي تتكلم عن الموضوعات التي لها غرض بها في خطابها»¹⁷.

إن هذا الارتقاء بمفهوم الفضاء إلى مستوى التجريد العقلي، إلى ما يجعل نسبة

12 - Voir, Jean REMY, «Espace et théorie sociologique», in *Recherches sociologiques*, Vol. VI, N° 3, Novembre 1975, p. 279.

13 - وليم راي، المعنى الأدبي، من الظاهرية إلى التفكيكية، مرجع مذکور، ص. 182.

14 - انظر تقديم كاظم جهاد ل ترجمته لكتاب ديريدا الكتابة والاختلاف، مرجع مذکور، ص. 44.

15 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, *op. cit.*, p. 9.

16 - Voir: Alain CRESCIVICCI, *Les territoires Céliniens*, Paris, Ed. Klincksieck, 1990, p. 10.

17 - Michel FAUCOULT, cité par Henri LEFEBVRE, in La production de l'espace, *op. cit.*, p. 10.

الفضاء «إلى العقل كنسبة العقل إلى الحس»¹⁸، هو ما قد يجعل القول مشيراً للاستغراب كأن نقول بأن الفضاء ليس سوى إطار روحي تتشكل فيه الظواهر الاستعارية التي تتوزعها الأسماء والصفات. هل لذلك كان جورج بريك يقول بأن «الفضاء شك»¹⁹؟

يدخل الفضاء الأدبي على الدوام في دائرة المنطق الديكارتي، إذا صح التعبير، حيث يغدو بعضاً من المطلق الذي أعادت النظر في مقولته فلسفة ما بعد ديكارت، مع بعض التحويلات، وخاصة مع سبينوزا، لاينتز ونيوتن²⁰. ومن ثم، إذا لم يكن يعني الفضاء على امتداد تاريخ طويل إلا تصوراً هندسياً، تصور وسط فارغ يملؤه المرء بمعان عالمة، فإن السؤال يطرح نفسه هنا بإلحاح: ما الذي يتبقى أوقليديا في هذا الفضاء - الشك، في هذا الفضاء - المطلق، حيث يشبه الحديث عنه حديثاً عن لحظة انعطاف شعري لجسد تحترقه الروائح والأصوات والأشكال والألوان والأشياء والأمكنة والصور والأحلام والحالات النفسية والذهنية المختلفة؟

إن الاستعارة الفضائية تبدو أساسية في هذا السياق للإدراك، للمعرفة، للكتابة والقراءة. ولذلك، ربما، يرى الباحث المغربي عبد الله المدغري العلوي مسترشداً بكتاب استعارات الحياة اليومية بأنه «إذا كان مفهوم الفضاء من أقدم مفاهيم نسق تمثلنا المعرفي، فإنما لأن سلوكنا في مفهمة الأفعال المادية والثقافية يتأسس على مبدأ رئيسي: فنحن في إدراكنا للأفعال ننطلق من التجارب الأكثر حسية لإضاءة الظواهر الأقل حسية (...)». وهو نفس المبدأ في مفهمة أفعال المحكي: إذ نستعمل الاستعارة الفضائية لكي ننضج التمثلات، المواقف الملفوظة (الذاتية إذن) حول الخطاب، تلتقي والتقاط الفضاء - الزمن»²¹.

ترى هل مخافة هذه التداخلات بين الأبعاد الثقافية والاجتماعية لمفهوم الفضاء

18 - انظر محمد علال سينا، تقديم كتاب ديريدا، الكتابة والاختلاف، مرجع سابق، ص.

15.

19 - Georges PEREC, *Espèces d'espaces*, Paris, Ed. Gallilé, 1974, 122.

20 - H. LEFEBVRE, *La production de l'espace*, op. cit., p. 7. Voir aussi, Paul LEVERT, ««Ici» et «Ailleurs», Quelques questions à propos de l'espace sensible», in *Archives de philosophie*, N° 45, 1982, pp. 109 - 131.

21 - Abdallah MDARHRI - ALLAOUI, «Le concept d'espace dans les théories du récit», in *Imaginaire de l'espace. Espaces imaginaires*, Casablanca, EPRI, 1988, p. 65.

وأبعاده الإبداعية والجمالية، أبدى السيميائيون حذرا واضحا من الفضاء، مفهوم ومصطلحا؟²²

ربما؛ وربما أيضا لأن الفضاء بكل شساعته الدلالية والرمزية والاستعارية والجمالية يضع أمام خطي الباحث المحتل بقصديته وبوضوح غاياته (!) قدرا من الألم لا بد وأن يرهق المسارات المظلمة. أقصد أن مفهوما له كل هذا الثراء والتشعب لا بد أن تتوفر لتشغيله طاقة خصبة من التعدد المعرفي بدءا بالتاريخ وصولا إلى المعرفة التشكيلية التي يلح عليها د. محمد مفتاح باستمرار²³. وغياب مثل هذا التعدد هو الذي جعل الدراسات النظرية والنقدية المهمة بالحلل الأدبي المعاصر، وخاصة في الساحة الغربية، تتعثر وتتخلف كثيرا عما أنجزته الدراسات المختصة في حقل الفنون التشكيلية (تصوير، معمار، نحت، حفر، إلخ...). لذلك طبعا أسبابه التاريخية والثقافية والمعرفية التي لم ينتبه إليها جورج ماتوري وهو يسجل ملاحظة في نفس المنحى²⁴.

III. هل للفضاء تاريخ؟

وإذا كان من المفيد في هذا الإطار التساؤل حول أصول مفهوم الفضاء والسعي به

22 - بهذا الصدد يقول غريغاس وكورتيس:

«إن مصطلح الفضاء مستعمل في الدلالية بمفاهيم متباينة قاسمها المشترك هو اعتباره كموضوع مبني (يتضمن عناصر متقطعة) انطلاقا من الامتداد، المعبر كاتساع مملوء، ممتلئ، دون حل للاسترسال. إن بناء الموضوع - الفضاء يمكن فحصه من وجهة هندسية (بإخلاء أي ملكية أخرى)، ومن وجهة نظر نفسية فيزيولوجية (كظهور متصاعد لخصائص مكانية انطلاقا من الخلط الأولي) أو من وجهة نظر اجتماعية ثقافية (كتنظيم ثقافي للطبيعة مثل الفضاء المعمر). وإذا أضفنا جميع الاستعمالات الاستعارية لهذه الكلمة أن استعمال مصطلح الفضاء يتطلب حذرا شديدا من طرف الدلالين». عن محمد بنيس، *الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها*، الجزء 3، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1990، ص. 112 - 113.

23 - من ذلك مثلا قوله: «لناخذ مسألة الفضاء - أيضا - بالنسبة للأديب المحض. قد يفلح بناء على نظريات معينة في كشف بنية النص، لكنه لا يتأتى له الإحادة إلا إذا كان ملما بالفنون التشكيلية» من حوار أجرته معه مجلة *آفاق* (الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب)، العدد 1، 1990، ص. 164.

24 - Georges MATORE, *L'espace humain*, Paris, Ed. La colombe, 1962, p. 205.

إلى الانتظام في التاريخ، خاصة وأنا بصدد بحث في مكون واحد من مكونات الخطاب الروائي، فإنه يتعين الوعي بأن هذا المفهوم ليس في الحقيقة إلا حصيلة تطور تاريخي. ذلك أن ما كان يفهمه قدماء اليونان أو قدماء العرب المسلمين من مفهوم الفضاء ليس هو ما فهمته أوروبا النهضة أو أوروبا القرن التاسع عشر، وليس هو ما نفهمه اليوم من هذا المفهوم في مجموع استعمالاته وتوظيفاته الإستراتيجية والأدبية والفلسفية...

لقد تعلمنا أن الاعتماد على التاريخ معناه أن هذا الحقل يمكنه أن يوفر لنا ما قد لا يوفره لنا الحاضر²⁵، لكنه بخصوص هذا المفهوم لن يقول لنا عنه انتظامه في التاريخ أكثر من أنه ناتج عن تطور. أما ما يتبقى فقد أسسه الحاضر وعمقه، وبالذات بالنسبة لمن يتحدث عن هذا الموضوع من داخل ثقافة لها تاريخ كتابي الثقافة العربية.

وإذا كان الأدب يعمل في تاريخ الفضاء²⁶، تاريخ مشكل أبدي تعذر حله على الدوام كما يقول الشاعر ميلوش: «تحت آلاف أفنعة الحب، الخوف، الفطرس، التقزز، يكمن المشكل الأبدي، المتعذر حله، مشكل الفضاء»²⁷. فلربما كان الوضع أدهى بالنسبة إلينا - نحن العرب - إذ من الواضح أن الفضاء ليس من المعطيات الأولية الراسخة في ثقافتنا العربية، بل كانت ولا تزال للزمن مكانة الصدارة في الوعي العربي. كما هو واضح كذلك عدم إدراك مستويات التبادل الوظيفي بين الفضاء والزمن لدى الإنسان العربي، إذ يمكن القول بأن تشغيل الوحدة الفضائية - الزمنية لأينشتاين في تجربتنا اليومية العادية يظل صعبا جدا، بل ولعله ليس بالسهولة المتوقعة في تجربة الفكر والإبداع عندنا.

ومع أن مفهوم الفضاء هذا لم يتبلور في التراث العربي الإسلامي كما هو متبلور اليوم أو على الأقل كما كان متبلورا في حضارات قديمة، فإن عدة اجتهادات كانت ظهرت - أساسا في الفلسفة والتصوف الإسلاميين - لكنها استندت جوهريا - وأتحدث عن الفلسفة هنا - إلى التراث الفلسفي اليوناني في مسار التحديات المختلفة التي كانت تتراوح بين الائتلاف والاختلاف مع النصوص والاجتهادات السابقة. غير أن هذا المفهوم (الفضاء، ويسميه الفلاسفة العرب: المكان، الخلاء، الملاء، الأين) في بعده الميثولوجي

25 - Jean Yves TADIE, *La critique littéraire au XXème siècle*, Paris, Ed., Belfond, 1987, p. 20.

26 - Voir *Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures française et étrangères*, Paris, Ed., Larousse, 1985, p. 524.

27 - Milosz, cité par Georges MATORE, *L'espace humain, op. cit.*, p. 207.

والفلسفي ظل يتطور تاريخياً، إلا أنه لم يلتحق بمحفل النقد العربي القديم إلا في بعده النحوي كظرف (ظرف مكان)، ونحن نعلم مستوى تبخيس ظرف المكان مقارنة مع ظرف الزمان²⁸ أو في بعده البلاغي البسيط كما ظهر في إنتاج القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني²⁹. لكن تتعين الإشارة إلى الأهمية النظرية التي منحها ابن سينا لإشكالية الفضاء بمختلف أبعادها ومستوياتها، وما بذله من جهد في إثبات هذا المفهوم ودحض الطروحات المعتقدة بعدم وجوده³⁰. أما المدينة الفاضلة للفارابي، فقد كانت شكلاً متقدماً لإدراك ومساءلة الفضاء في علاقته المثيرة بالمتخيل وبالمعرفة. ذلك أن فهمنا للعالم يصبح منتظماً بحسب فهمنا للفضاء، عبر تشغيل مفهوم إجرائي للتناسب يمكن من تخيل الأشياء وتأويلها، أو عبر آلية اختزال العالم في بنية المدينة، بنية الفضاء. هذه البنية التي تؤسس آلية التخيل بما تمنحه لها من إحداثيات يمكن - بالرجوع إليها - إعادة بناء العالم³¹. ولا أعرف، إلى جانب ابن سينا والفارابي وبعض المتصوفة (أفكر في ابن عربي مثلاً، دون أن أنسى طبعاً جلال الدين الرومي في قصيدته العظيمة «مثنوي»...) من عمق صلاته المعرفية بسؤال الفضاء في ركائز تراثنا النقدي والفكري، على الأقل في حدود علمي. غير أن متحفنا التراثي الأدبي حفل منه الشعر الجاهلي بالخصوص بانفتاح كبير وعميق وواع على أهمية الفضاء في صياغة الوجود المادي والإبداعي. الوعي بالفضاء كمكان أولاً، ثم كعلائق وكذاكرة وكحنين كما يحلل ذلك أدونيس في مقدمته لديوان الشعر العربي مؤكداً على الطابع الفاجع للفضاء عند الجاهلي³².

28 - انظر أبو حيان التوحيدي، *المقاييسات*، تنسيق وتعليق وشرح وفهرسة د. علي شلق، بيروت، دار المدى، الطبعة الأولى، 1986، المقايسة الثالثة والعشرون، ص. 94.

29 - انظر: د. محمد العمري، *تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر (الكثافة. الفضاء. التفاعل)*، الدار البيضاء، الدار العالمية للكتاب، الطبعة الأولى، 1990، صص. 141 - 224.

30 - لمزيد من الاطلاع، انظر: حسن مجيد العبيدي، *نظرية المكان في فلسفة ابن سينا*، مراجعة وتقديم: د. عبد الأمير الأعسم، بغداد، دار الشؤون العامة، الطبعة الأولى، 1987.

31 - انظر: د. محمد محبوب، *المدينة والخيال (دراسات فإرايية)*، تونس، منشورات دار أميمة - دار العهد الجديد، الطبعة الأولى، 1989، صص. 30 - 71.

32 - أدونيس، *ديوان الشعر العربي (الكتاب الأول)*، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، 1986. ص. 16 - 17.

إن الفضاء بما هو صحراء، في الوجود وفي التخيل على السواء، يجسد هذا الذي يسميه أدونيس «جدلاً فاجعاً» بين الفضاء والزمن. كل شيء فيه «ملك الإنسان وهو لا يملك أي شيء (...) إمكان خالص، لحظة هي استحالة خالصة»³³. ومن ثم، يبدو سهلاً الآن الانتقال إلى فضاء آخر بما هو «صحراء مجازية ولو أنها مؤثرة بما فيه الكفاية»³⁴. أقصد الفضاء الأدبي، السردى منه بالخصوص، في حقل الدراسات الغربية الراهنة. هناك حيث يخرق الجسد (رعويًا كان أم متشذراً باللغة والصورة وإرغام النسقية)، هذا الجدل الفاجع بين حس الفضاء والوعي به وبين الفضاء ذاته كتعقيد آخر ينشك في سؤال التاريخ، سؤال الجغرافيا، سؤال الفكر وسؤال الواقع المعيش.

وسنرى، فيما بعد، كيف أن بعض مُنظري ونقاد الأدب الأوروبيين سيخطئون القراءة وهم يتعاملون مع سؤال الفضاء الروائي كما لو كان نابعا من ضرورة غير ضرورة التاريخ والضرورة الجغرافية ذاتها التي عاشتها الخريطة الأوروبية. «إنها ليست صدفة كون الروايات الفرنسية (والأجنبية) الأكثر أصالة ستأسس بدورها على رفض للتاريخ، للترابط المنطقي ولليقين. رفض ينضاف إليه (بما ينسخ روب غريي بروسست كما نسخ بروسست بلزاك، ولكن بدون أن يعني النسخ عدم التقدير) رفض الديمومة والعمق»³⁵. ومن ثم، ستتجه الكتابة الروائية هناك نحو مجرى الوعي التاريخي وبموازاة مع «ما سماه جورج ماثوري بالفضاء الإنساني، السلب الضمني لـ «كابوس التاريخ» الذي اشتكى منه جويس»³⁶. كابوس الزمن الذي أيقظ في النفس وفي الوعي القيمة الوجودية والجمالية للفضاء.

لذلك، إذا كان قد وقع الاهتمام مجدداً على مفهوم الفضاء، وتم إبرازه وتشغيله فيما يشبه انبعاثاً، فإنما لأننا ربما، على نحو ما يوضح باحث مغربي، «سنشهد إشباعاً في مفاهيم

33 - المصدر السابق، ص. 26.

34 - انظر بنعيسى بوحالة، «سيميائية الأثني المستعادة»، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 218، 20 مارس 1988.

35 - Michel ZERFAFA, «Après le roman, le romanesque», in *Positions et Oppositions sur le roman contemporain. Actes du colloque de Strasbourg (Avril 1970)*, Paris, Ed. Klincksieck, 1971, p. 200.

36 - *Ibid.*, p. 201.

التقدم (معنى السيرة التاريخية) والعقل»³⁷.

IV. الفضاء المعيش

لقد كان ينبغي الانتباه إلى تلك «المصادفة» التي كررت نفسها مرتين على الأقل في تاريخ الرواية الغربية، ونعني توجه هذه الرواية مباشرة بعد انطلاق الحرب العالمية الأولى إلى الانشغال بمسألة الفضاء (بروست، جويس...) وتكرار التوجه ذاته عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، وخاصة ما أنجزته تجربة الرواية الجديدة في فرنسا (ميشيل بوتور، آلان روب غربي، كلود أولي، جان ريكاردو، ناتالي ساروت، كلود سيمون...) هي ليست مصادفة تماما. إنها رد فعل أيضا على ما يخضع له الفضاء الحسي من تحولات معينة تجربها مقتضيات الجغرافيا (حيث الجغرافيا لا تصلح إلا لفعل الحرب، بتعبير لايف لاکوست)³⁸.

ولذلك، يتعين ألا تشغلنا قيمة التخييل في الفضاء الأدبي عن قيمه المرجعية وعن تخومه مع مستويات معينة للمعيش بما هو فضائي في عمقه وجوهره. طبعاً، لا يتعلق الأمر بأية حالة إدماج للمرجع في العلامات الفضائية للنص الأدبي³⁹، وإنما يتعلق أساساً بحالة جغرافية تستحق تأملاً عميقاً، خاصة في وضع حضاري ثقافي وتاريخي كالوضع العربي. ومن ثم، فإن الفضاء الأدبي، وهو يتميز عما ليس فضاء أدبياً، يتقاطع - على نحو ما يوضح ذلك يوري إيزنفايغ - كلياً مع فضاء العالم الخارجي، مع الكون المعيش، من حيث قد لا نستطيع أن نتلقى فضاء أدبياً لا يحدده هذا التقاطع بالذات:

«هكذا، يسمح التحفيز [تحفيز العلامة اللغوية] الأقصى المتحكم في الكلية المستقلة للنص الأدبي بكشف الخطاب الإيديولوجي الذي يشيد تمثله للفضاء. وأدبية القرنين 19 و20 تقول لنا إن الفضاء المتمثل، بعيداً عن أن يكون «طبيعياً»، لا معنى له إلا في علاقته برغبة الذات، بالغيرة، بالزمنية (زمنية الدال في الشعر، الزمنية الحداثيّة الحكائيّة في نص نثري)... الخ.

37 - Voir Kacem BASFAO, «Introduction générale», in *Imaginaire de l'espace. Espaces imaginaires*, op. cit., p. 10.

38 - Voir Yves LACOSTE, «La géographie, ça sert, d'abord, à faire la guerre», in Uri EISENZWEIG, op. cit., p. 186.

39 - *Ibid.*, p. 185 - 186.

إن هذه العلاقة، وليس التمثل الفضائي الممكن، أو الوظيفي، هي ما يشكل نقطة تقاطع الفضاء الثقافي «الواقعي» (الإدراكي، الجغرافي أو غيره). ويكشف الفضاء التمثل في نص أدبي ما عن إيديولوجيا معينة: ليس لأنه يتطابق، يتناقض، أو يختلف بكل بساطة، عن الفضاء المرئي، ولكن نظرا لمنطق انخراطه في الخطاب الشامل الذي يمنحه معناه. إنه المنطق، أو بتعبير آخر: الشكل. إنه فقط بطابعه الشكلي لانخراط الفضاء في مجموع النص، يتم تبيان مضمّر الإيديولوجيا السائدة التي تفرض رؤية معينة للمشاهد (الطبيعي)، للمدينة، للمسافات»⁴⁰.

إننا هنا بصدد الحديث عن نوع من «البلاغة الاجتماعية للفضاء»، التي سبق لجورج ماتوري أن اقترحها علينا من خلال دراسته «للفضاء الإنساني»، عبر مستنسخات صحفية، فلسفية وثقافية أكثر منها رموزا ونماذج أدبية كبرى، على نحو ما لاحظته جيرار جنيت⁴¹. وأتصور أن العودة إلى «خانة» جورج ماتوري التي «تفحصها» في مستوياتها الاجتماعية تجعل من فهمنا للفضاء الأدبي فهما عقلانيا وممكنا. لقد علمنا نيوتن Newton بأن الفضاء المطلق، بدون صلات مع الأشياء الخارجية يبقى دائما متشابها وثابتا»⁴²، وبالتالي «فضاء فارغا»⁴³. فالفضاء بهذا المعنى له قوة اختراق حياتنا كلها، معيشا وكتابة، كما يخترقها الزمن تماما، بنفس القوة وبنفس الجوهرانية. حتى حين نكون حيث لا نتصور وجودا للفضاء، نجد له ظلالا أو علامات أو رمزية معينة. وقد نتحدث عن شيء آخر لا نحسب أن له صلة بالفضاء، فنكتشف أننا إنما كنا نتحدث عن شيء آخر بصور واستعارات وألفاظ الفضاء، حسب تأكيدات ماتوري، لسبب بسيط وهو كون هذه الأدوات الفضائية مفتوحة وطبعة وقابلة للعمل⁴⁴. وإذا كان علينا أن نستعير تعبيرا لغابرييل مارسيل، سنقول بأن الإنسان غير منفصل عن فضائه، بل إنه هذا الفضاء ذاته⁴⁵. إن قراءة الفضاء الأدبي لا تنفصل مطلقا عن صلاتها بالفضاء العام، حسيا كان أم

40 - *Ibid.*, p. 186 - 187.

41 - Gérard GENETTE, *Figures I*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1966, p. 104.

42 - *L'espace et le temps*, *op. cit.*, p. 137.

43 - *Ibid.*, p. 39.

44 - George MATORE, *L'espace humain*, *op. cit.*, p. 37.

45 - *Ibid.*, p. 16.

بمجردا، وبالتالي فإن «تلقى الفضاء مركزي في تلقى رمزية اجتماعية»⁴⁶ معينة، في سياق اجتماعي ثقافي وتاريخي معين، بل إن هذه الرمزية الاجتماعية لا تظل بمنأى عن الحس والتعبير ذاتهما⁴⁷، بتعبير كاسيرر E. Cassirer، سواء فيما يتعلق بالكتابة أو بالقرينة. ولعل من الطبيعي جدا أن نلمس حرصا لدى عدد كبير من قراء ودارسي الفضاء الأدبي على مركزة قراءة الفضاء على المكان وحده أو قراءة الفضاء على المكان وحده أو قراءة هذا الفضاء لا تأسيسا على ما تبتكره له الكتابة ذاتها، بأدواتها الخصوصية، من وظائف وأدوار، وإنما بالرجوع في الغالب إلى ما تحدده الرمزية الاجتماعية والثقافية والسياسية هذا الفضاء من معنى ومن وظيفة. ومن ثم، يتعين أخذ هذا «الإرث» من القراءات بعين الاعتبار عند تأسيس كل قراءة جديدة للفضاء الأدبي. سواء في اتجاه خلخلته حسب مقتضيات المنهج ومصالح القارئ. وذلك بالطبع دون استهانة - حتى ولو كانت أدبية أو جمالية - بكون معرفتنا بالفضاء، وأية معرفة كانت، لا يمكنها أن تتشكل إلا بناء على تجربتنا في الفضاء المعيش. بل إن الفضاء ذاته، وقبل أن يشتغل عليه التخييل الأدبي، يشتغل هو، قبلنا، على التخييل.

من هنا أهمية أن نقرأ الفضاء، بما هو وجود وذاكرة وعلائق وأمكنة...، ونحن مسلحون بحس ظاهراتي، بالانتباه الضروري، ولكن أيضا بدهشة الاكتشاف، بالحس الكامن في أعماق النفس، وبالملاحظة المتجهة إلى حركة الأشياء والعلائق والأفعال والأصوات والروائح والوجوه والألوان. هكذا يمكننا أن ننقذ القراءة من ثقل المعيش. هكذا تتشكل إرادة التقاط معنى العالم أو معنى التاريخ»⁴⁸.

V. الفضاء والمكان

وإذا كان الانشغال المركزي لدراستنا هذه هو، في الحقيقة، البحث في مستوى ونوع إعادة تشكيل الفضاء المرجعي، دلاليا وسرديا، من خلال الفضاء النصي، فإن ثمة

⁴⁶ - Jean REMY, «Espace et théorie sociologique», in *Recherches sociologiques*, op. cit., p. 283.

⁴⁷ - Ernest CASSIRER, *Philosophie des formes symboliques*. Voir *Recherches sociologiques*, op. cit., p. 321.

⁴⁸ - M. MERLEAU - PONTY, *Phénoménologie de la perception*, op. cit., p. ٣٢٤.

«مطلب إستيمولوجي» تتعين الاستجابة له، ذلك أن «أسبق الأولويات هو تمييز الحدود بين مصطلحين متداولين، بتسامح عفوي، هما «الفضاء» و«المكان»، لاعتقادنا أن ضبط الحدود بين هذين المصطلحين سيسمح باستثمار طبقات أرضية ما تزال معتمدة في القراءة النصية»⁴⁹. واستنادا إلى منظور هيدغر لهذه المسألة، يستخلص محمد بنيس «أن المكان منفصل عن الفضاء، وأنه سبب في وضع الفضاء، أي أن الفضاء بحاجة على الدوام للمكان»⁵⁰. وستصل في الفصل القادم إلى بعض أسباب هذا الخلط السائد بخصوص الحدود القائمة بين الفضاء والمكان. لكننا إلى جانب ذلك هيأنا هذه الدراسة لتجسد هذه الحدود وتثري عناصر فهمها، خاصة حينما سنتيح لتعبيرات الفضاء أن تتمايز عن مظهرات الأمكنة كمساحات ومسافات تبوئها الأحداث والأفعال الروائية. هذا فضلا عما يسمح به هدف الدراسة من هوامش لالتقاط تجليات الفضاء من حيث علاقتها بالاقتصاد الروائي، أي بباقي المكونات البنوية للنص الروائي والإمساك بالمكان في الرواية في علائقه بالمرجعية وبالتخييل. بمعنى آخر، إذا كان الفصل بين الفضاء والمكان ضروريا ويستلزم كل قراءة نقدية جدية القيام به، فإنه ينبغي بالمثل ألا نلج عليه كثيرا، بل الأفضل أن نكتفي بتشغيل الفضاء على امتداد الدراسة ولا نذكر المكان إلا حيث ينبغي أن يذكر. المكان الذي شوهت ترجمات عربية عدة خصوصياته ومميزاته عن الفضاء، وهو ما يجعل دراستنا تبذل جهدا لتصحيحه وتدقيقه وتحارزه. ورحم الله الروائي العربي الكبير غالب هلسا؛ لقد ارتكب جنائية من ذلك النوع الذي يمكن أن نسميه بالجريمة الرفيعة في حق الحقل النقدي والأدبي العربي. ومات ولا تزال ذبول الجنائية حية متواصلة. ذلك أن الرجل اندفع، تحت ضغط شغف غامض بأهمية المكان في الكتابة، إلى ترجمة كتاب غاستون باشلار «شعرية الفضاء»⁵¹ (المكتوب باللغة الفرنسية) عن اللغة الإنجليزية بعنوان «جماليات المكان»⁵².

49 - محمد بنيس، الشعر العربي الحديث، بنياته وإبدالاتها، مرجع مذكور، الجزء الثالث، ص.

112.

50 - نفسه، ص. 113.

51 - Gaston BACHELARD, *La poétique de l'espace*, Paris, Ed. PUF (Quadrige), 12ème ed., 1984.

52 - غاستون باشلار، *جماليات المكان*، ترجمة غالب هلسا، بيروت، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، 1984.

وتميزت هذه الترجمة بضعف ملحوظ، ضعف كارثي في كثير من الجوانب، حيث هشاشة الإمساك بالمفاهيم والمصطلحات، مخاطر السقوط التي تستلزمها عادة كل ترجمة، ذهاب مع عكس المقصود تماماً وقفز على عبارات وجمل وكلمات ليس بالإمكان تجاوزها دون ارتكاب جنایات قصوى إلى درجة أن المتتبع يستغرب كل سوء الفهم الذي جعل كاتباً عربياً «طليعياً» على هذه الدرجة من الضحالة، بل وجعل الناقد العربي عموماً حبيس هذا الضعف وهذا المنجز الرديء.

وإلى جانب سبب بهذا الثقل، يبدو لنا أن الناقد العربي في عدد من الكتابات النقدية السائدة لم يهتم بـ «فرق الهواء» القائم بين الفضاء والمكان، بل ولم يهتم عموماً بسؤال لأنه ناقد مستعجل، يكتب للصحف والمؤتمرات وللإستهلاك العابر. لا ينتبه لأسئلة الوجود العربي ولإشكالاته الفضائية، وقد يخطئ فيعتبرها مجرد تفاصيل. لا يعمق القراءة ولا يفكر. إنه يكره التفكير العميق والاشتغال على المشاريع الفكرية. لا يتعب في بناء فكرة. جاهر بجمع المعلومات والمسموعات. يوزع الألقاب والنعوت والصفات وتتجاوزها الأفكار والتجارب والمعارف والخبرات. يتجاوز الوقت. من ثم ربما كان من الواجب إعادة تعريب كتاب غاستون باشلار «شعرية الفضاء» قصد تصحيح وتجاوز الجناية الرفيعة للمرحوم غالب هلسا، لكن يبدو - قبل ذلك - أن من الأهمية نهوض الفكر العربي، وليس النقد الأدبي وحده، بمهام بلورة وإثراء معرفة خاصة بالفضاء. والحال أننا لم نتج حتى الآن

وتجدر الإشارة إلى أن المرحوم هلسا كان قد نشر فصول هذا الكتاب مسلسلة في مجلة «الأقلام» العراقية، ونشرها في طبعة أولى ببغداد.

وفي نفس السياق يقول الأستاذ محمد برادة: «قد يكون من بين أسباب استمرار استعمال المكان بدلاً من الفضاء في الخطاب النقدي العربي هو الالتباس الذي اقترن بترجمة كتاب غاستون باشلار إلى العربية «La poétique de l'espace» تحت عنوان محرف هو «جماليات المكان» - غالب هلسا.

إن مترجم الكتاب لم يفهم في نظرنا المحتوى الأساسي لكتاب باشلار، فانعكس ذلك على ترجمة المصطلحات الأساسية وعلى فهمه للأطروحة الباشلارية حيث احتزلها إلى أن «المكان هو المكان الأليف» و«المكانية في الأدب هي الصورة الفنية التي تذكرنا أو تبعث فينا ذكريات بيت الطفولة»!!.

انظر: مداخلة محمد برادة في ملتقى جمعية الإمام الأصيلي بمدينة أصيلة المغربية حول «المكان والإبداع»، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 244، الأحد 18 شتنبر 1988، ص. 5.

خطابا عربيا حول الفضاء. نعم، يمكن للخطاب أن يكون نتاج معرفة، ولكنه قد يكون أيضا مقدمة لولادة هذه المعرفة المرتقبة. أقصد أنه يمكن لخطاب نقدي (أدبي) أن يكون مدخلا نحو صياغة نظرية متكاملة حول سؤال الفضاء.

ولعل مثل هذه المعرفة سيتيح لنا أن نجد إجابات ممكنة على أسئلة مستعجلة: الأسئلة التي يطرحها علينا «ما يحيط بنا وما يحددنا»، الأسئلة التي تجابهنا ونحن «نفكر في تمثيلات الفضاء، ولكن أيضا في فضاء التمثل قصد تحريك الفعل»⁵³.

إن هذا الفضاء، من وجهة نظر فلسفية، سابق للأمكنة. إن له أسبقية تجعله موجودا من قبل هناك حيث ينبغي أن يستقبلها. هناك الفضاء إذن، وبعد ذلك تأتي الأمكنة لتحدد لها حيزا في هذا الفضاء. «الأمكنة جزر في الفضاء، جواهر [أفراد]، أكوان صغرى منفصلة»⁵⁴، داخل الفضاء. لكن ألا ينبغي أن نتصور في أية لحظة أن الافتتان بهذه الأمكنة - الأكوان أو وصفها أو رصد مختلف علائق وأفعال الشخصيات فيها وبها، ليس من جوهر الفضاء الأدبي كما سنوضح ذلك فيما بعد. إن ذلك جزء من جوهرية النص الأدبي. أساس من أسس إنضاج «الحالة الشعرية»⁵⁵ التي تعبر عن ملامح لفضائية (Spatialité) أدبية معينة.

وعلى كل حال، إذا كان المكان أساسا للفضاء الروائي أو كان «كل مكان هو مصدر أفق لأمكنة أخرى، نقطة التبع لسلسلة من المجاري الممكنة مرورا بمناطق أكثر أو أقل تحديدا»⁵⁶ في النص الروائي، فإننا لا نتفق كثيرا مع صاحب «الفضاء الروائي» من أن «الفضاء الروائي ليس في العمق إلا مجموعة من العلائق القائمة بين الأمكنة، الوسط، ديكور الفعل والشخصيات...»⁵⁷. ذلك لأن مفهوم الفضاء أكثر انفتاحا وشساعة من مثل هذه التحديدات الضيقة، وإلا ماذا نقول بالنسبة لفضاء الحلم، الموت، الذاكرة، الهوية، إلخ...؟

53 - Kacem BASFAO, *op. cit.*, p. 8.

54 - Georges POULET, *L'espace proustien*, Paris, Ed. Gallimard (Tel), 1963, p. 51.

55 - Paul VALERY, in Gérard GENETTE, *Figures II*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1969, p. 44.

56 - Michel BUTOR, *Répertoire II*, Paris, Ed. MINUIT, 1964, p. 49.

57 - Jean WEISGERBER, *L'espace romanesque*, Lausanne, Ed. L'age d'Homme, 1978, p. 14.

ربما كان المكان أو العلائق بين أمكنة معينة أحد أسس هذه الفضائية التجريدية، لكنها ليست هي كل شيء عند تحديد الفضاء كما ينبغي له. في مثل تحديد كهذا يتقصد التدقيق، لا ينبغي بالفعل للتفاصيل الطوبوغرافية، لأسماء وعلائق الأمكنة، للمشاهد الجغرافية، الحضارية والطبيعية، للتأنيث والديكور... سوى إمكانية لعب أدوار ثانوية ضمن بنية الفضاء الأدبي.

وإذن، «لنقل إن الفضاء هو نوع من الوسط غير المحدد، حيث تتسكع الأمكنة، بنفس الطريقة المحسوبة. لكن كيف تحسب حركة أمكنة متسكعة؟ إن الفضاء لا يوطرها؛ لا يختصص لها وضعاً غير قابل للتغير»⁵⁸.

واضح إذن أن الفضاء بالنسبة للأمكنة، ولتستعد هنا تعبيراً للفيلسوف الفرنسي ميرلوبونتي⁵⁹، هو نوعاً ما شبيه بالبقع اللونية لبول كلي Paul Klee تلك التي تبدى على أنها الأقدم في فضاء اللوحة، كما تبدى في نفس الآن كما لو أنها ولدت لحظتها، في مطلع نهارها الأول.

VI. الفضاء الروائي

مر معنا أن استراتيجية الفضاء هي استراتيجية كتابة واستراتيجية قراءة، بمعنى استراتيجية خطاب أدبي. خطاب مشفوع بكل حمولة وطاقة وامتلأ الكتابة، جمالها ولسانها وثقافيا ومعرفيا واجتماعيا. لكنه خطاب يمنح نفسه للآخر بصريا وروحيا: بدءاً من السواد على البياض في انتظام الصفحات داخل الكتاب وصولاً إلى أبعد مستويات التخيل والتجريد.

حين تسأل جان إيف تاديي⁶⁰: ما معنى الفضاء الأدبي؟ رأى - مسترشداً بكل من كاسيرر وجلبير ديران G. Durand - أنه بالمعنى الملموس «غالباً ما يكون، على الصفحة، تنظيماً للبياض والسواد. أما بالمعنى الأكثر تجريداً، فإنه يعني المكان الذي تتوزع فيه العلامات في آن واحد، وتتم العلائق العابرة. هناك حيث يكون «الفكر بحاجة إلى استعارات فضائية» (كاسيرر).

ثمّة مفهوم ثالث، يضيف تاديي، يجعل من الفضاء مكان الصور، الإدراكي ثم

58 - Georges POULET, *L'espace proustien*, op. cit., p. 19.

59 - M. MERLEAU - PONTY, *Le visible et l'invisible*, op. cit., p. 264.

60 - Jean-Yves TADIE, *Le récit poétique*, Paris, Ed. PUF, 1978, p. 47.

التمثيلي. فإذا كان التصوير (La peinture) هو «أثر الفضاء التمثيلي، فإن الأدب يدخل مسافة إضافية، نظرا لأن علامات اللغة تمثل التمثل». ومن ثم، يجعل هذا الباحث من «كل نص فضاء». وبهذا المعنى، فإننا حينما نبحث عن تحليلات الفضاء في النصوص الأدبية، روائية كانت أو غيرها، نعر عليها حاضرة بشكل من الأشكال، إما مضمنة، أو موصوفة، أو معروضة، أو معلوما بها، أو متأملا فيها كما يقول بذلك هنري لوفيفر⁶¹. بل إنها تبدو أحيانا كما لو كانت مولدا للكتابة ذاتها. كما لو أنها عنصر البنية الأساس.

ولأن الفضاء الروائي هكذا، بهذه القوة النطقية، فإنه لذلك لا تكاد الأعمال الدراسية حول موضوع الفضاء في المحكي الأدبي تنطلق دون أن تشكو من كون النقد والنظرية السردية ظلا على الدوام أسيرَي النظر تجاه هذه المقولة الأساسية، خاصة و«أن الفضاء، في أكثر الأحيان، يرى لا كإطار جغرافي للمحكي، ولكن بالأحرى كعنصر بنية»⁶².

في البحث الطويل عن أصالة مكون الفضاء الروائي في الخطاب الروائي، كان السؤال يبدأ دائما من منطقة التحديد: كيف نحده؟ بأي مقياس؟ ما علاقته (علاقته) بباقي المكونات الأخرى؟... والواضح أن هذا الفضاء له خصوصيته. فهو يتميز عن فضاءات جمالية أخرى كالفضاء المسرحي والفضاء السينمائي مثلا - كما يوضح ذلك صاحب كتاب «الفضاء الروائي» - لكنه لا يختلف عن المكونات الأخرى للخطاب الروائي من حيث إنه هو أيضا «لم يوجد إلا بقوة اللغة»⁶³. ومن ثم، فاللغة بما هي الأساس تظل هي المدخل الضروري لقراءة الفضاء الروائي، بدون أن ننسى ضرورة التأثير بهذا الخصوص. فلا إمكانية للحديث عن الفضاء في الرواية دون تحديد وجهة نظر السارد. لكن قبل ذلك وبعده، لافضاء يمكن أن يقدم نفسه لنا. «يتعين دائما أن نتجّه نحن أيضا»⁶⁴، وفق مقتضيات القراءة التي تأخذ بعين الاعتبار - كما سنتعرف على ذلك - لزوميات الكتابة.

لقد ظل الفضاء مكونا هامشيا أو مقصيا في الخطابات النقدية المعاصرة بالرغم من بعض الإشارات الخفيفة والعابرة إليه، وبالرغم من تطور الوعي الأدبي في العقود الأخيرة.

61 - La production de l'espace, *op. cit.*, p. 22.

62 - Pierre HERBERT, *Le temps et la forme*, Quebec, Ed. Naaman - Sherbrook, 1983, p. 20.

63 - Jean WEISGERBER, *L'espace romanesque*, *op. cit.*, p. 10.

64 - *Ibid.*, p. 11.

وملة أسباب كثيرة لا تخلو من تعقيد والتباس جعلت السرديات، بكل اجتهاداتها النظرية المتناسكة، لم تهتم بالفضاء الروائي. أسباب قابلة للنقاش في كل الأحوال، على نحو ما يوضح هنري ميزان⁶⁵، ومنها «الطبيعة غير المضمرة للفضاء [هكذا يبدو له]، أو على الأقل الخاصة غير الطبيعية لنظام معين للأمكنة ولصفات الفضاءية كوحداث تمثل (بخلاف الشخصيات أو المراحل الحديثة للفعل). لقد انشغلت السرديات، من جهتها، بدراسة مقولات المحكي، بصيغ إحداثها وبالإليات التي تفصلها بعضها ببعض، أكثر مما اهتمت بالتمثيلات التي تكون المادة، وتكون بنيتها الخاصة (أي التمثيلات)»⁶⁶. ولذلك، تأخذ هذه الدراسة على عاتقها - أن تقاوم - كل منزع يجعل الزمن يحل محل الفضاء على مستوى وصف الاشتغال الأدبي وتحليله على نحو - وفي أفق - ما سعى إليه الباحث المغربي عبد الله المدغري العلوي في إلحاحه النظري الداعي إلى إعادة إعطاء «الفضاء مكانته في الجهاز التصوري لتحليل الخطاب، حيث كان مقنعا، بل ومبتلعا من طرف مفهوم الزمن»، كما توضح ذلك مقدمة باصفاو⁶⁷.

إن الفضاء الروائي، مثل كل فضاء فني، يبنى أساسا في تجربة جمالية، بما يعنيه ذلك من بعد أو انزياح (Ecart) عن مجموع المعطيات الحسية المباشرة، أي أن مجاله هو حقل الذاكرة والتمثيل. لكنه مع هذا البعد عن الواقع الفيزيائي يظل متصلا - في كل الأحوال - ببنية تاريخ التجربة الأدبية والذاتية للكاتب (ة)، بل وللقارئ أيضا، إذا لم نسقط من اعتبارنا - كما سنرى فيما بعد - آليات اشتغال التصور أو التخييل أو التوهم في القراءة الأدبية، أي محددات تلقي العناصر التكوينية للكتابة. وإذن، فالفضاء الروائي في النهاية لن يكون إلا فضاء وهميا وفضاء إيحائيا. ومن ثم، عناء الوعي به والتسرع النقدي والنظري في استيعابه وتهميشه. بل، ومن ثم تصدع النظرية الأدبية أو النظرية السردية، إذ أن «غياب تأمل لبناء متجانس ونسقي لمفهوم الفضاء كأساس لهذه النظريات يفسر التصدعات النظرية في بناء النموذج كله»⁶⁸.

65 - Henri MITTERAND, «Préface», in Denis BERTRAND, *L'espace et le sens*, Paris - Amsterdam, Ed. Hadès - Benjamins, 1985, p. 9.

66 - *Ibid.*, p. 9.

67 - Kacem BASFAO, *op. cit.*, p. 10.

68 - Abdallah MDARHRI - ALAOUI, *Le concept d'espace dans les théories du récit*, *op. cit.*, p. 63.

وإذا كان علينا أن نفتتح بأن «الموضوع الرئيسى الذى «يخصص» جنس الرواية، ويخلق أصالته الأسلوبية، هو الإنسان الذى يتكلم، وكلامه»⁶⁹، فإن علينا أن ندرك أيضا أن ثمة على الدوام فضاء معينا يلتصق بالمتكلم وينسج خطابه، مثلما يلتصق بفعله وبفعل كل الشخصيات الروائية. إن «الإضاءة الإيديولوجية» اللازمة للفعل التى يتحدث عنها باختين⁷⁰، هي إضاءة لازمة أيضا لكل فضاء في الكتابة الروائية. إضاءة تنجزها قصدية توظيف فضاءات دون أخرى وطرائق إبراز فضاءات معينة في لحظات معينة من المسار السردى والحكاكى؛ وذلك بما ينزع نحو ابتكار دلالات معينة أو تحريك دلالات قائمة في الواقع الاجتماعى والثقافى والرمزى.

إن الرواية الجيدة لا تستحضر أو تبتكر فضاء معينا إلا إذا أوجدت له منظورا ووزعت ظلاله وأضواءه بما يخدم استراتيجىة الكتابة والقراءة معا. وأكثر من ذلك، وعلى حد تعبير ميشيل ريمون، فإن «كل رواية، فيما يبدو لي، لها نصيب من الاتصال مع الفضاء»⁷¹، إذ تكاد كل جملة في الكتابة الروائية تحيل على فضاء معين أو تستحضر فضاء معينا ما دامت تعبر عن فعل يتم في الوجود أو تقدم لنا حضورا ما في العالم. وبهذا المعنى، فإن صلة الفضاء بالنص الروائى هي أكثر من وطيدة. نكاد نقول بأن ليست هناك رواية أبدا بلا فضاء. ذلك أنه إذا تخلى المحكى عن الفضاء، فإن السرد يستحضره بصيغة أو بأخرى. والعكس ممكن أيضا. بل إن المحكى هو الفضاء بعينه، «الفضاء الاستعماري»⁷² بامتياز. وربما طرح السؤال هنا بالذات عن الزمن. نقول إن برغسون نفسه الأكثر انشغالا بالدعمومة كان يشترط للإحساس بها والتعبير عنها التعبير الفضائى. وإلى جانب ذلك لم يتحدد الزمن البروسنى إلا «حسب لعبة الأمكنة، بتعارضاتها، بتغليقاتها، بتبثيراتها الجمعية: نظام بسيط مؤجل للفضاء (...). وبالنسبة لميشيل بوتور، فالزمن ليس إلا صورةا منصدة للأمكنة، وتوفيقية فضائية. إن المرجعية الفضائية تعرض نفسها كأفضل وسيلة لعقلنة

69 - ميخائيل باختين، *الخطاب الروائى*، ترجمة محمد برادة، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، 1987، ص. 101.

70 - المرجع السابق، ص. 102.

71 - Michel RAIMOND, «L'expression de l'espace dans le nouveau roman», in *Positions et oppositions sur le roman contemporain*, *op. cit.*, 181.

72 - Voir GRAS Jean - Michel, in *Imaginaire de l'espace. Espaces imaginaires*, *op. cit.*, p. 125.

الخطاب وتنظيم النسق السيميائي؛ إنها لا تقصي المؤشرات الدينامية (العمودية، الأفقية) التي تمنحها ميزة رمزية، تحفيزية»⁷³.

ومهما كانت صيغ وإمكانات الجواب على أسئلة كتلك التي طرحها كتاب «الفضاء والمعنى» حول أشكال الفضاء الروائي: «ما نبعها الخطابي؟ بأية «أدوات» إدراكية تم تشكيلها؟ ما هي الموضوعات التي تنتقيها وتبهرها؟ وحسب أي منظور؟ كيف يمكننا أن نتأمل التمثيل الفضائي؟...»⁷⁴ إلى آخر الأسئلة المتصلة بالعلائق بين «الفضاءات المختلفة ومختلف المجاري السردية»⁷⁵، فإن اقتناعنا العميق بكون الفضاء الروائي يرقى «إلى درجة يمكنه معها أن يكون علة وجود العمل [الروائي]»⁷⁶. لكننا مع ذلك أكثر اقتناعاً بأن تعميق مشكلة فكرية وجمالية كمشكلة الفضاء الروائي، إذا استرشدنا بتعبير لأمبرتو إيكو⁷⁷، لا يعني بالضرورة إيجاد حل معين لها، بل نسعى فقط إلى إثبات «سجل أسئلة» يحتاج بلاشك إلى جهد وإمكانات وأدوات تقنية ومعرفية قد لا نزعج امتلاكها كي تصاغ له أجوبة ملائمة. ومن ثم، تلك الأفضلية التي نجدها في كل المقاربات النظرية والنقدية⁷⁸، حيث إننا بالرغم من كون الرواية، أية رواية، هي «كلية مبنية ودالة»، فإن الباحث أو الناقد لا يمكنه غالباً الإحاطة بهذه الكلية لاعتبارات منهجية بالأساس. وهكذا نجد في كل قراءة نقدية أنواعاً من «الانتقاء» تمنح بعضاً من الامتيازات لمستويات على حساب أخرى. ومن هنا يجوب الناقد المسافات المقروءة وينتهي عند ما تقتضيه نواياه ومنهجيته. هنا أيضاً حيث «إن عين الناقد تمضي وتعود من المركز إلى المحيط، لكن أيضاً من المحيط إلى المركز»⁷⁹ لتجعل من المكون الفضائي الواضح والمضمر مركزاً للنص الروائي. ونكون أمام

73 - Voir Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures françaises et étrangères, *op. cit.*, p. 524.

74 - Denis BERTRAND, *L'espace et le sens*, *op. cit.*, p. 65.

75 - *Ibid.*, p. 65.

76 - Roland BORNEUF - Réal, OULET, *L'univers du roman*, Paris, Ed. PUF., 1981, p. 100.

77 - Umberto ECO, *L'œuvre ouverte*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1965, p. 9.

78 - Françoise ROSSUM - GUYOM, *Critique du roman*, Paris, Ed. Gallimard, 1970, p. 22.

79 - Georges POULET, «Lecture et interprétation du texte littéraire», in *Qu'est-ce qu'un texte?*, *op. cit.*, p. 70.

حالة «ذهاب وإياب» لفكر نقدي تحدده وتقوده مستلزمات ومتطلبات انشغاله.

وإذا كان انشغالنا بسؤال الفضاء الروائي، ليس فقط انشغالا أدبيا أو جماليا، وإنما هو أيضا انشغال ثقافي ونقدي (أقصد نقد الوعي)، فإنما لأن المثقف العربي يعيش الفضاء كعلائق (كما يعيشه مجموع الناس في العالم)، ويعيشه - أكثر من ذلك - كجغرافيا. إن المثقف الغربي لم يعد مطروحا عليه سؤال الجغرافيا كما كان مطروحا مثلا في الحربين العظميين (على الأقل عند حدود كتابة هذه الدراسة).

لذلك نسعى هنا نحو مقارنة نقدية لطرائق اشتغال الفضاء في الكتابة الروائية انطلاقا من تجربة عربية فلسطينية. اختيار واع بمقاصده ويهمه أن يدفع بمكون معين له وطأة بليغة ووازنة في هذه التجربة نحو مقدمة المشهد.

نعرف أن الفضاء وحده كمكون لا يمكنه أن ينوب كليا عن باقي المكونات في الإحاطة الشمولية بطبيعة عمل ووعي الكتابة، كما سبقت الإشارة، ذلك لأن «خطأ لا يصنع لوحده دلالة، يلزمه خط آخر ليمنحه تعبيرا» (ديلاكروا)⁸⁰، لكننا اخترنا هنا أن نتحدث عن الفضاء كما لو كان هو الشيء الأدبي بالذات، كما لو كان هو موضوع الكتابة نفسه.

ربما همنا في دراستنا هذه، قليلا أو كثيرا، كيان العمل الروائي بوصفه فضاء، أي ترابط المكونات كلها. لكننا نلح أكثر على مكون الفضاء، على سؤال الفضاء بالذات. «السؤال بوصفه الإمكانية الحقيقية لقيام معنى - بنية ما يزالان في ثنايا التاريخ. فالسؤال مستقبلي بطبيعته مهما التصق بالواقع»⁸¹. غير أننا لا نتصور طرح الأسئلة في هذا السياق كنوع من الامتياز للبحث، ذلك أننا لا نرى بحثا أو دراسة بدون إشارة أسئلة. إن بلورة البحث في أسئلة هو الذي يمنحه عمقه الإشكالي بطبيعة الحال. لكن «الواحد منا لا يجد أبدا الجواب وحده» (بيتر برونك).

80 - عن جاك ديريدا، الكتابة والاختلاف، مرجع سابق، ص. 147.

81 - محمد برادة، «فلسطين (و) السؤال الثقافي العربي»، ضمن مجلة بيفافو، العدد 2، ربيع 1990، ص. 37.

الفصل الثاني

السرورة الحكائية ومشكلة الفضاء؟

أ. الفضاء في الخطاب النقدي العربي

لعله اتضح لنا الآن، نسبيا بالأقل، معنى الفضاء. إنه ليس معادلا للمكان. وإذا كنا هنا بصدد الحديث عن الفضاء الروائي، فإننا نقول بأن الأمر يتعلق بفضاء مطلق. ذلك الفضاء الذي قال عنه هنري لوفيفر بأنه «لا يوجد في أي مكان. لا مكان له، ذلك لأنه يجمع كل الأمكنة ولا يملك إلا وجودا رمزيا»¹، بل إن هذا «الفضاء المطلق ليس له إلا وجود ذهني، وإذن «متخيل»...»² سواء أثناء كتابته من طرف الكاتب (الروائي) أو تمثله من طرف القارئ (المتلقي).

لقد ظل الخطاب النقدي العربي، بسبب من تبعيته وذيلته للخطاب النقدي الغربي، مترددا في مقارنة حقيقية للفضاء الروائي. وربما كان للنقد العربي (والفرنسي) في المغرب فضل تدشين جدي في هذا المنحى، سواء من خلال ما تراكم من اجتهادات متفرقة في النقد الفرنسي (هنري ميتران، بورنوف - ويلي، جيرار جونيت، جوليا كريستيفا، دُونسي برتران...) أو بوحى مما استشعره النقاد المغاربة من فراغ أو ضعف في بعض الدراسات النقدية العربية. تفكير لا يزال في بداياته ولم يرق إلى مستوى صياغة نظرية متكاملة بالرغم من الإحساس بضرورتها وأهميتها³.

¹ - La production de l'espace, *op. cit.*, p. 273.

² - *Ibid.*, p. 290.

³ - انظر نموذجنا لهذا الإحساس في:

- د. حميد حميداني، *بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)*، الدار البيضاء - بحوث. المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1991، ص. 53.

- عبد الله المدغري العلوي في دراسته حول الفضاء:

- *Imaginaire de l'espace. Espaces imaginaires, op. cit.*, pp. 63 - 65.

ربما كان من المتعين على باحث في هذا الباب أن يقوم بمراجعة لمجمل مقاربات النقاد العرب لهذا المفهوم، أو في أقصى الحالات أن ينجز نوعاً من «البليوغرافيا المعلق عليها»⁴. لكن أمراً كهذا غير ممكن لأن ما أنجز عربيًا يبقى محدوداً جداً. ومن ثم، سنحاول أن نرصد هذا المنجز في مستوياته المتباينة عبر تطوره الزمني أساساً.

ومن الواضح جداً أن النقاش الحاد الذي دار بين النقاد العرب في ندوة «الرواية العربية» سنة 1979 بفاس، وخاصة الحوار الذي جرى بين الأستاذ محمد برادة والمرحوم غالب هلسا، كان بداية جدية لنقاش حول هذا الموضوع لم يتوقف حتى الآن. فإلى جانب «القوضوية المنهجية»، و«التحايل بحثاً عن نوع من السبائة» عبر التذرع بالانطباعية التي تطيع مداخله غالب هلسا، امتعض محمد برادة بهشاشة منظور هلسا للأمكنة التي حاول تقسيمها إلى: مكان مجازي، مكان هندسي، مكان يمثل التجربة المعاشة، ثم المكان المعادي: «لا يمكن تقسيم الأمكنة - يقول برادة - أو الفضاءات في هذه الحال إلى مجازية، لأنها كلها مجازية، أي لا تساوي الواقع، والمكان داخل أي نص أدبي يصبح في النهاية نوعاً من السعة في المجازية. كما لا يمكن أن نقول: مكان هندسي أو مكان معاش، لأن جميع الأمكنة لها أبعاد هندسية قد يصفها الكاتب وقد لا يصفها، وقد يستبطنها من خلال إحساساته الداخلية. والمكان المعادي يظل بدوره فضاء، وهذا الفضاء إما أنه بالإمكان التأكد من وجوده، وإرجاعه بالتالي إلى مرجع معين، وإما هو فضاءات متخيلة تماماً مثل فضاءات كافكا بالخصوص التي لا يمكن أن تعود بها إلى خارج النص أو إلى مرجع»⁵. وأخذ برادة، في نفس السياق، على هلسا كون تصنيفاته لا تساعد على تمثيل جيد، بل «هي في الحقيقة تعوم إدراكنا لأهمية الفضاء». إلا أن غالب هلسا سيؤكد محدودية اختياره: «إن ما أعنيه هنا هو المكان البسيط ذو الأبعاد الثلاثة، وقد اضطرت، لأسباب منهجية، إلى عزله عن الزمان وعن الحركة، رغم استحالة العزل فعلياً. وهذا من شأنه أن يؤدي إلى مفارقة، إذ في حين أننا ننطلق من فتر يؤمن بأن الزمان والمكان والحركة تشكل وحدة لا تنفصل أراني هنا أعود إلى فكر علماء الطبيعة في القرنين الثامن والتاسع عشر الذي كان يعتبر المكان والزمان منفصلين...» (نفسه، ص. 400).

4 - Umberto ECO, La structure absente, *op. cit.*, p. 13.

5 - أشغال ندوة الرواية العربية: واقع وآفاق، بيروت، دار ابن رشد، الطبعة الأولى، 1981، ص. 395 وما بعدها.

كما تنبغي الإشارة إلى الجهد الكبير الذي بذله الناقد العراقي ياسين النصير في دراسة هذا الموضوع، بكثير من العناء وبقليل من العمق. لقد حاول هذا الباحث في كتابين له⁶ الانتصار للفضاء الروائي (الأدبي) مبقيا على نفسه في أبسط مستويات فهم الظاهرة وتحليل الظاهرة الفضائية في الكتابة الأدبية، سردية وشعرية، نظرا لحدثة تداول الموضوع في الخطاب النقدي، من جهة، ولعدم امتلاكه الآليات المنهجية والمفاهيمية لمقاربة مبحث في غاية التعقيد كمبحث الفضاء. إن ياسين النصير يختزل الفضاء الروائي ويسطه كثيرا، وحتى وهو يقي عليه كمعادل للمكان، تظل رؤيته لهذا المكان تقليدية: «فالمكان دون سواه يشير إحساسا ما بالمواطنة، وإحساسا آخر بالزمن والمحلية، حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه، فقد حمله بعض الروائيين تاريخ بلادهم، ومطامح شخصوصهم فكان وكان: واقعا ورمزا، شرائح وقطاعات، مدنا وقرى، كيانا تنلمسه ونراه أو كيانا مبنيا في المخيلة...»⁷.

أما سيزا قاسم في «بناء الرواية»⁸ فقد كانت أكثر فهما للفضاء باعتباره «مكانا خياليا له مقوماته وأبعاده المميزة» تخلقه الكلمات، وليس هو بأية حال من الأحوال - حتى وهي تسميه المكان - «المكان الطبيعي»، بل مكان الرواية». وإذ تسترشد في مقاربتها للفضاء الروائي في ثلاثة نجيب محفوظ عرجعيات هامة جدا (ميشيل بوتور، ميرسيا إلياد، جليبير ديران، يوري لوتمان...)، فإنها مع ذلك تقود المفهوم في مأزق كبير. ذلك أنها تربطه بالوصف ليصبح بالنسبة إليها في النهاية «مثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية. أما الزمن فيتمثل في هذه الأحداث نفسها وتطورها. وإذا كان الزمن يمثل الخط الذي تسير عليه الأحداث فإن المكان يظهر على هذا الخط ويصاحبه ويحتويه. فالمكان هو الإطار الذي تقع فيه الأحداث»⁹.

نفس الفهم تقريبا نجده لدى ناقدة مصرية أخرى هي اعتدال عثمان في كتابها

6 - ياسين النصير، *الرواية والمكان*، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (الموسوعة الصغيرة)، شباط 1980.

- إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد، وزارة الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، 1986.

7 - انظر إشكالية المكان، مرجع سابق، ص. 5.

8 - سيزا قاسم، *بناء الرواية، دراسة مقارنة في «ثلاثية» نجيب محفوظ*، بيروت، دار التنوير، الطبعة الأولى، 1985.

9 - المرجع السابق، ص. 102.

«إضاءة النص»¹⁰، حيث مأزقية القراءة النقدية غير المنطلقة من استراتيجيات نظرية مدركة لأبعاد الفضاء الأدبي. إن خطأ غالب هلسا يكرر نفسه من جديد. تدرس الباحثة «جماليات المكان» في الشعر العربي الحديث، لكنها وهي تحاول الإمساك بالفضاء من حيث هو «مكان تشكله اللغة» و«العلائق المعتمدة على التجريد الذهني» تعود لتختزله إلى مجرد مكان في بعده الهندسي والطوبوغرافي.

وتكرس مجلة «ألف» المصرية عددا خاصا لما أسمته بدورها بـ«جماليات المكان»¹¹. لكن رغم عدم دقة العنوان العام لمجمل الدراسات المنشورة في هذا العدد الخاص (عربية وأجنبية مترجمة)، فإن الفهم الذي ساد على العموم توجه المجلة كان متقدما، وعلى الأقل كما بلورته هيئة تحرير المجلة أو كما ظهر في اختيار النصوص النظرية المترجمة:

«لاشك أن المكان يمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أن المكان - في الآونة الأخيرة - لم يعد يعتبر مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية، كما لا يعتبر معادلا كئاليا للشخصية الروائية فقط، ولكن أصبح ينظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني. وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكلان بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي».

هذا بالإضافة إلى أن المكان كان، ومازال، يلعب دورا هاما في تكوين هوية الكيان الجماعي، وفي التعبير عن المقومات الثقافية. وقد أثرت العوامل البيئية على المفاهيم الأخلاقية والجمالية التي تحرك الشعوب في جميع أرجاء العالم. ويصبح المكان إشكالية إنسانية إذا ما اغتصب، أو إذا حرمت منه الجماعة، ولذا فإنه يكتسب قيمة خاصة ودلالة مأساوية بالنسبة للمستعمرين واللاجئين.

ترجو ألف - إذ خصصت هذا العدد لجماليات المكان - أن تكون قد وفقت في الكشف عن الأبعاد النقدية والإيديولوجية للمكان»¹².

10 - اعتدال عثمان، *إضاءة النص*، بيروت، دار الحداثة، الطبعة الأولى، 1988، صص. 5 - 72.

11 - مجلة «ألف» المصرية، الدار البيضاء، عيون المقالات، الطبعة الثانية، 1988.

12 المرجع السابق، ص. 102.

أما حسن بحراوي - في «بنية الشكل الروائي: الفضاء - الزمن - الشخصية»¹³ - الباحث المغربي المسلح بترسانة نظرية في مواجهة تعقيدات وصعوبة «الشكل الروائي» - خصوصا في مكونات ثلاثة من مكوناته المتعددة، فقد وقع اختياره على «المكان أو الفضاء الروائي» (ص. 20) «بوصفه عنصرا شكليا فاعلا في الرواية لما يتوفر عليه من أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث والحوافز. وكذلك بفضل بنيته الخاصة والعلامات التي يقيمها مع الشخصيات والأزمنة والرؤيات»¹⁴. ويسمي بحراوي الباب الأول المخصص لدراسة الفضاء الروائي بـ «بنية المكان في الرواية المغربية» بالرغم من أنه سيواصل الحديث متزدا بين المصطلحين (المكان - الفضاء) كما لو كانا شيئا واحدا، بل إنه لن يتردد في ترجمة عنوان كتاب باشلار «شعيرة الفضاء» بـ «شعيرة المكان»¹⁵.

وبالرغم من تجميع بحراوي لعدد من التعريفات الأكاديمية، النظرية والنقدية، التي تحدد مفهوم الفضاء الروائي بكثير من العمق، فإن دراسته - فيما يبدو لي - لم تتمثل هذا الأفق النظري الرحب. ربما كان ذلك تابعا من إيمان لديه بكون «الزمن، زمن الخطاب وزمن القراءة هو العامل الأساسي لوجود العالم التخيلي نفسه»¹⁶. وربما لكونه اختار أحد السبل الممكنة، منهجيا وإجرائيا، للعبور إلى المتن الروائي المغربي الذي يتبدى فيه عموما نوع من هشاشة الوعي الجمالي والفكري بالفضاء، ومن ثم اختار طريقة «التقاطعات المكانية»¹⁷ ليظل مشدودا إلى «الثنائيات الضدية» التي يجد لها مسوغا في كونها «تنسجم مع المنطق والأخلاق السائدة مثلما تتوافق مع الآراء السياسية التي نعتنقها»¹⁸.

باحث مغربي آخر هو حميد لحميداني في مبحثه حول «الفضاء الحكائي»¹⁹ يبدو أكثر تقدما في انشغاله بهذا الموضوع، ليس فقط بسوقه لعناصر التفكير في النقد الفرنسي

13 - حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء - الزمن - الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990.

14 - نفس المرجع، ص. 20.

15 - نفس، ص. 25.

16 - نفس، الصفحة نفسها.

17 - نفس المرجع، ص. 33.

18 - نفس المرجع، نفس الصفحة.

19 - د. حميد لحميداني، بنية النص السردي، مرجع مذكور، صص. 53 - 73.

وغيره، حول مفهوم الفضاء الروائى، وإنما أيضا لكونه يقدم مجهودا شخصيا إضافيا وتأملات خاصة حول «حقيقة مفهوم الفضاء وعلاقته بمفهوم المكان»²⁰.

ينجح حميداني في تجميع أهم مكونات الفضاء الروائى مع حرصه على إبداء رأيه فيها والمضني ببعضها إلى حد التماس مع حقول أخرى، فهو يدرك تعدد الاجتهادات النظرية الغربية بخصوص مفهوم الفضاء والتي «لا تقدم مفهوما واحدا للفضاء»²¹. وبعد أن يمحصر، على ضوء رصده لمختلف الاجتهادات الشائعة في هذا الإطار أربعة مكونات فضائية هي:

1 - الفضاء كمعادل للمكان (الفضاء الجغرافي).

2 - الفضاء النصي.

3 - الفضاء الدلالي.

4 - الفضاء كمنظور أو رؤية.

يعتبر «المفهومين» الأول والثاني «مبحثين حقيقيين في فضاء الحكى» في حين أنه يعتبر المبحث الثالث مبحثا يعود «إلى موضوع الصورة في الحكى» والمبحث الرابع يعود «إلى موضوع زاوية النظر عند الراوي»²²، والحال أن التماس مع مباحث أخرى لا يعني اندغام الفضاء كمفهوم بهذه المباحث، بل أن الأمر يتعلق فعلا بمكونات حقيقية للفضاء الروائى رصدها الباحث وحصرها بدون أن يتمكن من تسميتها باسمها الحقيقي كمكونات فضائية.

ويذكر حميداني «بأن ضوابط المكان في الروايات متصلة عادة بلحظات الوصف، وهي لحظات متقطعة أيضا تتناوب في الظهور مع السرد أو مقاطع الحوار. ثم إن تغيير الأحداث وتطورها يفترض تعددية الأمكنة واتساعها أو تقلصها، حسب طبيعة موضوع الرواية. (...) إن الرواية مهما قلص الكاتب مكانها تفتح الطريق دائما لخلق أمكنة أخرى، ولو كان ذلك في المجال الفكري لأبطالها. إن مجموع هذه الأمكنة هو ما يبدو منطقيا أن نطلق عليه إسم: فضاء الرواية، لأن الفضاء أشمل، وأوسع من معنى المكان. والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء. وما دامت الأمكنة في الروايات غالبا ما تكون متعددة، ومتفاوتة، فإن فضاء الرواية هو الذي يلفها جميعا. إنه العالم الواسع الذي يشمل

20 - نفسه، ص. 62.

21 - نفسه، ص. 53.

22 - نفسه، ص. 62.

بمجموع الأحداث الروائية. (...) إن الفضاء - وفق هذا التحديد - شمولي. إنه يشير إلى «المسرح» الروائي بكامله. والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقا بمجال جزئي من مجالات الفضاء الروائي»²³.

إن قراءة نقدية تنغيا إحاطة جدية بحضورات الفضاء الروائي لن تنهض إلا من منطلق نظري يمنح الفضاء طابعه الشمولي. ويصعب أن يتيح بحرى (التقاطبات) الإمساك بجوهر الثقافة الأدبية في النص المحكي، لأن هذا المجرى يأتي من كونه خيارا أنثروبولوجيا وليس أداة للتحليل الأدبي بالأساس، وإن كان يُشكّل أفقا إجرائيا يقتضي بعض النصوص أو المتون ضرورة وأهمية اللجوء إليه. ذلك أنه تصور لا يتحدث إلا عن شخص واحد له وضعية معينة: إن تقاطب (التحت/الفوق) مثلا يترجم - كما هو معروف - نظرة شخص جالس وتقاطب (الضوء/الظلمة) يحيل على شخص سليم البصر... وهكذا. كما أن هذه التقاطبات في حد ذاتها ليست إلا ترتيبا للأشياء الأدبية التي يبقى جوهرها أعمق من مجرد ترتيب وتقابل. وهذا شيء ينتبه إليه، على نحو ما، «جان ويسجرير» على الرغم من كونه أخذ في تحليله لروايات القرن الثامن عشر بهذه التقاطبات²⁴.

وإذا كان محمد برادة قد سجل التطور الملموس للتوجهات النقدية العربية، بعد الستينات، في التجاوب مع المناهج النقدية الحديثة، فإنه انتبه في نفس الوقت إلى ضعف هذه التوجهات في تمثل هذه المناهج مما كان يجعلها تسقط كثيرا في نوع من «تمرينات تطبيقية لمصطلحات ومنظومات قلما تيسر النفاذ إلى عمق النصوص لتحليلاتها والكشف عن فعاليتها ضمن السياق الذي أنتجها»²⁵. وسنرى أن خطابنا النقدي أصيب بعثرات الخطاب النقدي الغربي على الأقل بخصوص موضوع الفضاء.

إنني أرحح ضعف، ما تسميه سوزان سونتاغ، «شعرية الفكر» في نقدنا العربي الحديث وهو يترك الفضاء الأدبي عموما «أرضا بدون مالك». لكن من المؤكد كذلك أن عدم نضج المسار النقدي العربي، كما تقتضيه سيرورة التاريخ الثقافي وتطور الممارسة

23 - نفسه، صص. 62 - 63.

24 - Jean WEISGERBER, *op. cit.*, p. 74.

25 - محمد برادة، الرواية المغربية المعاصرة: استشراف لآفاق التطور المستقبلي، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الإشرافي، العدد 191، 30 غشت 1987.

الإبداعية والفكرية العربية²⁶، ساهم في تعقيد مهام إنحاز «طوبوغرافية» لهذه «الأرض» السردية في الكتابة العربية، السردية والشعرية على السواء. ومن ثم، عجز النقاد العرب عن التخلص من كثير من الأسئلة التي يطرحها الواقع التاريخي والحضاري والفكري الغربي على خطابه النقدي وضرورة السعي نحو استنبات أسئلة في ظل اشتراطات الواقع العربي وانشغالاته.

II. الفضاء هوية من هويات الخطاب الروائي

وإذا كان النقد العربي قد قصر في طرح سؤال الفضاء الأدبي لاعتبارات كثيرة أشرنا إلى بعضها ومنها بالأساس ذيلته للنقد الغربي في توجهاته المتعددة التي تكاد تتفق، رغم اختلاف مقاصدها وأدواتها وآلياتها، على تهमيش هذا السؤال ذاته، فلست أول من انتبه إلى كون الناقد الأدبي في الغرب لم يقيم أي اعتبار للدينامية الفضائية «بالطريقة التي يتحول بها الفضاء ويتغير على المستويين التناسي (Intertextuel) والضمنسي (Intratextuel)»²⁷. وإذا كان الناقد لا يريد أكثر من «توضيح الدلالة التي اكتشفها» بالرغم من انشغاده أولاً إلى حالته الذاتية - على نحو ما يعبر عنه ف. أيزر - «أي صيغ تلقيه، وملاحظته وحكمه»²⁸ فإن ميكائيل إيساشاروف في «الفضاء والقصة القصيرة» يذهب إلى الإقرار بأن «النقد عموماً، في دراسة الأشكال الروائية أقام الحجة على إصابته بقصر نظر تجاه الفضائية (La spatialité)». وهذا أكثر إثارة للاستغراب، والحال أنه سبق أن لفتنا الانتباه إلى الدور الجوهرى للفضاء في حساسيتنا المعاصرة²⁹.

26 - د. صلاح فضل، إنتاج الدلالة الأدبية، القاهرة، مؤسسة مختار للنشر، الطبعة الأولى 1987. يرى فضل في مدخل هذا الكتاب أن «من أبرز مظاهر النقد المعاصر، وأشدّها خطراً في سن إشكاليته، تجاوز اتجاهاته، فهي لا تنتظم في نسق تاريخي يعتمد على نموذج التطور والتعاقب الزمني، كما كان شأن المذاهب الأدبية إلى حد ما في القرون الثلاثة الماضية، إذ تنبثق من واقع حضاري بطى الصيرورة، وتتلاحم أطرافها في الأقطار المختلفة، وتتداخل دوائرها - جزئياً - في بعض، لكن نقطة ارتكازها سرعان ما تتمحور في بؤرة زمنية تشهد مولودها، وأخرى تمثل ذروة ازدهارها وتوهمها، وثالثة تشير إلى غروبها عن مركز الأفق التاريخي». (ص. 298).

27 - Michael ISSACHAROFF, *L'espace et la nouvelle*, op. cit., p. 17.

28 - Wolfgang ISER, *L'acte de lecture; théorie de l'effet esthétique*, Bruxelles, Ed. Pierre Mardaga, 1985, p. 24.

29 - M. ISSACHARAFF, op. cit., p. 10.

إننا نعرف - بتعبير فرانسواز فان روسوم غيون - بأن «كل قراءة موجهة وكل نقد يجد على الخصوص ما يبحث عنه»³⁰، ولذلك لم يجب النقد عن سؤال الفضاء، لم يشغل به عموماً لأن الناقد نفسه مشدود إلى «الدلالة» التي يمنحها له واقعه التاريخي والاجتماعي والفكري.

ولست أفهم معنى المغامرة المزدوجة التي تشير إليها نفس الباحثة في نفس المصدر: «إذا كان النقد قراءة لمغامرة فإنه أيضاً مغامرة قراءة»³¹، إلا من حيث تكون القراءة النقدية تعالقات أسئلة وأجوبة. يطرح النقد أسئلته ويتولى النص المقروء الإجابة من داخل فضائه (من داخل بنيته، اشتغاله، معناه). ولأن العملية النقدية - المغامرة هذه تنطلق من رحم نظري معين يقودها ويؤطر مساراتها فإن لهذا الرحم بالذات يعود سبب انحسار النظر لدى النقاد في أوروبا (ومن سار مسارهم) في معاملة سؤال الفضاء معاملة يصح أن نسميها معاملة «تكتيكية» من حيث عدم إدراك الوضع الاستراتيجي للفضاء في الخطاب الروائي. وضع له تنظيمه الاستراتيجي. له «ضروراته الاستراتيجية»³²، بمعنى هذا النسق الاستراتيجي للكتابة الروائية الذي يمنح لفعل الشخصيات، للزمن ولل مكونات الفضائية المتعددة ذاتها أوضاعاً استراتيجية.

وفي الحقيقة، فإن أي إلغاء أو إقصاء لمفهوم الفضاء في النظرية الأدبية إنما هو قمع معين لهوية من هويات الخطاب الأدبي، وضمنه الخطاب الروائي. معناه أيضاً، أن مثل هذا الدفق النظري الصّارم يفرغ العمل الأدبي من عمقه الشعري والجمالي. ولعل محاولات تجاوزه وإبراز هشاشته النظرية والفكرية هي مما سيطلع مقولة الفضاء بطابعها الإشكالي (Problématique) في نظرية الأدب وفي الخطابات النقدية.

إن الفضاء الروائي ليس مجرد تقنية أو تيمة أو إطار للفعل الروائي، بل هو المادة الجوهرية للكتابة الروائية، ولكل كتابة أدبية. فقط تحتاج هذه المادة لكي تدرك إلى توجه مختلف، إلى منظور متفهم ورؤية عاشقة. ومن ثم، يتعين أن نرتقي في قراءتنا الأدبية بالفضاء من مستوى ابتذاله الشائع لدى عموم القراء (كصفحات زائدة لا يهم إن ألغيناها؛

30 - Françoise VAN ROSSUM - GUYOM, Critique du roman, *op. cit.*, p. 23.

31 - *Ibid.*, p. 23.

32 - دريد، *مواقع (حوارات)*، ترجمة وتقديم: فريد الزاهي، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1992، ص. 68.

المهم هو الحكاية!!) إلى مستوى التثمين الجمالي الضروري.

لقد أبرز عبد الله المدغري العلوي (وهو ناقد مغربي يكتب باللغة الفرنسية) أن «مفهوم الفضاء مفهوم فوق - نظري (Métathéorique) يسمح، من أجل تماسك المقولات السردية، ببناء نموذج خطابي للمحكي أكثر تجانسا وأكثر نسقية من المفاهيم التي غالبا ما تقترح علينا، ومن هنا ملامته وفعاليته في تحليل المحكي»³³. وبعد أن يؤكد هذا الباحث على أن دقة مفهومنا لا تكمن فحسب في قدرته على لحْم مجموع المقولات السردية، يرى أن له مقدرة على بناء عقلاني وتعالقي (Interdépendant) لثلاثة معايير: معيار التوجيه الذي يقتضي معيار المسافة الذي يستلزم بدوره معيار العمق. ويستخلص «أنه، في هذا التفضيل الميتالغوي، يكون للفضاء استعمال استعاري، إذ مثل كل استعارة، يصلح للإمساك بظاهرة عبر اصطلاحات ظاهرة أخرى (هنا يصلح الفضاء لتحديد وضعية موضوعات السرد وعلاقتها اللغوية، الإدراكية والفضائية - الزمنية)»³⁴.

لقد تطور الوعي بالفضاء في الكتابة الروائية، على الأقل منذ فلوير وبروست وصولا إلى الرواية الجديدة في فرنسا (ألان روب غريي، كلود أوليه، ميشيل بوتور، جورج بيريك، إلخ). تطور بالمعنى الذي لم يعد معه مجرد عنصر تكميلي مقحم، بل أضحى حضورا كاملا في النص الروائي على نحو ما يوضح ذلك ميشيل ريمون³⁵. وذلك إلى الحد الذي يجعلنا نقول بأن الفضاء هو إحدى العلامات المميزة للكتابة الروائية الجديدة، أية كتابة روائية تريد لنفسها أن تكون جديدة.

ولعل ذلك طبيعي إذا ما انتبهنا على المستوى العلمي إلى التطور الحاصل في الرؤية للعالم والوجود ولقضايا الفضاء والزمن، وكذا للاقتناعات الفينومينولوجية المتنامية في الفكر المعاصر ومستويات تأثيرها في الإدراك عموما، وفي الإدراك الجمالي والأدبي على الخصوص. هذا بدون أن ننسى التبدلات التي أظهرت صناعة السينما، والتبدلات الجغرافية الطارئة في نهايات القرن بسبب انعكاساتها على الأرض والخرائط والذاكرة والتفكير.

لذلك، أنا لا أفهم كيف يتمسك منظر أدبي أو ناقد معاصر بمنظور كلاسيكي للشكل الأدبي تعود جذوره إلى المنجز النظري للفيلسوف ليسينغ (Lessing 1729) -

33 - Abdallah MDARHRI ALAOUI, *op. cit.*, p. 64.

34 - *Ibid.*, p. 64.

35 - Michel RAIMOND, *L'expression de l'espace dans le nouveau roman*, *op. cit.*, p. 183.

(1781) في كتابه الشهير «اللاوكون» *Laocoone*، وذلك بدون الانتباه لا إلى أهم ما في الخصوصيات والمميزات الأساسية للرواية ذاتها ولا إلى ما طرأ من تبدلات، كما أشرنا، على الحساسية المعاصرة ذاتها.

لغة فكرة مركزية شكلت منطلق تنظيرات الفيلسوف الألماني ليسينغ³⁶، وهي أن الأدب والفنون التشكيلية (التصوير *La peinture* أساسا) تعبر عن «أفكارها» بأدوات مختلفة. فبينما يقدم النص الأدبي نفسه كنص زمني لا يمكن تلقي علاماته إلا متسلسلة ومتتابعة زمنيا، فإن العمل التشكيلي يقدم نفسه دفعة واحدة من حيث تكون علاماته متزامنة ومتجاورة: «إن علامات متتابعة لا يمكنها أن تعبر إلا عن موضوعات متتابعة أو مكونة من عناصر متتابعة مثلما لا تستطيع علامات متجاورة التعبير إلا عن موضوعات متجاورة أو مكونة من عناصر متجاورة».

وبينما يؤكد يوري إيزنزويغ على ضرورة الانتباه إلى الدلالة الإيديولوجية الكامنة خلف الطرح القائل بكون خاصية التجاور هي خاصية طبيعية ملازمة للفضائي (*Le spatial*) وخاصية التابع ملازمة للحدثي (*L'événementiel*)، يوضح لنا جوزيف فرانك بأن ليسينغ ليس هو من ندين له بهذه الصياغة، حيث تعود جذورها إلى تاريخ سابق عنه، لكن ليسينغ كان هو أول من جعل منها بطريقة نسقية أداة تحليل نقدي.

هكذا يتضح أساس التمسك النظري لدى بعض الأوروبيين (الفرنسيين بالخصوص) لكي لا أتحدث إلا عن أعرف) بزمية الخطاب السردى كما لو كانت هي الإمكانية الوحيدة التي تسمح بها قوانين الإدراك الإنساني. والحال أن الأمر يتعلق، فيما نتصور، بسوء فهم لكتاب «اللاوكون» الذي كرسه ليسينغ كرد في سياق محاجة لمهاجمة جنسين جماليين كانا أكثر استحسانا على عهده: الشعر الوصفي والتصوير الزمني. سوء فهم آخر لتاريخ النظرية الاستيقية ولتطور نظرية الأدب التي تستجد وتتطور لا استنادا إلى عناصر خارجية، بل بالاعتماد المطرد على التطور العضوي للنص الأدبي في تحاطباته وتجاوزاته وتناقضاته أيضا مع ما يستجد في الفكر والحياة. ولعل الرجوع إلى نماذج من الأدب

36 - نسرشد في إبراز أفكار ليسينغ على مرجعين اثنين هما:

- Joseph FRANK, «La forme spatiale dans la littérature moderne», in *Poétique*, N° 10/1972, pp. 244 - 266.

- Uri ESENZWEIG, *L'espace imaginaire du texte et l'idéologie*, op. cit., pp. 183 - 187.

الإنساني المعاصر (وجوزيف فرانك يحيلنا على شعر إيلسوت، إيزرا بوند، وروايات مارسيل بروست وجيمس جويس، على سبيل المثال) يفيدنا في معرفة الكيفية التي يلتف فيها الأدب على نفسه في معنى الشكل الفضائي. «إن هؤلاء الكتاب يبحثون عن أن يجعلوا عملهم يدرك، لا كتابع في الزمن ولكن كوحدة في الفضاء»³⁷. من ثم، يبدو لنا - لي على الأقل - أنه أصبح من الضروري إعادة قراءة نقدية للمنجز النقدي الفرنسي (هذه الجزيرة المرجعية لخطابنا النقدي في المغرب وفي اقطار عربية أخرى)، وذلك بما يعيد الاعتبار حقاً لكلية العمل السردى ولما لا يجعله عملاً مقطوع الأوصال.

إن مثال جيرار جونيوت جدير بالتأمل في هذا الباب. فمة أخذَ وَرَدٌ، مد وجزر في خطابه النقدي والنظري حول مفهوم الفضاء. لنقل إن علاقته بالفضاء الأدبي خضعت لتبدلات في المسافة ما بين كتابه النقدي الأول (*Figures I*) وكتابه الثالث (*Figures III*)، ولنقل بدقة أكثر إن قراءاته لرواية بروست «بحثاً عن الزمن الضائع» قد غيرت من موقفه وصححته جزئياً. وسنرى أنه حتى وهو يلامس وجود فضاء أدبي، «فضاء يشغل ويسكن الأدب»³⁸، فهو لا يعتبره متصلاً بجوهر الأدب وبلغته الإبداعية الخالصة، كما يمكن أن يكون الأمر بالنسبة للتصوير مثلاً الذي يعتبره «فناً فضائياً» أو بالنسبة للمعمار «فن الفضاء بامتياز (...) الذي لا يتكلم عن الفضاء، بل سيكون صحيحاً لو قلنا بأنه يكلم الفضاء بأن الفضاء يتكلم فيه»³⁹. أما ما يعترف به جونيوت من ملامح فضاء أدبي فإنه يظل - في نظره - مجرد «فضائية هي بمعنى ما أولية وبسيطة، هي فضائية اللغة ذاتها»⁴⁰.

ورغم مواخذة جونيوت على جورج ماتورى في كتابه «الفضاء الإنسانى» كونه «في بعض تحليلاته المقارنة لم يتم السير بها إلى حد بناء حقل مفاهيمي حقيقي»⁴¹، وإن كان يؤكد على كفاءاته العالية في تحديداته لجملة من مفردات اللغة الفضائية (*Le langage spatial*) رغم منهجيته غير المعلقة، كما استشعر ذلك ماتورى نفسه «بكل أمانة» (الوصف لجونيوت)، فإن جونيوت لم يطرح مواخذاته على دراسة ماتورى، فيما يبدو لي، إلا لضيقه (ضيق نموذج النظري بالذات) من كون ماتورى لم يفعل في كتابه أكثر من

37 - Joseph FRANK, *Ibid.*, p. 247.

38 - Gérard GENETTE, *Figures II*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1969, p. 44.

39 - *Ibid.*, p. 44.

40 - *Ibid.*, p. 44.

41 - Gérard GENETTE, *Figures I*, *op. cit.*, p. 106.

إشار الفضاء على الزمن. والمهم في هذا التلاقي بين جيران جونيت والجهود النظري لجورج مانوري هو الإشارات للاماعة في عمل هذا الأخير إلى الفضاء الجوهري الذي عاشه وعلش به بروست، الفضاء الحاضر في كل شئ داخل العمل العظيم «بحثا عن الزمن الضائع»، والذي ألب حماس جونيت للاتجاه نحو بروست بفضائه العميق. الفضاء الذي ليس فقط فضاء لغة أو فضاء ينسج اللغة⁴². وينبغي ألا «يفاجأ» الباحث وهو يرى ناقدا مثل جونيت يسعى إلى بناء نموذج النظري على أسس وتحديدات معينة كي يلغي الفضاء ويحتفي بالزمن (!)، فالأصل في هذه التحديدات والأسس التي ينهض على أكتافها النموذج النظري الذي تبلور في *Figures III* أنها تحديدات وأسس فضائية بالرغم من طابعها الزمني المزعج، على نحو ما أوضحه بذكاء عبد الله المدغري العلوي⁴³. إنه نموذج زمني يتأسس على قاعدة فضائية، والفضل بطبيعة الحال يعود إلى النص الروائي المقروء للمارسيل بروست الذي أتاح لجونيت أن يدرك أولا بأن الفضاء ليس هو المكان الذي لا قيمة له في التحليل إلا باعتباره شأنا وصفيا، وأن الوصف ليس بالضرورة وقفا للمحكي أو بالمعنى التقليدي ليس قطعاً «للفعل» الحكائي. ذلك أن كل توقف للوصف لا يتم لمجرد رغبة الكاتب، بل يعود أساسا إلى تأمل يقتضيه موقف البطل نفسه⁴⁴.

هنا مثال حي للنص الروائي الذي يحمل معه نصه النظري والنقدي. إن رواية «بحثا عن الزمن الضائع» تمنح الناقد معطيات أساسية لإنجاز بنائه النظري، بل لتصحيح مساره النظري. شئ كهذا يوجد في روايات عظيمة (جويس، ألبير كامي، الرواية الجديدة الفرنسية، إلخ...) وأحيانا في تنظيرات الروائيين أنفسهم كما يشير إلى ذلك محمد برادة في تقديمه للكتاب الذي ترجمه لباختين⁴⁵. لكن الأهم في عملية الإسعاف التي يقوم بها الإبداعي هنا للنظري هو أنه يقوم بتنسيبه. ذلك أن الزمن نفسه - مهما تمسك به نموذج نظري معين - ليس مطلقا أدبيا وحتى فيزيائيا، لأن قياسه، كما هو معلوم، يتأثر بالحركة النسبية في الفضاء.

لقد أخضع جونيت تحليله النقدي لسلطة النظرية. وأن يصبح النقد شغلا في خدمة

42 - *Ibid.*, pp. 107 - 108.

43 - Abdallah MDARHRI ALAOUI, *op. cit.*, p. 106.

44 - Gérard GENETTE, *Figures III*, Paris, Ed. Seuil (Poétique), 1972, pp. 133

- 134.

45 - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع المذكور، صص. 21 - 26.

النظرية بدلا من أن تقوده النظرية وأن يسترشد بها في كشوفاته وأسفاره داخل خصوصيات النصوص الأدبية المقروءة، معناه السقوط في بعض الإكراهات التي تقهر النصوص لجعلها تلد ما قد لا يولد أو تد ما ينبغي أن يظل حيا. ربما لم يفت مثل هذه المخاطر جيران جونيت، بل إنه يشير إلى حيرة استبدت به في هذا المنحى: هل يجعل موضوع نقده في خدمة الاتجاه العام لنظريته أم يخضع نظريته للنقد؟ ليخلص في النهاية إلى اختيار حاسم (بالرغم منه، كما يقول هو نفسه): أن يجعل النقد في خدمة النظرية⁴⁶. وذلك جانب من جوانب معضلة كل قراءة تعطل الحواس وتهمل الأساس الدلالي للمحكي وتبقي على قيمة ما هو تقني فقط.

إن النقد، على ما قد يتوفر عليه من عمق وذكاء، يظل في النهاية جهدا فكريا يقوم - في حقيقته - باستثمار وتبدير معرفة قائمة. ولذلك عليه أن يسترشد بالنظرية، منهجيا، ويحتفظ بالسلطة الإجرائية لنفسه. يستدعي استشهادات بعيدة كي يتنافس أكثر وكي يغذي «متمته المعرفي»⁴⁷. لكنه أبدا لن يكرس نفسه ونشاطه خادما ذليلا لبناء النموذج النظري. مثل هذا النموذج يحتاج إلى بحث علمي لا ينهض به جنس منفتح كالنقد الأدبي مهمته تدير معرفة بالأساس. من ثم، فالعمل الوصفي للخطاب النقدي هو دليل «هشاشته». شكل نقصه الخاص. فقيما هو يصف النصوص ويحللها لا يكون منشغلا إلا بعمل «عدم اكتمال أفكاره» - بتعبير لميشيل مافيزولي - ليضمن لنفسه إمكانات استيعاب ما هو موجود. علي أن أقول بأن مثل هذا الطموح النقدي هو ما يمنح القراءة لذتها، لذة الكشف والاكتشاف والتدبير والنسل. وفي أفق كهذا الأفق لن تضيع مكونات أي خطاب أدبي ولا وحداته البنيوية غير الثابتة في مسارها عبر سيرورة التحول والتحويل.

III. «المجري الثابت»: عن الفضاء والزمن

ينبغي إذن أن ندرك المراتب التي يقودنا إليها كل التباس في التحليل أو ضعف في التصور، وخصوصا حينما يتعلق الأمر ببعض المفاهيم المركزية في الخطاب الأدبي من قبيل تلك التي لا معنى لهذا الخطاب بدونها. ولعل ما يطرحه علينا مفهوم الفضاء بالذات ليمس الجانب الجوهرية في الكتابة الأدبية بما هي جنس جمالي وفني. غير أن الرواية بشكل خاص

46 - Gérard GENETTE, *Figures III*, op. cit., p. 68.

47 - Roland BARTHES, *S/Z*, Paris, Ed. Seuil (Points), 1970, p. 211.

تطرح - على هذا المستوى - نوعين من المشاكل: أولهما علاقة الفضاء بالوصف، وهو مشكل أساسه الالتباس الحاصل في عدم الفرق بين الفضاء والمكان. وذلك من حيث يبدو المكان في الغالب سببا في تأخير الأحداث الروائية. وثانيهما ما يثيره تجاهه الفضاء والزمن في الكتابة السردية بغير قليل من الأخطاء وسوء الفهم في التعريف والتحديد والتحليل. والمشكلان معا في العمق يقيان متصلين بالإشكال الفكري للخطاب الروائي (هل هو خطاب زمني أم فضائي؟! مع أن الفكر قد حل المشكل من أساسه. وهنا نستحضر ما ذهب إليه الشاعر الكبير ميلوش Milosz من أن الفكر هو أساس «تأكيد وحسب الحركة»: ولا يتعلق الأمر بمعرفة الوجود، وإنما بتحديدده، فالطبيعة، الفضاء والزمن ليست وقائع معزولة كما يريد إقناعنا بذلك التحليل الجامد الذي يدبر الذكاء: إنها ليست إلا «مكونات للحركة»⁴⁸.

إن الحركة بهذا المعنى ليست في الكتابة الروائية نتاجا لمجرى الزمن الحكائي والسردى فقط، بل هي نتاج مشترك لهذين العنصرين السيائيين: الزمن والفضاء، نتاج لتضارفهما، لتضارعهما، لتقاربهما، لتباعدهما ولكل حركتهما الشاملة التي تجوس المساحة والمسافة الروائية. الحركة التي ليست شيئا آخر غير العنصر الروائي (Le romanesque) ذاته. ومن هنا ينبغي أن نفهم معنى أن يقال لنا بأن «الفضاء، سواء كان «واقعيًا» أو «متخيلا»، مرتبط، إن لم يكن مندمجا في الشخصيات، مثلما هو كذلك بالنسبة للفعل أو لجريان الزمن»⁴⁹. بمعنى أن الفضاء موجود على امتداد الخط السردى. إنه لا يغيب مطلقا حتى ولو كانت الرواية بلا أمكنة. الفضاء حاضر في اللغة، في التركيب، في حركية الشخصيات وفي الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي. وعندما يرفض أن نسميه، أن نحدد، أن نمنحه هوية وأن نعبر عنه (لعجز في الإدراك أو رغبة في تحصيل رغبة بناء نموذج نظري معين)، فإنه لا يتغيب، بل يظل كامنا هناك في الظل بانتظار لحظة إدراك ملائمة أو استجابة أكثر تعاطفا.

لقد منحنا جورج ماتوري في «الفضاء الإنساني» معطى أساسيا، وهو أن «كل الصور متحركة»، وبما أنها كذلك فإن الاستعارات تعبر عن دينامية خاصة. ومن ثم - وبما أن الخطاب الروائي هو نسيج من الصور والاستعارات ككل خطاب أدبي - فإن «الفضاء

48 - Milosz, in Georges MATORE, *L'espace humain, op. cit.*, p. 207.

49 - *L'univers du roman, op. cit.*, p. 107.

بالأساس يكون مكانا مجرى، وكل عنصر يتموقع فيه يبدي حركية هي بصورة ما باطنية: عندما يظهر كما لو أن الموضوع الفضائي قد توقف، فإنما هو توقف مؤقت، إنه يوجد دائما بين وصول وانطلاق»⁵⁰. ويمكننا أن نضيف بأن الموضوع الفضائي لا يوجد عندئذ بين الوصول والانطلاق، بل إنه كامن في الانطلاق ذاته، وفي الوصول ذاته، وإنه لا معنى لمنطلق ولمتنهي كل مجرى روائي إن لم يكن الرحم الأشمل فضائيا.

وإذا كان ستانلي فيش يعارض في كتاباته النظرية والنقدية أي فصل «للتركيب الفضائي عن الفعالية الزمنية»⁵¹، فإن جعل هذا الجانب أو ذاك المقولة المركزية (كما يفعل باحثين مثلا بالنسبة لتعددية اللسان) و«حجر الزاوية في تحديد بقية مكونات الخطاب الروائي، لا بطريقة معيارية، بل من أفق نظيري مرن...» بتعبير محمد برادة⁵²، يظل في النهاية مجرد اختيار إجرائي في ترتيب أولويات القراءة النقدية، وذلك لأنني لا أفهم مشروع باحثين الغد مختزلا في تعددية اللسان أو مجردا من باقي المفاهيم المركزية وفي مقدمتها بنية الفضاء - الزمان (Le chronotope) أو الحوارية والتهجين. أما إذا أصبح الاختيار الإجرائي اختيارا استراتيجيا كأن يجعل الناقد من الفضاء مجرد معبر للفعل الزمني باتجاه تراكمه من حيث لا يجد الفضاء ملاذا لنفسه إلا في الوصف، فهنا يغدو الأمر خاطئا ومرفوضا.

إنني لا أعرف أفق مغامرة هذا الانتصار النظري الذي أقوم به هنا والآن، للفضاء الروائي، ولكنني أعرف أن التمسك بزمانية الخطاب الروائي وبالسيرورة السردية والحكاية أنهك إلى حد كبير مسارات التحول الروائي. ثم ألا ينبغي التساؤل في هذا السياق: أليست السيرورة السردية غير مسافة؟ لتذكر أن لو كاش يتحدث في «نظرية الرواية» عن هذه السيرورة كـ «طريق مرسوم الحدود بوضوح»⁵³، أي كفضاء ممتد ينطلق من نقطة انطلاق باتجاه نقطة وصول (لكم يزعجني كل تقابل بين هاتين النقطتين كأن ليس ثمة من إمكانية لتلقي عناصر بلون أن تنصورها بين بداية ونهاية!).

50 - Georges MATORE, L'espace humain, op. cit., p. 207.

51 - انظر تحليلا لطرح ستانلي فيش في: وليم راي، المعنى الأدبي، مرجع مذكور، ص. 171.

52 - محمد برادة، «الرواية العربية المعاصرة...»، مرجع سابق، ص. 4.

53 - جورج لو كاش، نظرية الرواية، الحسين سحبان، الرباط، منشورات التل، الطبعة الأولى، 1988، ص. 77.

لقد أضحي الرهان على الديمومة (الزمنية) *La durée* في الكتابة السردية يتسببنا بأن الديمومة نفسها ليست، ماديا وسرديا، إلا مجموعة لحظات. ولذلك نتصور أنه إلى جانب الانشغال بهمّ بناء النموذج النظري لدى عدد من نقاد الأدب ومنظريه، هناك افتقاد واضح للحس السيميائي ذاته. فماذا يعني الانتقال من حالة إلى حالة، من زمن إلى آخر، من حدث إلى آخر، من فعل إلى آخر، من فصل إلى فصل غير ركام من الوقفات، أي تحولات في الفضاء وبالفضاء. معناه الجوهري. لكن الموضوع لا ينبغي النظر إليه دائما بهذه المعيارية الجاهزة ولا حتى من مستوى متزع مرجعي معين. لتذكر درس بارت في هذا المنحى. ذلك أن الرجل يؤكد بأن «الزمنية ليست سوى مستوى بنيوي من مستويات السرد (أي الخطاب). ومثلما هو الشأن في اللغة، فالزمن لا يوجد سوى في شكل نسق، وما نسميه من وجهة نظر السرد بالزمن لا وجود له أو لا يوجد على الأقل إلا وظيفيا، أي باعتباره عنصرا من عناصر نظام سيميائي: إن الزمن لا ينتمي إلى الخطاب بمفهومه الضيق، وإنما ينتمي إلى المرجع. فالسرد واللغة لا يعرفان سوى زمن سيميولوجي، أما الزمن «الحقيقي» فهو وهم مرجعي أو «واقعي» كما يوضح ذلك بروب»⁵⁴. لتخلص إذن من أوهامنا، من مسبقاتنا كي نقيم توازنا ضروريا بين المكونات السردية.

وعلى العكس مما ذهب إليه جيرار جونييت (وأعود إلى جونييت بالذات لكي لا أستحضر إلا تجربة جديرة بالانتباه)، لم يعد «يبدو مفارقا الحديث عن فضاء بخصوص الأدب»⁵⁵، ذلك لأن للأدب، للنص الأدبي فضاءه بالفعل، وهو بالتأكيد ليس «ما يتكلم عنه الأدب ضمن «موضوعات» أخرى (وصف الأمكنة، الإقامة، المشاهد الطبيعية...)»، كما يتصور جونييت في نفس السياق⁵⁶، بل «إنها لإحدى مظاهر الحداثة بالذات أن

54 - انظر رولان بارت، التحليل البنيوي للسرد» ترجمة: حسن بحراوي، بشر القمري، عبد الحميد عقار، مجلة *آفاق* (الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب)، عدد 8 - 9، صص. 7 - 29.

55 - Gérard GENETTE, *Figures II*, op. cit., p. 43.

يقول جونييت: «ربما يبدو مفارقا الحديث عن فضاء بخصوص الأدب: ذلك أن صيغة وجود عمل أدبي، ظاهريا في الواقع، هي أساسا زمنية، على اعتبار أن فعل القراءة هو الذي تحقق به الكيان المفترض لنص مكتوب، هذا الفعل الذي يشبه إنجاز توليفة موسيقية، من حيث هو عبارة عن متتالية من اللحظات التي تكتمل في الديمومة، في «مومتنا».

56 - *Ibid.*, p. 43.

نفتت، أحيانا وبصورة جذرية، زمنية اللغة»⁵⁷، زمنية الوقائع والأحداث بما هي زمنية مرجعية. أي بما هي زمنية إيديولوجية. تفتتت هو بشكل ما بناء لفضائية الأدب، لجوهرانية الكتابة الأدبية. نقصد إذن، وبالذات، ألا تبقى زمنية الكتابة الروائية قدراً أو مطلقاً أدبياً، وفتح الأفق أمام إمكانية أخرى: أن يصبح الفضاء بما هو تجاور في العلامات، أثناء عملية التلقي، مطلقاً آخر. ولذلك أكثر من شرط: ألا يصبح التجاور مضاداً للحركة، ألا يلغى أية حركة ممكنة. التجاور (La juxtaposition) الذي ترضى فيه الأفعال والأشياء والشخصيات... «مواصلة وجودها بعضها قريب من البعض الآخر، بدون تداخل مثلما بدون إبعاد»⁵⁸ في أفق صياغة المعنى الروائي. وأن يظل هذا الفضاء المطلق كائناً - إن صح التعبير - في اللامكان حيث «لا يوجد في أي مكان. لا مكان له، ذلك لأنه يجمع كل الأمكنة ولا يملك إلا وجوداً وهمياً»، بتعبير هنري لوفيفر في كتابه «إنتاج الفضاء»⁵⁹، أي «وجود ذهني، وإذن متخيل»⁶⁰، كما مرَّ معنا في مقام سابق.

لذلك، أضحت الرؤية الزمنية للخطاب السردى تختزل جوهر هذا الخطاب في مجرد خطية معينة، في السرد وفي المحكي. والحال أن المحكي إذا ظل «ثابتاً» فإن السرد عمل متحرك، بحيث يمكن للمرء أن يسرد حكاية واحدة بألف طريقة وطريقة. فما بالك بالحكاية الواحدة التي قد تصبح أكثر من حكاية إذا اقتيدت إلى ذاكرة الجدات، حيث تنقص تفاصيل وتنضاف تفاصيل أخرى. إن «على الروائي ألا يقول أبداً إن البطل يمشي، بل عليه بالأحرى أن يثار على إظهار ما يتتلى على يسار وعلى يمين الماشي»، بتعبير كلود أولييه⁶¹. يفعل مثل ذلك الروائي، فكيف لا يفعله الناقد أو المنظر!

لقد أظهر باشلار وجورج بولي وآخرون أن الفضاء الأدبي يستدعي «هندسات مختلفة»، ويتحكم في التقنيات والتمثلات. وهو - حسب المعجم الفرنسى للآداب - «منظور وجهة نظر، تقطيع» (découpage) وتوليف (montage). إنه ينضوي في بلاغة اجتماعية، في سنن شاسع للأمكنة، يعارض بين المدينة والقرية، بين الإقليم والعاصمة، بين

57 - Victor BROMBERT, in L'espace et la nouvelle, *op. cit.*, (préface).

58 - Georges POULET, L'espace proustien, *op. cit.*, p. 119.

59 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, *op. cit.*, p. 273.

60 - *Ibid.*, p. 290.

61 - Claude OLLIER, in Michel RAIMOND, L'expression de l'espace dans le nouveau roman, *op. cit.*, p. 187.

المركز والهامش. إنه يؤكد الاختلاف والنظام المتضامن للعلامات، ويدخل في لعبة مقارنة مع الزمن (تثمين وتبخيس متلازمان ومتعاكسان الواحد مع الآخر)...»⁶².

لنقل إن المحكي لا يتاح له أي تحقق استيقني إلا بهذا السند (Support) الأساس للعمل السردي: الفضاء. هنا حيث تتحول الأشياء من هندسة التقاطب البسيطة الأولية إلى مستوى التعقيد والتشابك والمتاهة، مستوى «التحول المسخي» (Métamorphique) ⁶³... الذي لا يدركه إلا قارئ ذي إيقاع روحي خاص وتجربة داخلية عميقة. وفي هذا المستوى بالذات تتعثر بعض القراءات النقدية، وخصوصا حين يلحقها نوع من التحديدات الصارمة للمعرفة: كأن يقرأ الفضاء مثلا بوصفه ظاهرة خارجية فقط، ولا يتم الارتقاء إلى مستوى جعل التجربة الخارجية - على نحو ما أوضح كانط - ضرورية للتجربة الداخلية ما دامت هذه الأخيرة عصية على الوصف «وترفض أن تتكلم»⁶⁴.

هنا، ينتفي منطق التقابلات والتعارضات، وبالخصوص بين الفضاء والزمن. ويصبح الحديث عن انقطاع السيروورة الحكائية أو توقيفها شيئا آخر غير الحديث عن وظائف الفضاء الروائي. وهنا أيضا، في حضرة الفضاء، لا شيء يتوقف عن العمل، بل تظل كل مكونات النص الروائي يقظة، «لا تنام كساعة الحائط»، بتعبير شارل كريفل Crivel، وليس هناك من مكون يسهر أو يكون في حالة شلل أو انتظار. مسار منذ أن ينطلق لا يتوقف إلى أن يصل. وقد يصل ويظل يمشي.

IV. الفضاء ومشكلة الوصف

لاتزال مشكلات الفضاء الروائي بحاجة إلى وضوح أكبر، وإلى تحديد لأصولها ولفروعها. ولعل استمرارية إحالة هذه المشكلات على المرجعية (الواقع الخارجي) والوصف هو أحد هذه المشكلات المطروحة في ركام من «اللفظ» النظري والنقدي. لكن المشكلة التي يثيرها الوصف في الخطاب الروائي هي أكثر تعقيدا مما قد يتصور باحث متعجل. ذلك أنها مشكلة تتصل من جهة بعلاقة الالتباس القائمة بين الفضاء والزمن

62 - Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures françaises, *op. cit.*, p. 524.

63 - *Ibid.*, p. 524.

64 - MERLEAU - PONTY, La phénoménologie de la perception, *op. cit.*, p. 139.

(التلازم والتعاكس)، وضمنها بالالتباس الضمني بين الفضاء والمكان؛ ومن جهة أخرى تتصل بمحدود التشخيص في كل من السرد والوصف.

إن السرد - كما يوضح ذلك بنجاح جرار جونيت - هو تشخيص لوقائع وأفعال وأحداث في حين أن الوصف هو تشخيص لأشياء ولأشخاص⁶⁵. لكن هذا التمييز الدقيق بين نوعين من التشخيص، أي نوعين من الوصف في الخطاب الروائي لا ينبغي أن يجعلنا ننسى المشكلة التي أُلصقت بالوصف باعتباره شكلا من أشكال فرملة السيرورة الحكائية. ذلك أن المنظور التقني لدينامية الخطاب الروائي فرض على المتلقي، ولفترة طويلة هي فترة البنيوية، وضع العنصر الوصفي في درجة ذيلية، وبالتالي ذهب الفضاء (منظورا إليه بوصفه مكانا) ضحية لهذا الوضع الاعتباري الصارم. وذلك من حيث لم يكن ممكنا تصور «الفضاء» خارج المقاطع الوصفية في كل نص روائي. وفات العديد من الدراسات ذات المنزع البنيوي الانتباه إلى إمكانية توفر نصوص روائية وصفية بكاملها، فضلا عما فاتها من تمايزات بين كل من مفهوم الفضاء ومفهوم المكان (كما سبق التوضيح والتفصيل).

ربما كان من الضروري مرة أخرى التأكيد على أن الموقف الوصفي ليس توقيفا للمحكي، ففضلا عن أنه تشكيل إضافي للمعنى هو إضاءة أخرى للفعل الحكائي. ولقد أبرز لوي ماران إمكانيات تحقق محكي مزدوج فيما يبدو لنا أنه محكي واحد، وتحقق نص داخل نص آخر فيما يتبدى أنه نص واحد فيما «يعزز مستوى معنا للمعنى ولتنظيم النصي للنسيج الوصفي للمحكي الذي لا نقرأ أبدا إلا آثاره»⁶⁶.

وبعد أن يطرح هذا الباحث الفرنسي السؤال: ماهو معنى، ما هي وظيفة هذا المحكي الكبير المنس تحت اللوحة الوصفية؟ يجيب قائلا بأن المحكي المنس تحت اللوحة هو أثر للإبقاء على مسافة معينة عند الاتصال (لكي لا يحدث أي مظهر للانقطاع أو التوقف أو الفراغ الحكائي). مسافة نصية لنص مزدوج (الصورة والوصف، السرد والحكاية) يتكرر اللعبة المرجعية التي بواسطتها تجد اليوطوبيا بالذات مرجعيتها الخاصة، وتشكل كمرجعية مستقلة. ومن هنا يتحقق معنى المحكي الذي تخفيه «أحادية» اللوحة الوصفية. وهو المعنى الذي يرمز إلى «التركيب الغائب»، وإلى اشتغال سلمي على الحكاية، حيث يصبح التوتر

65 - Gérard GENETTE, Figures II, op. cit., p. 56.

انظر أيضا: د. حميد الحميداني، بنية النص السردِي، مرجع مذکور، ص. 78.

66 - Louis MARIN, Utopiques: Jeux d'espaces, Paris, Ed. Minuit, 1973, p. 82.

والتناقض محركا⁶⁷.

إن الدور المتزايد للوصف في بنية الخطاب الروائي لم يبدأ إلا مع القرن الثامن عشر، وأنه لم يبدأ «يتحول إلى هدف في حد ذاته ويصبح مستقلا عن السرد»، كما يؤكد ذلك بير زعما⁶⁸، إلا في القرن التاسع عشر، خصوصا مع فلوير وزولا. ومن ثم، يبدو من الصعب الحكم على أن كل عمل وصفي هو بالضرورة مفصول عن السيرورة الحكائية، نظريا وتاريخيا. ذلك أنه من السهل الحصول على نماذج عديدة في تاريخ الرواية لا يكون فيها الوصف سلبيا من وجهة النظر الزمنية. بل قد نجد الوصف في كثير من الروايات يعوض المحكي، يصبح هو نفسه محكيا: ثمة مثال واضح في روايات أندري بروتن، على نحو ما يوضح ذلك جان إيف تادي، حيث يتحرر السرد من إكراهات الحكاية والحكاية لكي تنتقل مغامرة الوصف «لتقيم في اللقاء بالمكان»⁶⁹ و«لكي لا يُوقَف إنتاج الصور الفضائية إلا مزاج الكاتب»⁷⁰.

نقصد أن تنسيب الرؤية الزمنية للوصف عموما، ولوصف الأمكنة على الخصوص، مطلب أساس في بناء نظرية إيجابية للكتابة الروائية. ذلك أن الوصف لا يشكل، مرة واحدة وإلى الأبد، وقفة سردية وحكاية مجرد أن الكاتب الواقعي في مرحلة من المراحل كان يستوقف حكايته كي يفتح «كوة للفرجة» ويوضع بالوصف «الإطار الفارغ الذي يحمله معه دائما»، بتعبير رولان بارت⁷¹. كما أن الوصف ليس وقفة، لسبب بسيط هو أن الوصف بمعناه الحقيقي (وصف للأشياء ووصف للأفعال) موزع على امتداد النص السردية كله، أي نص كان. إذ أن وجوه (صور) الخطاب الروائي تكاد تكون كلها «أوصافا متكررة، فكل مجاز، كل استعارة حتى، هي وصف موجز. ومن لا يجيد الوصف لا يجيد الكتابة. إن التخيل الشاعر يظهر بتعدد الصور؛ أن تصف، هو أن تصور (décrire c'est peindre)، هو أن تشكل صورا»⁷². وبهذا المعنى، وفي هذا السياق، يجدر التأكيد مرة

67 - Ibid., pp. 83 - 85.

68 - بير زعما، النقد الاجتماعي، ترجمة عابدة لطفي، مرجع المذكور، ص. 131.

69 - Jean Yves TADIE, *Le récit poétique*, Paris, Ed. PUF, 1978, p. 54.

70 - Ibid., p. 55.

71 - Roland BARTHES, *S/Z*, op. cit., p. 61.

72 - Francis WEY, in Philippe HAMON, *Introduction à l'analyse du descriptif*, Paris, Ed. Hachette, 1981, p. 25.

أخرى على أن الفضاء الروائي لا يمكن حصره في مشهد وصفي تقليدي إلا كمكان. فهو لا موضع له (Atopique) مبعوث في كل مناطق النص، محايث لبنية الكتابة ذاتها وليس كامنا فقط في معجم الكلمات والعلامات الفضائية أو في الأمكنة التي تعبرها الحكاية أو تشغلها طرائق السرد المختلفة.

وكما يلاحظ ميشيل ريمون M. Raimond، من خلال قراءات لنماذج في الرواية الأوروبية، فإن «الأوصاف التي لها رؤية للفضاء... لا تؤخر الفعل، بل تحتويه، تكون عنه الصورة الملموسة»⁷³. وبالرغم من أن ميشيل زيرافا - في المرجع نفسه - لا يؤكد على الفضاء كمكون مركزي في العنصر الروائي (Le romanesque)، فإنه مع ذلك يركز على أن هذا «العنصر»، وضمن تحديد أولي، يعني مجموع الأدوات المضمنة في العمل الروائي خلال قرون من طرف الروائيين، وأساسا بالنسبة إليه: الحكاية والشخصية، «لكن أيضا الوصف، الحوار، المقتضيات المختلفة للتعبير الزمني أو اللازمي، بدون أن ننسى الحيل التي يفضلها تشكل عقدة معينة»⁷⁴. وسنجد زيرافا يعود، بعد صفحتين، ليقبل - في حالة الرواية الجديدة - بأن يكون الفضاء أساسا للرواية شريطة الإبقاء على نوع من التقاطعات والعناصر والأشكال كأدوات، كموضوعات على أن يخضعها الكاتب في نفس الوقت للمساءلة، بحيث تصبح الشخصية التي كانت ذات شأن في عصور سابقة «علامة إجرائية»⁷⁵.

وواضح أن مثل هذا الترحيح في المنظور التقليدي باتجاه شرعة العناصر والمكونات «اللازمية» وجعلها من أسس العنصر الروائي ليس سهلا في تاريخ تطور النظرية السردية. ويتعين بالتالي النظر إلى الفضاء وإلى الوصف بالخصوص لا بوصفهما عنصرين للاستراحة الحكائية، وإنما كأساسين من أسس بناء عملية تحول المعنى في النص الروائي.

وما دنا بصدد الحديث عن الوصف، نرى - مع فيليب هامون - أن الوصف ليس أبدا هو وصف الواقعي، بل أساسا هو «ممارسة نصية»⁷⁶. ولعل ما طرأ على مفهوم الفضاء في تاريخ الخطاب الروائي وعلى نظرية الأدب هو نفسه، تقريبا، ما طرأ على مفهوم

73 - Michel RAIMOND, «L'expression de l'espace dans le nouveau roman», in *Postions et oppositions sur le roman contemporain*, op. cit., p. 182.

74 - Cité par Michel ZERFAFA, *Après le roman, le romanesque*, op. cit., p. 199.

75 - *Ibid.*, p. 201.

76 - Philippe HAMON, Introduction..., op. cit., p. 12.

الوصف من أسئلة ووظائف، وما جعله يتبدل ويتطور تقنيا وداليا⁷⁷، ودائما في أفق بناء المعنى. لكن، أي معنى بالذات؟ بطبيعة الحال، لا نتكلم هنا إلا عن المعنى الخلاق الذي ينسجه وصف خلاق، فضاء خلاق ولغة خلاقة.

لقد عدد فيليب هامون أنواعا عدة للوصف: كرونولوجيا (وصف الزمن)، طوبوغرافيا (وصف أمكنة ومشاهد)، بروجرافيا (Prosographie) (وصف المظهر الخارجي للشخصيات)، إيطوبيا (éthopée) (وصف كائنات متخيلة مجازية)، إلخ...⁷⁸، لكن جان ريكاردو يمحصر الوصف في أربعة أنواع استنادا إلى نوعية صلاتها بالمعنى:

«أؤخذ المعنى المسبق بالوصف؟ إن الوصف يغدو، إذن، توضيحا كاملا أو قابلا للجدل، ويترجح بين الحشو والعبث. أو يسبق الوصف معنى لا سبيل إلى دفعه؟ حينئذ يشكل الوصف مجرد نحو معنى. وهو يوجز كأشد ما يكون الإيجاز ويضرب صفحا عنه فور أدائه المعنى المقصود. أم هل يجري الوصف انطلاقا من معنى يظل نفسه مكتوما إلى الحد الذي يتجاوز فيه وضع الفرضية؟ الوصف، حينئذ، في تماسكه وعبوديته، وصف مبدع.

أم أن الوصف ينمو انطلاقا من التوجيهات الشكلية؟ الوصف حينئذ، وصف خلاق. إنه يخترع عالما بكل ما في العالم من تماسك، ويتزع إلى ابتعاث معنى يدخل معه في صراع...»⁷⁹.

لكن ريكاردو، وهو يميل إلى قيمة وأهمية ما يسميه بالوصف الخلاق في ابتعاث المعنى وتشكيله، لا يعتبر المعنى مع ذلك «المعيار الأوحده الاصطفائي الممكن»⁸⁰. ذلك لأنه ينطلق من نموذج الرواية الجديدة في فرنسا في صياغة تصوره، حيث تلعب توجيهات بناء الشكل الروائي دورا حاسما في تشغيل وتوظيف الوصف، وحيث «كل حضور دقيق

⁷⁷ - Ibid., p. 24, 40.

⁷⁸ - Ibid., p. 9 - 10.

⁷⁹ - جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة وتعليق: صياح الجيهم، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977، ص. 166.

⁸⁰ - نفسه، ص. 144.

للمعنى إنما هو حضور ناب»⁸¹. لنقل إن الأمر يتعلق في الحقيقة بوصف مفتوح، تماماً كما تحدثنا عن نوع من الفضاء المفتوح. نقصد هذا الوصف الذي يكون لا زمنياً بالقدر نفسه الذي يكون فيه زمنياً، إذا فهمنا الزمن بالمعنى الذي تعطيه له كريستيفا: «زمن المتعة»⁸²، حيث يمنحنا النص الروائي نصاً آخر: صمت المعنى. الصمت اللانهائي الذي يصبح فيه أي كلام عن سيرورة حكائية متوقفة أو عن تنوء أو غياب للوصف أمراً صغيراً للغاية.

اللانهاية؟ نعم، اللانهاية بما هو «الفعل الأصلي»، بتعبير نيتشه، ذلك لأنه «في الزمن اللانهائي والفضاء اللانهائي، ليس هناك من نهايات»⁸³.

81 - نفسه، ص. 143.

82 - انظر مقدمة المترجمين في كتاب: رولان بارت، *لسنة النص*، ترجمة فواد الصفا والحسين سحبان، الدار البيضاء، منشورات دار توبقال، الطبعة الأولى، 1988، ص. 6.

83 - Voir: Henri LEFEBVRE, *La production de l'espace, op. cit.*, p. 211.

الفصل الثالث

الفضاء المفتوح

أ. كيف نقرأ الفضاء؟

كيف نقرأ الفضاء؟ كيف ينبغي - بتعبير أدق - أن نقرأ الفضاء؟

ربما كان الأمر يتعلق في جوهره بسؤال أشمل: «كيف ينبغي أن نقرأ؟»، وبالتالي «ما هي شروط ومقاييس القراءة الجيدة؟» على نحو تساؤلات عبد الفتاح كيليطو البدئية في كل قراءة، لكن العميقة والمؤسسة في نفس الوقت، والتي تقوده إلى القول بأن «ما هو مسلم به اليوم هو أن القارئ يقرأ النص انطلاقاً من اهتمامات تخصه أو تخص الجماعة التي ينتمي إليها»². ومن ثم قصدية كل قراءة. قصدية القراءة التي نحاول أن ننجزها للفضاء، للفضاء الروائي بالخصوص، وبالأخص للفضاء الروائي لسحر خليفة.

ربما احتاجت هذه القراءة لبعض التدقيق، فنحن في الحقيقة لا نقرأ الفضاء³، بل نقرأ أشياء وموضوعات وهوامش وظلالاً ذات امتدادات وعلاقات فضائية في حقل سردي حكائي له خصوصيته وذاكرته وبنيته السيكلوجية والمعرفية، تماماً كما «لا نتلقى الزمن [بل] نتلقى أحداثاً لها ديمومة معينة، وتتلاحق في نظام معين»⁴. لكننا لاعتبارات تتعلق

1 - انظر: عبد الفتاح كيليطو، «مسألة القراءة»، ضمن كتاب المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، للعرودي، وكيليطو، والفاقي الفهري، والجابري، مرجع مذكور، ص. 19، وأيضاً: عبد الفتاح كيليطو، *الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي*، الدار البيضاء، دار توبقال، الطبعة الأولى، 1988، ص. 21.

2 - Cf., José MORAÏS, *La perception de l'espace et le temps*, in *L'espace et le temps aujourd'hui*, *op. cit.*, p. 150.

3 - *Ibid.*, p. 150.

4 - *Ibid.*, p. 150.

بالتبسيط والسهولة، وخضوعاً للعادة، نواصل حديثنا عن قراءة الفضاء وتلقي الزمن⁵ في النص الأدبي وفي الواقع.

وإذا كان كل نص يجـ «ينظم نوعاً من الاستراتيجية»، كما يقول لنا أيزر، يندرج ضمنها الفضاء وقد تكون في جوهرها وفي شموليتها استراتيجية فضاء بالذات، فإن هذه الاستراتيجية تحتاج بالتالي إلى أفق استراتيجي هو الذي ينجزه نوع من الاستراتيجية تنظمه القراءة. القراءة التي ينجزها قارئ يدخل «المجابهة» مع النص مسلحاً بـ «حاجاته، كفاءاته، معلوماته ونواياه» بتعبير أحد النقاد⁶. مجابهة ندخلها أيضاً كقراء «وفقاً لمصالحنا وثقافتنا، أي وفقاً لأفقنا بكل اختصار. وهذا ما سماه ياكوس في أعقاب كادامر «اندماج الآفاق»...»⁷. بمعنى أننا نتلقى النص هنا كي نشركه بعضاً من انشغالاتنا مثلما يأتي هو أيضاً إلى لقائنا محملاً بانشغالاته. ومن ثم يغدو السؤال: كيف نقرأ النص؟ سؤالاً آخر هو الذي طرحه إيش: «ما الذي يقوله النص لي وما الذي يمكن أن أقوله للنص؟»⁸. هكذا تتخلص القراءة من اهتماماتها التقنية الجامدة، وتمضي إلى عمقها الأنطولوجي، حيث تلامس «حركات وإيقاعات الأفكار والكلمات»⁹ وتجعل وظيفتها الأساسية في تحقق نوع من «الوعي بالذات والوعي بالنص في حركة يتداخل فيها الواحد مع الآخر دون أن يفقد مع ذلك استقلالته»¹⁰. إن القراءة لا قيمة لها إن كانت مجرد ابتلاع استهلاك وترديد لأفكار ونوايا النص وحده، بل إنها لا تستقيم ولا تتحقق فعلياً إلا من خلال تفاعلها مع الذات القارئة كما سيمر معنا فيما بعد.

نعم، للنص خصوصيته وتميزه، كما يوضح ذلك جيداً يوري لوتمان¹¹، لكنه لا يقرأ

5 - W., ISER, L'acte de lecture, op. cit., p. 161.

6 - ستينميز، ذكره إلرود إيش، «التلقي الأدبي»، ترجمة محمد برادة، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد السادس، خريف - شتاء 1992، ص. 23.

7 - ستاروبنسكي في تقديمه لكتاب هانس روبير ياكوس: *Pour une esthétique de la perception* (الترجمة الفرنسية)، انظر مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، مرجع سابق، ص. 45. (ترجمة محمد العمري).

8 - إلرود إيش، مرجع سابق، ص. 16.

9 - Georges POULET, in Qu'est-ce qu'un texte?, op. cit., p. 66.

10 - Ibid., p. 66 - 67.

11 - Iouri LOTMAN, La structure du texte artistique, op. cit., p. 55.

نفس القراءة بالنسبة لكل القراء، فهو يمنح لكل قارئ خبراً مختلفاً، كل حسب مستوى وطبيعة وطريقة فهمه وإدراكه. وهكذا، تصبح قراءتي للنص تحققاً لذاتي وتحليلاً لها. كأن النص كتب أصلاً ليحرك فقط نص النفس التي تقرأه، بل كأن الذي يتحدث «داخل» العمل المكتوب يتحدث أيضاً «داخل» الذات القارئة¹²، والحال أن هذا الذي يحدث - كما سنرى - لا يحدث إلا في المسافة القائمة بين الكتابة والقراءة، أي في الفضاء الذي يجمعهما. فضاء التفاعل. هنا، حيث تتبع القراءة «سبيل استجواب الذات»¹³ التي تقرأ واستجواب الذات التي كتبت كما فعل عدد من القراء الجيدين: رولان بارت، دي مان، ستانلي فيش، ف. أيزر، أمبرتو إيكو، عبد الفتاح كيليطو... وآخرون.

بهذا المعنى، ليست القراءة شيئاً معطى فقط بواسطة النص الذي نقرأه، بل هي فعل نبنيه ونعنيه عبر سفر جميل «لخيالنا العقلي»، بتعبير أحد الباحثين المغاربة¹⁴، نعيد نسجه عبر ذواتنا ونتيح له إمكانية حياة جديدة ومختلفة فينا، في أنفسنا وفي أجسادنا معاً. «إن النص المقروء من طرف القارئ يحيا ويتذوق. إنه نسيج، لكنه نسيج من مادة حية، متألعة، وربما مفكرة»¹⁵. بتدقيق أكثر، نحن نفتتح فضاء مكتوباً بوعينا كقراء، لكن الذي يحدث أن الوعي القارئ يجد نفسه مراقباً، محروساً بعناية ولطف لا وعي النص المكتوب. ومن ثم، لا بد من القارئ الذي يعطي للكتابة معنى. القارئ الجيد إذن ضروري لتشكيل النص وتمتمته، وإلا بقي مبتوراً وناقصاً. هكذا أوضح الأمر لنا أحدهم قائلاً: «الكلام هو نصف يقوله المتكلم ونصف يسمعه المستمع»¹⁶. بل، ربما، كانت قراءتنا في جوهرها استنتاجاً لصمت الكتابة. أن نخترق خطاباً له وضعه الاعتباري، له معناه ومعناه المتعدد، أن نفتتح شهية للكلام والتواصل، أن نكشف أسرارهِ وإضماراته ونغلاً فراغاته، وأن نتيح للقراءة - بتعبير ميشيل فوكو - فرصة «أن تقول في الأخير ما كان منطوقاً به بصمت هناك»¹⁷.

12 - وليم راي، المعنى الأدبي، م.م، ص. 76.

13 - المرجع السابق، ص. 208.

14 - انظر مناقشة عبد السلام بنعيد العالي لمداخل عبد الفتاح كيليطو، ضمن كتاب: النهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، م.م، ص. 39.

15 - Georges POULET, in Qu'est-ce qu'un texte?, op. cit., p. 65.

16 - Montaigne, in Michel ERMAN, L'œil de Proust, Paris, Ed. A. - G. NIZET, 1988, p. 122. «La parole est moitié à ce qui parle, moitié à celui qui écoute».

17 - ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة د. محمد سبيلا، بيروت، دار التنوير، الطبعة الأولى، 1984، ص. 19.

لكنها لا تقوله في حالة امتثال متبادل، بل لمة شك قائم ما بينهما. لمة أيضا «قوى متخصصة» لا يمكن التوفيق بينها إلا بخلق حالة «مجاهبة» أو حالة تنافس بين وعي القراءة ووعي الكتابة، اختراق لحميمة الكتابة، على نحو ما يؤكد موريس بلانشو¹⁸، لنحصل في النهاية على ما أصبحنا نعرفه ونردده ونسميه، اليوم، الفضاء الأدبي.

الكتابة تستدعي، إذن، القراءة¹⁹. إنها تستدعي التأويل بمعنى أوضح، والفضاء الذي تهويه لنا الكتابة يستلزم بهذا المعنى فضاء تهويه القراءة. هنا نفهم، بصيغة أخرى، ما قلناه في الفصل الأول بأن استراتيجية الفضاء هي استراتيجية كتابة واستراتيجية قراءة. وبالتالي، يصعب أن نوافق على الامتثال الذي يدفع بلانشو القراءة نحوه: «القراءة لا تخلق شيئا ولا تضيف شيئا. إنها تتيح الوجود لما هو موجود»²⁰. نعم. القراءة حرية لا تمنح الوجود ولا تأسره، وخاصة لما يتعلق الأمر بوجود وعي الكاتب في النص، أي ما أراد الكاتب أن يقوله، لكن حرية القراءة أكثر شساعة من ذلك. إنها تهتم بما لا يريد الكاتب قوله أيضا.

هكذا تكون القراءة التحاقا بنية الكاتب، التحاقا بعالم الكتابة كما هو مهيا أصلا لإعادة صوغ وإعادة نسج، وفق مشروطات التفاعل، وفي أفق يجعل القارئ «لامستهلكا للنص، بل منتجاً له»، حيث تنتفي العلائق التقليدية بين «الصانع والمستهمل، صاحب النص وزبونه، مؤلفه وقارئه»²¹، وحيث تتجه القراءة صوب هدفها مسترشدة بأفقها النظري والمعرفي، مستندة إلى ذاتها المؤسسة. إن الكتابة، من ثم، لا تتحقق «إلا لأنها تحمل في داخلها إمكانية القراءة والعكس صحيح أيضا. فالقارئ لا يستطيع أن يملأ بالمعنى المحدد إلا العمل الذي لا يكون محددًا تحديدا مطلقا»²². وهذا بالذات، ما يتيح لنا في كل قراءة فاعلة نوعا من الاستجابة المنتجة، نوعا من «الدمج النفسي» الذي «يسمح للمرء بأن يشعر بخيال النص كأنه خياله»²³. ألم يقل هنري جيمس، في هذا المعنى، بأن «كل مؤلف يمكن

18 - Maurice BLANCHOT, *L'espace littéraire*, Paris, Gallimard (Idées), 1955, p. 305.

19 - Edmond BARBOTIN, «Présumé et requêtes de l'acte de lire», in *Qu'est-ce qu'un texte?*, op. cit., p. 123.

20 - Maurice BLANCHOT, op. cit., p. 10.

21 - R. BARTHES, *S/Z*, op. cit., p. 10.

22 - انظر وليم راي، المعنى الأدبي، م.م، ص. 25.

23 - نفسه، ص. 75.

أن «يتكرر» قارئه بنفس الطريقة التي يتكرر بها شخصياته»²⁴. هذا معناه أن الكتابة وهي تنكتب تنجز ببنية مسبقة لقارئ مفترض، وبالتالي لمعنى محتمل كما يؤكد ذلك فولغباتغ أيزر في كتابه «القارئ المفترض»²⁵. معناه أيضا أن «القارئ المفترض شرط نصي وسيرورة لإنتاج المعنى»²⁶. وذلك من خلال تحقق المحتمل بواسطة عملية القراءة. إن النص المكتوب ينجزه الفاعل الفني وفق شروط ومتطلبات الفعل الفني، بما هو تجربة ومعرفة وتقنيات وأسلوب ومتخيل معين، لكنه يظل دلاليا فعلا ناقصا ما لم يتهيأ له فاعل جمالي ضروري هو بالذات فعل القراءة، بما هو معاناة للنص الأدبي ومظاهر الاستجابة له. «وينتج عن هذه الوضعية أن العمل الأدبي لا يكون مطابقا للنص، ولا لإنجازته، وإنما هو مكان وسط بينهما. فهو أكثر من النص، لأن هذا الأخير لا يغدو حيا إلا حينما تتحقق ملموسيته. كما أن تحقيق هذه الملموسية لا يوجد، بوجه من الوجوه، مستقلا عن الاستعداد الفردي للقارئ: إن تلاقي النص والقارئ هو ما يمنح الوجود للعمل الأدبي، غير أنه لا ينبغي إطلاقا لهذا التلاقي أن يغدو مرادفا لارتباط مقحم، بل يجب أن يظل احتماليا دائما بحيث لا يطابق بينه وبين واقع النص، ولا بينه وبين الاستعداد الفردي للقارئ»²⁷. وبالتالي، فالقراءة تصبح هي بالذات هذا المزج المعقد بين بنية النص وكيمياء الذات القارئة.

إن علاقة القارئ بالنص - ينبغي المزيد من التأكيد - هي علاقة مزدوجة: من النص إلى القارئ ومن القارئ إلى النص. هنا يتأسس الحوار والتبادل، وتبلور تلك الجدلية اللانهائية التي «تعمل على المحورين الزمني والفضائي»، حيث يكون النص متوفرا - بالضرورة - على استراتيجية ينبغي للقارئ أن يستثمرها لا لفهم النص، بل لبناء معناه المتعدد. واستراتيجية النص هذه هي التي تنظم في الحقيقة المنظورات المتعددة الممكنة للنص ذاته، وتأخذ على عاتقها دور تحفيز القارئ على المساهمة في بناء المعنى. أيضا، فإن «النص

24 - هنري جيمس، «قارة أدبية مجهولة»، عن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 109، 22 دجنبر 1985.

25 - انظر التقديم النقدي الذي أنجزه حول هذا الكتاب إبراهيم الخطيب، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 118، 23 فبراير 1986 - (صص. 4-6).

26 - نفسه، ص. 6.

27 - نفسه، ص. 4.

ينتج القراءة التي يستطيع إنتاجها، وهو لا يوجد إلا في قراءته»²⁸، كما يرى كريفل، ذلك لأن «النص هو أثره. أثره أو وقعه (L'effet) يحضنه، حيث تحكمه نية تنفيا نتيجة ما (...)» فالنص لا يتميز عن الأثر الذي يولد في ذاته»²⁹. من ثم، رأى ألتوسير أن الآثار لا يتعين أن تكون خارجية عن البنية، ولا أن تكون موضوعا، أو عنصرا أو فضاء موجودين قبلها لتأتي البنية كي تسجل عليهم رسم نوعها: بل العكس تماما، هذا يعني أن على البنية أن تكون محاطة لآثارها، [...] ليرتكز وجود البنية كله في آثارها. وباختصار، فإن البنية التي ليست إلا تنسيقا نوعيا لعناصرها الخاصة، لن تكون ذات قيمة خارج آثارها»³⁰. ويوضح كريفل هذا الرأي أكثر قائلا: «إن النص يحمل أثرا معينا، ويشغل الأثر وضعية راجحة (موجهة) مقارنة مع «المنطق الداخلي» للنص، والذي لا يكون أبدا وحده منظما ذاتيا، فالأثر هو إمكانية فهم النص»³¹.

تأسيسا على ذلك، وبما أن الفضاء ليس مجرد خريطة جغرافية، أي ليس نصا ترتيبيا غير ذي موضوع، إن استعرتنا تعبيرا ليوري لوتمان³²، فإنه يكون بدوره نتاجا لاشتغال تراكمي للدلالة، وذلك من حيث إنه كباقي العناصر التكوينية للخطاب الروائي يعيد القارئ بناء معناه ويشكل مظهرا من مظاهر نشاط القراءة.

وليس جديدا في هذا الإطار أن نعرف أن الفضاء الروائي يتحكم فيه فضاء القراءة. يقول ميشيل بيتور Butor: «إن مجموع العلائق الفضائية القائمة بين الشخصيات أو المغامرات التي تحكي لي لا تستطيع أن تصل إلي إلا بواسطة مسافة أخذها بالنسبة للمكان الذي يحيط بي. عندما أقرأ غرفة في رواية معينة، فإن الأثاث الموجود أمام عيني، وبدون أن أنظر إليه، يتنأى أمام الأثاث الذي ينبجس أو يرشح من العلامات المرسومة على الصفحة.

«إن هذا الكتاب (Volume) - كما يقال - الذي أمسكه بيدي، يحرر في ظل انتباهي إجماعات تفرض نفسها، ترتاد المكان الذي أوجد فيه، تغربني [تحمليني إلى مكان آخر]. هذا المكان الآخر لا يهمني، لا يمكنه أن يستقر إلا

28 - Charles CRIVEL, *Production de l'intérêt romanesque: un état du texte (1870 - 1880) (un essai de constitution de sa théorie)*, Ed. Mouton, 1973, p. 32

29 - *Ibid.*, p. 17.

30 - *Ibid.*, p. 20.

31 - *Ibid.*, p. 21.

32 - Iouri LOTMAN, *op. cit.*, p. 334.

بقدر ما لا يسعني المكان الذي أوجد فيه (...) إن المكان الروائي هو إذن تخصيص (Particularisation) «مكان آخر» تكميلي للمكان الواقعي الذي يستحضره»³³.

ليس فضاء القراءة، إذن، هو فضاء التفاعل الذي تنسجه قراءة السواد على البياض في النص الروائي، بل هو أيضا تضافر جملة من العناصر الأخرى لإسناد الخطاب التخيل. بما يسميه أيزر «الوضعية المرجعية» التي «تتبن»، بمشاركة القارئ، عبر تمثيل خاص للواقع وفي استقلال عنه في ذات الوقت»³⁴. هكذا باختصار يمكن القول بأن كل قراءة للفضاء الروائي هي، بمعنى ما، قراءة للنص الروائي بكل مشروطاته. وبالتالي، أن نقرأ الفضاء الروائي هو أن نضبط عناصر وضعيته المرجعية: السجل، الاستراتيجية، مستويات المعنى، مواقع اللاتحديد³⁵، كما لو كنا نقرأ النص كاملا.

بهذا المعنى، يمكننا أن نتحدث عن سجل الفضاء الروائي في رواية معينة أو في متن روائي معين لا عن سجل رواية أو روايات فقط. ويمكننا أن نفعل نفس الأمر بالنسبة لباقي المفاهيم، فننتحدث عن استراتيجية الفضاء، عن مستويات المعنى الفضائي وعن مستويات اللاتحديد كما يمكن أن تتيحها لنا قراءة المقاطع المؤشرة إلى حضور فضاءات في النص الروائي المدروس. عملية إجرائية في الحقيقة طموحها أن تطوع منهجية للقراءة تبدو، في أصلها وفي جوهرها، مرنة جدا، خصوصا حينما نكون مقتنعين بأن مشاركة القارئ للنص في تركيب المعنى «تقتضي ككل مشاركة مراعاة مصلحة الجانبين، أي مصلحة النص ومصلحة القارئ. ينتج عن هذا شيء لا بد من ذكره، وهو أن القارئ يمكنه أن يكون وفيما تماما للنص، كما أن النص لا يمكن أن يكون وفيما تماما للقارئ. بعبارة أخرى: القارئ لا يقرب من النص وهو أعزل خالي الوفاض، فللقارئ اهتمامه وتنظيمه الفكري، وحتى لو

33 - Michel BUTOR, *Répertoire II*, op. cit., p. 43.

34 - انظر: عبد العزيز طليمات، «الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند فولفغانغ إيزر»، دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 6، خريف - شتاء 1992، ص. 58.

35 - نفسه، صص. 58 - 62. ونشير إلى أننا سنستدشد بهذه الدراسة الجيدة في توظيف إجرائي لمفاهيم إيزر المشار إليها في تتبع وتشغيل المفهوم المركزي لبحثنا (الفضاء)، استنادا بطبيعة الحال إلى مؤلف إيزر *L'acte de lecture* واعتمادا على طموح وروح المغامرة التي تقتضيها سيرورة البحث نفسه.

شاء فإنه لا يستطيع أن يتخلى عن هذا التنظيم، والنص بدوره له تنظيمه الفكري، ويأبى الخضوع للقارئ. لذلك يقع أخذ ورد بين الطرفين، أي تقع مساومة، والنتيجة التي لا مناص منها لهذا الجدال الدقيق هي أنه يقع تحويل مزدوج: التحويل الأول: تحويل المنهج المتبع لكي يلائم النص، التحويل الثاني: تحويل النص لكي يلائم المنهج»³⁶. ولأن الأستاذ عبد الفتاح كيليطو يعرف أن طرحا كهذا الطرح المنهجي قد يبدو للبعض متسرعاً أو قابلاً للاستنكار، مع أنه نجح هو شخصياً في تطبيقه وأعطى نتائج هامة في دراساته وأبحاثه، فإنه يسارع إلى مزيد من التوضيح قائلاً: «قد تبدو لكم هذه النتيجة مستكبرة، خصوصاً القسم المتعلق منها بالنص الذي يتم تحويله، كيف يستساغ أن يحور النص؟ ومع ذلك، فكيفما كانت القراءة، فإن هذا التحويل يحدث لا محالة، سواء كانت القراءة تقليدية أو حديثة، ولن يجادل في هذه النقطة إلا معاند. طبيعة العلاقة بين المحلل والنص هي التي تقتضي وتحتّم هذا التحويل»³⁷.

أضف إلى ذلك أنه - كما يذهب إلى ذلك الدكتور محمد مفتاح - «ليس مشروطاً على كل نظرية أن تجيب عن كل إشكاليات يطرحها النص يكفي أن تجيب عن نقطة أخرى أو تقترح نظرية مغايرة... فعلى هذا الأساس، المهم هو أن تكون أعمالنا قادرة على تسليط بعض الأضواء على الزوايا المعتمة التي لم تضأ من قبل»³⁸. لكننا مع ذلك نبقى أكثر حرصاً على استيعاء المعطيات الأساسية لنظرية القراءة، لإستيقا القراءة بالأخص، صاعدين إلى تجسيد عمقها الفلسفي الظاهراتي من حيث إن «نظريات الظاهراتية في القراءة أكثر أناقة من غيرها لأنها تضم الفعل والبنية في إطار فكرة واحدة، وهي القصد. القصد لايعني مرادف للرغبة التي يعبر عنها القارئ أو «لما أراد أن يقوله المؤلف»³⁹، بل كمحدد لفعل الوعي وبنيته على أساس مبدأ القصدية.

وإذا كان اجتهد إيزر في كتابه المشار إليه هو الرحم النظري لقراءتنا، فالحق أن

36 - عبد الفتاح كيليطو، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الإصحراكي، العدد 66، الأحد 24 فبراير 1985، ص. 6.

37 - نفسه، الصفحة نفسها.

38 - د. محمد مفتاح. انظر الحوار الذي أجرته معه مجلة آفاق (الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب)، العدد 1، السلسلة الجديدة، 1990، ص. 164.

39 - انظر وليم راي، المعنى الأدبي، م.م، ص. 17.

«النسق النظري و - ضمنيا - ترسّانة الاصطلاحية لا يوجدان إلا بارتباط مع الموضوع. تماما كما لا يمكن أن يكون ثمة من وجود للموضوع خارج الإشكالية والمجموع الاصطلاحي النسيبي هنا»⁴⁰. وتنتج القراءة في هذا الأفق المنهجي إذا أتيت لها أن تستند إلى تلك الروح الشعرية للعمل الأدبي التي تحدث عنها أمبرتو إيكو. الشعرية لا بوصفها «قانونا مطلقا»، بل باعتبارها «البرنامج الإجمالي» الذي ينويه المبدع في كل عمل أدبي قيد الإنجاز، ومقتضاه يضمن عمله وجملة من المعاني البنيوية والتكوينية تسمح بـ«تسلسل التأويلات» وتعاقب «نمو المنظورات»⁴¹. ويلتقي إيكو مع إيزر في هذا المنحز النظري المؤسس لعملية القراءة، وخصوصا حينما يؤكد إيكو بدوره على أهمية وضرورة أن يدخل النص في قواعد لعبه «فضاءات بيضاء» تستلزم استراتيجية معينة للكتابة يكون بإمكانها أن تتيح للقارئ بالفعل المساهمة في القيام بدوره التأويلي على أكمل وجه. استراتيجية ليست في النهاية إلا عملية دقيقة «لاختيار معجم الأسلوب» لا تفتأ تجد لها «القارئ النموذجي» الذي يصفه إيكو بكونه «القادر عبر الزمن على تفعيل أكبر قدر من القراءات المتقاطعة»⁴². ومن ثم، طور إيكو - جنبا إلى جنب مع إيزر وبواس وبارت وآخرين - مفهوم القراءة المفتوحة أو ما يسميه هو «الأثر المفتوح» *L'œuvre ouverte*، حيث إلى جانب كون النص نسيجاً، من الأقوال الشفوية أو المكتوبة مثلما من تعدد مناطق المسكوت عنه، ركز بالأساس على أهمية الإمساك بالنص من تحت «من مستوى القراءة نفسها» مقللاً من أهمية الانشغال بالنص من فوق «على مستوى قواعد الانفتاح» كما يفعل غريماش وتلامذته مثلاً⁴³. وهكذا يصبح جوهر دراستنا هو البحث في نوع من «الفضاء المفتوح»، لاعمناه المعماري، بل من زاوية قابلية الفضاءات الروائية للكاتبة الفلسطينية سحر خليفة للقراءة من حيث تكون القراءة تعاوناً في صوغ المعنى الفضائي بين الطرف الفني (المنتج) والطرف الجمالي (المتلقي)، ومن حيث يصبح الفضاء المفتوح في قراءتنا هذه الفضاء الذي تنتجه البنى النصية وطبيعة الاستجابة من جانبنا كقارئ فرد ربما، لكنه قارئ يعبر عن جماعة تأويلية معينة. لنقل إننا بصدد القارئ غير المتنفخ باقتناع تحقق «الصفاء العلمي» في

40 - Steffen NORDAHL LUND, *L'aventure du signifiant (une lecture de Barthes)*, Paris, Ed. PUF, 1981, p. 21.

41 - Umberto ECO, *L'œuvre ouverte*, op. cit., p. 10.

42 - Jules GRITTI, *Umberto Eco*, Paris, Ed. Universitaires, 1991, p. 34 - 35.

43 - *Ibid.*, p. 34.

قراءته، بل إننا بمعنى آخر بصدد «قراءة مرحلة»، كما يسميها نيتشه، تنهض على أساس الاستراتيجيات النصية وتولي الاعتبار الأقصى للتجربة الشخصية ولحقل الوعي الذاتي للقارئ في إنتاج المعنى، معنى الفضاء وبالتالي معنى النص الروائي.

II. الفضاء ورحم المعنى

عندما سئل الحكيم، في قصة شرقية شائعة، عن معنى الحياة، أجاب: «الحياة نافورة». ولما سئل من جديد: «ولماذا هي نافورة؟» رد قائلا: «وإن شئت، فهي ليست نافورة». هكذا يبنى المعنى، معنى الأشياء ومعنى الكتابة. إنه «اليقين الملقوف بالشك»⁴⁴ فعلا. الإمكانية المفتوحة لكي نمنح لابتكارات المتخيل جوهرًا دلاليًا حتى تصبح قابلة للتمثل والاستيعاب والتلذذ.

لذلك، لا يمكن للفضاء الروائي كتجلٍ لتشييد معين للتخيل أن يكون بلا معنى. وقد سبق لهنري لوفيفر أن كتب أن «الفضاء لم يكن أبداً فارغاً، بل تكون له دلالة على الدوام»⁴⁵. لا يمكن للفضاء أن يكون مجرد مكون مرمرى في مساحات النص الروائي بلا معنى. كل شيء، كل مكون في الخطاب الروائي له معنى ويتعين أن يكون له معنى. ليس هذا في حقل الكتابة الأدبية فقط، بل لربما في الوجود الإنساني كله. حتى إذا كان هناك شيء بلا معنى، فإن علينا أن نبتكره له، وإلا فلن تكون الإنسانية جديرة بإنسانيتها على نحو ما أوضحه بارت⁴⁶.

وقد يكون البحث في معنى الفضاء مفيداً في محاولات التقريب بين النص الأدبي والعمل التصويري (pictural)، وهذا ليس مجال انشغالنا في البحث الحالي، لكنه - وهو مسائل طبيعة ووظيفة المعنى الأدبي من خلال معنى الفضاء في الكتابة الروائية أساساً - يمكنه أن يطوع بعض المعطيات النظرية لفن التصوير (Peinture) لتشغيلها في القراءة الأدبية وفي محاولة الإمساك بحقيقة الكتابة، وذلك لمعرفتنا أن «المعنى ممتزج بالحقيقة» وأن «الدلالة هي سبيل الحقيقة»⁴⁷.

44 - عن قراءة في فكر وتجربة بيتر بروك (عبد الواحد عوزري)، انظر: الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 113، 19 يناير 1986.

45 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, op. cit., p. 180.

46 - Roland BARTHES, cité par Gérard GENETTE, Figures I, op. cit., p. 194.

47 - Roland BARTHES, S/Z, op. cit., p. 68.

ربما كان من المحال أن نتصور - كما أكد ليفي شتراوس في إحدى محاضراته - «معنى ما دون نظام»⁴⁸، وبالتالي فمن إكراهات نظام الفضاء بالذات أن معنى الفضاء يصعب اجتزاؤه من معنى الزمن، ذلك لأنهما معا يشكلان «حوضا دلاليا»⁴⁹. ومن ثم، فإن كل اختراق لحقل المعنى لن يتم إلا بالمرور عبر فهم وتحليل الفضاء والزمن في تداخلهما الجوهرى العميق من حيث إنهما المركز المستقطب لكل العناصر السردية والحكاية في الخطاب الروائي. وكما نبه باختين إلى ذلك، فإن هذا الاختراق يمر على الأرجح عبر باب «الكرونوتوبات»⁵⁰. الكرونوتوب كفضاء رمزي، كبعد من الأبعاد الفلسفية في الكتابة الروائية، وربما كأحد مميزاتها التحنيسية. لكن اعتبارات التنسيب في كل بحث تستدعي، على كل حال، عملا إجرائيا بما قد يقتضيه من فصل وأولويات.

ولأن الدلالة تمثل «أثر التكوين البنيوي» لكل نص⁵¹، فإن تحليل الفضاء، تحليل معنى الفضاء، يمنحنا منفذا للإمساك بالدلالة الشاملة للعمل الروائي⁵². ولذلك فإن هذا الحدث القائم «بين الكلمات وفي عقل القارئ»⁵³ هذا الشيء الهش الذي نسميه «المعنى» ورغم كل الأهمية التي قد نعطيها له فإنه ليس مطلقا، فهو محكوم بمعايير العقل والحقيقة، وبالتالي فإن ما نتصوره «واقعية المعنى»، بتعبير إدمون باربوتان، يشكل نقطة اختلافاتنا مثلما قد يشكل نقطة تلاقياتنا⁵³. وبهذه الكيفية، فإنه يصعب أن يتفق معنى أدبي معين مع قصد واحد. وبالتالي، لذلك تشكل الأعمال الأدبية «نوعا من الشك»⁵⁴. فهل لذلك أيضا بدا لجورج بيريك - كما مر معنا - أن الفضاء شك؟

لذلك - فيما نتصور أيضا - ألح دريدا في نسقه الفكري التفكيكي على أن «هوية

48 - كلود ليفي شتراوس، *الأسطورة والمعنى*، ترجمة صبحي حديدي، الدار البيضاء، منشورات عيون المقالات، الطبعة الثانية، 1986، ص. 14.

49 - نستعير هذا التعبير الاصطلاحي من جليبير ديران، عن كتاب محمد سبيلا، *حوارات في الفكر المعاصر*، الرباط، مؤسسة البيادر للنشر، الطبعة الأولى، 1991، ص. 192.

50 - M., BAKHTINE, *Esthétique et théorie du roman*, Paris, Ed. Gallimard, 1978, p. 398.

51 - Charles CRIVEL, *Op. cit.*, p. 54.

52 - Jean WEISGERBER, *L'espace romanesque*, *op. cit.*, p. 228.

53 - Edmond BARBOTIN, in *Qu'est-ce qu'un texte?*, *op. cit.*, pp. 146 - 149.

54 - وليم راي، المعنى الأدبي، م.م، ص. 23.

المعنى ضمن الاختلاف» تتمثل في تعريفه، حتى أن إمكانية معانيه «الأخرى»، في أماكن أخرى وأزمنة أخرى تصبح شرط هوية المعنى والآفاق التي يستند إليها المعنى وتظهر فضائيا في لغة النظريات التفسيرية للظواهراتية لا بد أن يعاد التفكير فيها وتعد جزءا من التيمة. فالظروف الخارجية إنما هي داخل المعنى ولا يمكن أن يعني المعنى إلا بفضل الخارج: «الآخر» الذي يحتويه بوصفه إمكانية القيام بوظيفته»⁵⁵. معناه أيضا أن سؤالنا: كيف يكون للفضاء الروائي معنى؟ يجد جوابه لا فحسب في هويته المزدوجة: بوصفه «معنى» تصوغه الكتابة وتعيد القراءة تشييده، ولكن أيضا في تعدد واختلاف كل تشييد جديد في تاريخ تطور وتراكم قرائه.

ولأن المعنى، معنى الفضاء ومعنى غيره من مكونات الخطاب الروائي، مضمّر على الدوام، «واضح في صمت» بتعبير ميرلوبونتي⁵⁶، فإنه يصعب في ظل تلاحق القراءات والاستعمالات والتأويلات، أي بحمل أشكال وصيغ التشييد، أن يحافظ النص الروائي (الأدبي عموما) على تجانس حقله الدلالي حتى وإن ظل تماسكه البنيوي قائما. ولعل أحد أبرز شروط شعريته أن يبقى «احتياطيا دلاليا قابل للنفاذ»⁵⁷.

هكذا يمكن أن يكون معنى الفضاء الروائي أحد أكبر الإشكالات المطروحة في الحقل النظري والنقدي مما يطرح صعوبات ومشاكل عدة بالنسبة للباحث في الموضوع. لذلك، ليست هناك من إمكانية للإمساك بمعنى الفضاء واختراقه إلا من خلال تركيبه. «المعنى يجب تركيبه - يقول كيليطو - وهنا تظهر العلاقة الحميمة بين القارئ والنص، كلاهما يشترك في تركيب المعنى. لولا هذه المشاركة لما برز المعنى، مع العلم أن المعنى ليس سوى إمكانية لا تنفي وجود إمكانيات أخرى»⁵⁸. وإذن، كيف تمكن قراءة المعنى، روح النص؟ طبعاً، كما يقترح علينا بارت، بالإسهام في وقائع النص، وذلك لكي يغدو القارئ قادراً على خلق سياقات مؤلفة ومختلفة، وعلى نحو تصبح معه كل قراءة بمثابة تحد كبير لذاكرة القارئ»⁵⁹.

55 - نفسه، ص. 161.

56 - MERLEAU PONTY, *Le visible et l'invisible*, op. cit., p. 267.

57 - - Umberto ECO, *L'œuvre ouverte*, op. cit., p. 23.

58 - عيد الفتاح كيليطو، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، م.م.

59 - إديث كيروزيل، عصر البنيوية، من ليفي شراوس إلى فوكو، مرجع المذكور، ص.

واسترشادا ببارت أيضا، يمكننا أن نقول إن قراءة الفضاء معناها أن نجد (نوجد) معاني الفضاء «وأن نجد المعاني، هو أن نسميها»⁶⁰. هكذا تصبح قراءتنا نوعا من التحقق اللغوي لـ «أنا»نا القارئة. علينا ألا ننسى أن الفضاء ليس مصنوعا من أحجار أو من طوب، بل هو تشييد لغوي. فلا معنى خارج اللغة. هكذا، إذن يغدو الوضع: أن أقرأ الفضاء هو أن أسهم في بناء معناه. أعيد تكوينه. لكنني، وأنا بصدد هذا التكوين، في نفس الوقت يكونني النص بدوره. «كتابة نص القراءة»⁶¹ من هنا خطورة الكتابة كما يحددها ديريدا: «لا تعقل بمنعها من هذا الاستعجال الجوهرى في اتجاه المعنى الذي تؤسسه هي، والذي هو مستقبلها أولا»⁶². يتوقف ديريدا عند أهمية التواصل بين الكتابة والقراءة في نسج المعنى والتحريض على نهوضه، ومن ثم يرى «أن على المعنى أن ينتظر أن يقال وأن يكتب، حتى يسكن نفسه ويصبح ما يكون باختلافه عن نفسه، أي المعنى (...). بهذا يستعيد الفعل الأدبي قدرته الحقيقية في منبعه وفي أصله»⁶³. نستنتج من ذلك أن الفضاء أو أي مكون روائي آخر لا يمكنه أن يبقى ساكنا، جامدا بدون أن يعرض نفسه للدور التوليدي العجيب الذي تنجزه سيرورتان (إحدهما على الأقل): «سيرورة الاستنبات» (Germination) و«سيرورة التفكيك» (Destruction) - بتعبير هنري ميزران في تقديمه لكتاب دونسي برتران⁶⁴. وهما سيرورتان تمنحان لحقل القراءة إمكانيات تأويلية كثيرة، وذلك بإبقائهما على النص مفتوحا وموهلا باستمرار لإنتاج أسباب المتعة الجمالية.

إن سيرورة الاستنبات، بما هي تعبير عن دينامية النص الداخلية وعن توفره مسبقا على أرضية مشعة بالمعاني الكامنة، وسيرورة التفكيك، بما هي تنمية متواترة لمناطق التوتر وعملية مقابلة بين القوى الذاتية المتخاصمة بين ثنايا النص، تجعلان من كل نص أدبي، من كل مكوناته، خزاناً ولوداً للمعنى: كل قارئ يؤسس معناه الخاص. كل تاريخ جديد يأتي لا يستغند الاحتياطي الدلالي للنص. وفي هذا المنحى كتب بارت يقول:

«إن كل عصر يمكن أن يعتقد فعلاً بأنه يمتلك المعنى الأصولي للأثر، لكن يكفي أن يُوسَّع التاريخ قليلاً حتى يتحول هذا المعنى المفرد إلى معنى جمع.

60 - R., BARTHES, S/Z, *op. cit.*, p. 17.

61 - Steffen NORDHAL LUND, L'aventure du signifiant..., *op. cit.*, p. 91.

62 - جاك ديريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، م.م، ص. 143.

63 - نفسه، ص. 142.

64 - Henri MITTERAND, in *L'espace et le sens*, *Op. cit.*, p. 11.

والأثر المخلق إلى أثر مفتوح. إن تعريف الأثر الأدبي ذاته يتغير: فهو لم يعد واقعة تاريخية وإنما أصبح واقعة أنثروبولوجية نظرا لأن أي تاريخ لا يستفده. كما أن تنوع المعاني لا يترتب عن نظرية نسبية إلى العادات الإنسانية، ولا يدل على ميل المجتمع إلى الخطأ وإنما يدل على استعداد الأثر الأدبي للانفتاح. وكون الأثر يمتلك في وقت واحد معاني متعددة، فذلك ناتج عن بنيته، وليس عن عطب في عقول من يقرؤونه»⁶⁵.

لذلك، فإننا لن نجد لدينا قراء أية إمكانية للمفارقة والتعارض في أن نعتبر «المعنى على أنه مرتبط بالتاريخ يتحكم به قصد معين في لحظة معينة» وأن نعتبر في ذات الوقت «حقيقة ثابتة للنص، تتجسم في كلمة أو مجموعة من الكلمات يتجاوز معناها قصدا معنا ويمكن أن يفهمها في بنيتها كل فرد يحسن تلك اللغة»⁶⁶. ومن ثم، فالفضاء كما نفهمه يقدم نفسه للقراءة من خلال تقديم النص نفسه فتشتغل عليه سيرورة الاستنبات، كما أننا نسعى لنعثر عليه مندسا هنا أو هناك، كما في هذه المنطقة من النص أو تلك، فنقوم بتقطيعه بالفعل أو بكيفية ذهنية مجردة - ونخضعه لسيرورة تفكيك. وذلك في اتجاه الارتقاء بمعنى الفضاء إلى مستوى الصياغة العامة للمعنى الكلي للنص، كصيغة للقراءة البارتيية التي تضع طبقات عمودية للمعنى، يقوم فيها كل تركيب من تراكيب المعنى بوظيفة الوحدة البسيطة للمعنى في تركيب المستوى الأعلى منه»⁶⁷. قراءة عمودية تبقى ضرورية للقيام بما وصفه جان بيير ريشار بـ«نقد الأعماق»⁶⁸، حيث يتم الكشف، عبر أعماق النص، عن أعماق الذات والذات القارة في نفس الآن.

III. أفق التقطيع: شذرات الفضاء

ربما كان من البديهي اليوم التأكيد على أن النص (الروائي أو غيره)، بطبيعته الأدبية واللغوية. وبقوة بنيته وتكوينه، لا يمكنه أن يكون مجموعا متجانسا ولا يمكن معه كذلك،

65 - رولان بارت، *النقد والحقيقة*، ترجمة إبراهيم الخطيب (مراجعة محمد برادة)، الرباط، مؤسسة سمير، الطبعة الأولى، 1985، ص. 54 - 55.

66 - المعنى الأدبي، م.م، ص. 10.

67 - نفسه، ص. 194.

68 - Michel COLLOT, «Thématique et psychanalyse», in *Territoires de l'imaginaire (pour Jean Pierre Richard)*, Paris, Ed. Seuil, 1986, p. 214.

وهذا ما يؤكد ديريديا من خلال تجربته على الأقل: «ليس هناك من نص متجانس. هناك في كل نص، حتى في النصوص الميتافيزيقية الأكثر تقليدية، قوى عمل في الوقت نفسه قوى تفكيك للنص. هناك دائما إمكانية لأن تجدد في النص المدروس نفسه ما يساعد على استنطاقه وجعله يتفكك بنفسه»⁶⁹. لذلك، تبدأ عملية تشكيل المعنى بتقطيع النص في الاتجاه الذي يصبح معه ممكنا أن نحدد كيف تتراكم مكونات النص الروائي بالنسبة لحضور الفضاء هنا أو هناك بوصفه مكونا بدوره، وبالتالي كيف يحكم أحد هذه المكونات مكونا آخر، كيف يقابله، كيف يعاكسه أو يراوغه أو يناقضه. ومن ثم، يغدو الإمساك بالمعنى عبر مجاري الفضاء خاضعا لما أسماه دوني برتران Denis Bertrand بـ «الخط الموجه» أو «التيار الهادي» (Le courant conducteur)⁷⁰ الذي لحم مختلف مستويات المعنى المتراكمة في النص والموزعة على شذرات ومقاطع متعددة.

نعرف أن الفضاء، أن معنى الفضاء لن يقدم لنا نفسه بسهولة أو يعرض مؤشرات في هذه المنطقة أو تلك من الخطاب الروائي بوضوح، وخصوصا لما نتصور أن فضاء النص في الحقيقة هو النص ذاته. لكن كما أكدت تجربة أمبرتو إيكو، فالمرء «لا يستطيع أن يصف الميدان بأكمله لنص معين: فكل وحدة للمعنى يمكنها أن ترتبط بوحدات أخرى للمعنى عن طريق سلسلة لانهاية لها من التأويلات»⁷¹، والقارئ - الدارس - وهو يقوم بقراءته ملزم بإتخاذ عملية عزل للمقاطع التي يعتبرها أكثر امتلاء بالدلالة وفق متطلبات ونوايا دراسته، وبالتالي - وحسب مثال يقدمه إيكو ويسوقه صاحب «المعنى الأدبي»⁷² - فإن المفردة المعجمية «الرجل»، مثلا، تصاحبها صفات تشريحية معينة يمكن للقارئ أن «يضخمها» أو «يخدرها» بحسب صلتها بالموضوع. فإذا كان الرجل يركض، فإنه يضخم صفة امتلاكه رجلين، في حين يخدر صفة امتلاكه البنكرياس (مثلا). وهكذا فإن نهج القراءة السليم على نحو ما نلجده في نظرية إيكو أو إيزر يمنح لكل مكون قيمته الدلالية ومقدراته التأويلية، وبالتالي فليست هناك من مقاطع متسكة، بل كل مقاطع تتعاقب في النص يتطور ويتبلور معناها في أفق باقي المقاطع التي تسبقه أو تتبعه أو تجاوره. «المهم - بتعبير إيكو - أن نتذكر

69 - ديريديا، الكتابة والاختلاف، م.م، ص. 49.

70 - Denis BERTRAND, L'espace et le sens, op. cit., p. 189.

71 - انظر: المعنى الأدبي، م.م، ص. 148.

72 - نفسه، ص. 148.

أنا لا نلاحظ أية مرحلة «تُبْنَد فيها» الموضوع»⁷³.

لذلك نقترح قراءة شخصية تكون - إذا صح التعبير - عبارة عن قراءة فضائية حتى ولو كانت الكتابة الروائية التي ندرسها - هنا والآن - زمنية بالمعنى الذي حددناه مع ليسينغ في فصل سابق. وهي قراءة نحاول أن تجاوز مقاطع تختلف سياقاتها في أفق الحصول على وحدات قراءة، خصوصاً لما نعلم أن الكتابة الروائية في الأصل تكتب جزءاً بعد جزء، مقطعا بعد مقطع، ولا يوجد هنالك نص روائي «كلياً بجميع أجزائه»⁷⁴. معناه أننا مضطرون دائماً لكي نتعامل مع النص الواحد كمتعدد، كشذرات حاملة للمعنى.

في هذا المنحى أيضاً يقول الروائي الإيطالي إيطالو كالفينو: «إن القراءة ميكانيزم [إوالية] تستدعي استحضار الذهن والبصر أكثر مما هي تمرين بصري. كما أنها مسار تجريدي أو أكثر تحديداً طريقة لاستخراج العناصر الملموسة من عمليات مجردة كالاعتراف على العلامات الفريدة وتفكيك ما نراه إلى عناصر صغيرة وتجميعها في مشاهد دالة وتلمس في كل ما يحيط بنا: التوترات والاختلافات والاستثناءات والتكرارات»⁷⁵. قراءة يوطرها حس فضائي واضح، قد يهمل المقاطع ذات الهشاشة الدلالية ويتقدم بالمقاطع الخلفية إلى مقدمة المشهد لجعلها أكثر تنوعاً وأكثر تعبيراً.

إن المقطع (Le morceau) أو الشذرة (Le fragment) التي يتم اجتزاؤها من امتداد النص الروائي، من حيث هي تشخيص لفضاء معين، لها بلاغتها وقوتها الدلالية. الشذرات (المقاطع) محركات داخلية للكتابة ومنطلقات أساسية لكل قراءة. نفهم ذلك في ضوء الطابع التركيبي لمفهوم الفضاء باعتباره محددًا بعلاقته مع باقي المفاهيم الأخرى داخل الخطاب الروائي، وأيضاً من حيث طابعه الدينامي كمفهوم متحرك وفاعل داخل الخطاب، كمنتج للمعنى.

ولعل تقطيع النص، تشذيبه، هو ما يتيح للقارئ الإمساك بطبيعة العلائق والتوترات في كل نص أو في مجموعة نصوص للكاتب الواحد. هكذا يكون كل نص عطوباً: ما يكونه هو ما يهدده دائماً. ما يلازم نسق تكوينه يؤسس شروط تفكيكه وإعادة إنتاجه في

73 - نفسه، ص. 155.

74 - نفسه، ص. 29.

75 - إيطالو كالفينو، «المكسب واللامكسب، هندسة العالم في كلمات»، ترجمة مبارك الشنتوني، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الإشرافي، العدد 92، 24 غشت 1985.

نفس الوقت. وهذه القابلية «للعطب» هي التي ترفع من إمكانيات الإخبار الدلالي في الكتابة الأدبية، هي التي تمنحنا كقراء شيئا للتفكير. تمنحنا، بتعبير أدق، حصتنا في التفكير.

ويتيح تقطيع النص أيضا طريقة لكي نجعل موضوع بحثنا أكثر مرئية، لكي يصبح الفضاء أكثر عراء. لنقل إنه يتيح لنا أن نقرأ النص الضمني للنص الذي يقدم نفسه للقراءة. أن نقرأ رواية داخل الرواية كما يرسم الرسام لوحة داخل اللوحة، لوحة على جدار في غرفة تشهد سيرورة حكاية معينة.

إن النص الروائي الطويل قد لا يبدو طويلا إلا لمن لا تهمة فيه إلا الحكاية، حبكتها ونهايتها. أما من تهمة الكتابة وكيميائوها المعقدة فإنه في كل نص روائي يجد خيطا من الانقطاعات واللمحظات وحالات الدفق الروحي. وقد أصبحنا نرى في عدد من نماذج الرواية العالمية المعاصرة تجارب ناجحة في كتابة روائية واعية بقيمة وشعيرة بناء النص الطويل على أساس شذري خفي: روايات الإيطالي إيطالو كالفينو وخاصة «مدن لامرئية»⁷⁶، النمساوي بيتر هاندكه وخاصة في روايته «المرأة العسراء»⁷⁷، والألماني هرمان هيسه وخاصة في عمله الجميل والأقل شهرة «تحوال»⁷⁸، حيث هناك دائما هاجس تكثيف رواية في صفحة، تكثيف صفحة في جملة، وتكثيف الجملة في كلمة: «أحيانا ننجح في أن نسريخ في لحظة، ثم يولد - ولا يهم أين - فضاء معين»، يقول بيتر هاندكه⁷⁹. أن ينبجس الفضاء في عمق الزمن ذاته. أن يظهر الفضاء في المقطع الذي لا تنتظره فيه. وأتصور أنه لو لم تكن الكتابة الروائية تواصلًا سرديًا مركبا من مقاطع لما كانت ستيح للقارئ ما

76 - إيطالو كالفينو، مدن لامرئية، ترجمة ياسين طه حافظ، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 1987.

77 - بيتر هاندكه، المرأة العسراء، ترجمة: ماري طوق، بيروت، دار الآداب، الطبعة الأولى، 1990.

78 - هرمان هيسه، تحوالت، ترجمة: طاهر رياض، عمان، دار منارات للنشر، الطبعة الأولى، 1990.

79 - Peter HADKE, cité par Alain, MONTAUDON, *Les formes brèves*, Paris, Ed. Hachette, 1992, p. 11.

لمزيد من فهم آليات الكتابة الروائية عند بيتر هاندكه، يمكن أيضا الرجوع إلى الكتاب الذي كتبه عن تجربته في الحياة والكتابة مترجم مؤلفاته إلى الفرنسية: Peter Handke, Par G. A. GOLDSCHMIDT, Paris, Ed. Seuil, 1988.

تسميه استيقا التلقي بمناطق اللاتحديد، ولما وجد المتلقي في النص «فضاء فارغا» يملأه بتجربته وبإحساسه وفكره وخياله. كما أتصور أن بناء المقطع وإيلاء أهمية في الكتابة للتفصيل السردى يفتح عين القارئ أكثر على جوهر النص. وما نقتطعه من النص لنقرأه في عزله يصبح نائما أكثر في حقل الرؤية. كما أنه يجعلنا نقرأ لا الرواية وحدها، ولكن أيضا مجموعا من أطيافها وظلالها وهوامشها. ألم يصف غوته الأدب بأنه «شذرة الشذرات»؟⁸⁰ والشذرة بالتعريف الاصطلاحي هي «المقطع من الشيء المنكسر»⁸¹ على أن لا تكون نتاج قصيدة الكاتب. ومن ثم، فهي تختزأ بغاية تعميق التأمل في التفصيل أو بغاية الاستشهاد (اليد الأخرى للكتابة) أو للكشف عن «النص الضمني الكامن خلف النص المعلن»⁸²، وبالتالي لتصبح كل شذرة تعبرا عن مجموع النص⁸³ (Du «Un - Tout») ولتمنحنا إمكانية التفكير في الموضوع الذي نساله، بل التفكير في التفكير نفسه، أي تفكير القراءة في تفكير الكتابة.

وبالرغم من الضرورة المنهجية لعملية التقطيع، ربما بالنسبة لكل مناهج البحث والتحليل وليس فقط بالنسبة للمنهج الذي أخذنا به في هذه الدراسة، برغم الطابع البيداغوجي أيضا لهذه العملية، يطرح السؤال - ولأشك - حول كيفية إنجاز هذه العملية: كيف نقتطع النص؟ بل كيف نقتطع مقاطع ونعتبرها شذرات دالة على فضاءات النص أو تحمل من المعنى ما يجعلها فضاءات؟

هناك في تصورنا طريقة أولى لاقطاع الشذرات يمكن أن يعتمد عليها الباحث تأسيسا على الاجتهاد النظري للناقد الألماني لوسيان دالينباخ Lucien DALLENBACH⁸⁴ الذي يحدد مفهوم الشذرة ويميز بين ثلاثة أنواع من الشذرات: نوع أول من منظور أركيولوجي، ويدل على «البقية أو الفضلة (Le reste)، الخراب أو الرسم الدارس (La ruine)، الفتات (La miette)، الأثر (La trace)، المذكرة (Le mémorandum)». ونوع ثان من منظور أخروي (Eschatologique)، وتدل فيه الشذرة على «رشييم (مبدأ) المستقبل» (Germe de l'avenir). ونوع ثالث تعتبر فيه الشذرة كنوع من المسكوت عنه

80 - Voir Alain MONTAUDON, Les formes brèves, *op. cit.*, p. 78.

81 - *Ibid.*, p. 77.

82 - *Ibid.*, p. 79.

83 - *Ibid.*, p. 80.

84 - *Ibid.*, p. 87.

(Habitus) مطلق في كلية ضائعة. وبهذا التحديد المتنوع تكون الشذرة كما لو كانت علامة على ضياع أو فقدان أو نحو النص ككل، وفي نفس الوقت كشهادة على نص كامل ينبغي أخذه بعين الاعتبار سواء كان حاضرا ومتحققا وملموسا أو كان «بنية غائبة» تمارس حضورا عن بعد. لنقل إن استعمال المقطع (الشذرة) في تشكيل معنى معين هو نوع من الاستعمال لسالب (Le négatif) النص. وبهذا المعنى أيضا، فإن «الشذرة، قبل أن تكون تقريرا شكلا لغيا الشكل، هي وعي حاد بضياع الوحدة والمعنى»⁸⁵، ومن ثم، أهمية أن تتلاقى الشذرات، أن تتصادى وتتخاطب - سلبا أو إيجابا، لايهم - في أفق استراتيجي واحد هيأته الكتابة وتكمل القراءة تشكيله.

أما الطريقة الأخرى لتقطيع النص إلى شذرات أو مقاطع تصلح لأن تكون وحدات قراءة فتوجد أسسها في المفاهيم التي حددها إيزر لضبط الوضعية المرجعية، كما سبقت الإشارة إليها آنفا، ونعني: السجل، الاستراتيجية، مستويات المعنى ومواضع الالتحديد. ذلك لأن سجل النص يركز على أهمية عمودية التواصل، والتي ينبغي «أن تقاطع وتتكامل مع أفقية التنظيم النصي»⁸⁶. كما أن استراتيجية النص، كما يحددها إيزر، فيما هي تصل بين عناصر السجل وعمد الجسر بين السياقات المرجعية وبين القارئ، فيما تحرص على لحم النص، تقوم في نفس الوقت بتحديد طبيعة وحدات القراءة التي تسهل مهامها. إنها استراتيجية يضعها النص الروائي نفسه لتسهل على مخاطب أجزائه ومقاطعته المختلفة في انتظار قدوم القارئ. «إن مهمة الاستراتيجيات إذن، بالإضافة إلى إقامة ذلك النسق ولحم أجزاء النص، هي توفير تلك «الإجراءات المقبولة» التي تساعد على قيام التواصل، ومن ثم تقاطع التنظيم الأفقي للنص مع عمودية التواصل والمعرفة، أي إبراز ما هو جديد وما يستحق أن يبرز «كعنصر غير مرتقب وسط ما هو مألوف»⁸⁷. أما بخصوص مستويات المعنى، حيث تحتل العناصر المساهمة في بناء المعنى «مواقعها بالانتقال من «المستوى الخلفي» إلى «المستوى الأمامي»، وحيث يتم «نزع القيمة التداولية» عن تلك العناصر، من خلال الانتقاء، لتحتل موقعها الجديد في بناء السياق العام للنص».

85 - *Ibid.*, p. 94.

86 - انظر دراسة طليمات حول الواقع الجمالي... دراسات سيميائية أدبية ولسانية، مرجع مذكور، ص. 58.

87 - نفسه، ص. 62.

وبالتالي، فالأساس هنا هو «انفصال» كل عنصر منتقى عن «عمقه» الأصلي ليطنفو على سطح المستوى الأمامي» 88 [التشديد منا]. ويبقى مفهوم مواقع اللاتحديد، وأهم ما يفيد به عملية القراءة - في نظر إيزر الذي استجلب المفهوم في الأصل من إينكاردن - هو «الفراغ التكويني» (le vide constitutif) الذي يرصع النص عبر امتداداته والذي لا يتوقف عن أن يمتلئ باضطراب عبر القراءة والتمثل التلقائيين 89.

وهكذا، يمكننا أن نقتطع وحدات لقراءة الفضاء الروائي بوصفها وحدات تكوينية للنص الروائي، بوصفها وحدات دلالية، بوصفها أدوات إحالة مرجعية: «ما يذكر لا يكون له معنى إلا كمرجع لما لم يذكر» 90، بوصفها فراغات وتباعدات وانفكاكات وطاقات نقي: «حيث يتم رفض بعض ما يقدمه النص كحقائق أو معارف أو أفكار» 91.

بهذا المعنى، تأتي الرابطات الغريبة (Associations étrangères) لتمارس وقعها 92، ولتتوالد مناطق التوتر والقوى المتخاصمة في النص الواحد، وعلى امتداد مجرى القراءة، ولتتيح لوعي القراءة أن ينبجس داخل فضاء الكتابة ومتخيلها. وبهذا المعنى أيضا يتأكد أن النص الأدبي هو بالفعل «ملتقى طرق، وموضع للقاءات أكثر مما هو مكان للعزلة»، بتعبير تودوروف 93.

ولا أعرف إلى أي حد كنتُ بهذا التقطيع قد قدمتُ جديدا أو قمتُ بتحصيل حاصل، أو على الأقل لست متأكدا من أنني وفّقتُ في مد جسور لتعايش اجتهاد كل من فولفغانغ إيزر في «فعل القراءة» ورولان بارت، سواء في «س/ز» أو في دراسته البنيوية الشهيرة (التحليل البنيوي للسرد) 94. لكن المؤكد أن بارت يلح في دراسته تلك على

88 - نفسه، الصفحة نفسها.

89 - W. ISER, L'acte de lecture, *op. cit.*, pp. 289 - 297.

انظر أيضا الترجمة الجيدة لفصل من كتاب إيزر (بعنوان: «التفاعل بين النص والقارئ»)، ترجمة د. الجليلي الكدية، (مراجعة د. محمد العمري)، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد 7، 1992، صص. 7 - 15.

90 - انظر: الترجمة السابقة لدراسة إيزر، م.س، ص. 10.

91 - دراسة طلبات حول الوقع الجمالي...، م.س، ص. 63.

92 - W., ISER, L'acte de lecture, *op. cit.*, p. 131 - 132.

93 - تودوروف، (حوار مع)، ترجمة: محمد براءة، مجلة الكرمل، العدد 15، 1985، ص. 300.

94 - رولان بارت، «التحليل البنيوي للسرد»، ترجمة: حسن بحراوي، بشير القمري، عبد الحميد عقار، مجلة آفاق (الصادرة عن اتحاد كتاب المغرب)، ع. 8 - 9، 1988.

وجوب تقطيع السرد وتحديد مقاطع الخطاب السردى في شكل وحدات سردية يقودها منظور إدماجي «ومنذ البداية ينبغي أن يكون المعنى هو معيار تلك الوحدة؛ والطابع الوظيفي لبعض مقاطع القصة هو الذي يضع الوحدات (...) فمفند الشكلائين الروس والوحدة تتألف من كل مقطع من القصة يقدم نفسه كتعبير عن تعالق ما»⁹⁵ [التشديد منا]. ويشدد بارت، في نفس السياق، على أهمية الإدماج في لحم وترتيب المقاطع، فالإدماج «هو الذي يمكن من توجيه فهم العناصر المتقطعة، والمتجاورة، والمتنافرة»⁹⁶، يقول بارت معتبرا «أن صعوبة الانتظام أو انكسار التركيب (La dystaxie) توجه نحو قراءة «أفقية»، بينما يطرح الإدماج على السرد قراءة «عمودية»...»⁹⁷. وحسب بارت أيضا فإن «المقطع هو أساسا كل متلاحم لا شيء يتكرر فيه؛ فالمنطق يتوفر هنا على قيمة محررة يشاركه فيها كل السرد؛ ويحدث أن الناس يطعمون السرد بدون انقطاع بما عرفوه وما عاشوه، وذلك على الأقل في شكل يتنصر على التكرار ويبنى نموذجاً لصيرورة ما»⁹⁸، لعلها هي صيرورة المعنى بالذات الذي «لا يوجد في «نهاية» القصة - كما يقول بارت - بل يخترقها»⁹⁹.

إن القراءة المقطعية إذن ستقتدنا من سبيلين متباينين للقراءة، لقراءة الفضاء بالذات: السبيل الأول يقترحه علينا جان إيف تاديي في كتابه «المحكى الشعري»¹⁰⁰، فمادام الفضاء يتحدد في نص ما - في نظره - كمجموع العلامات المنتجة لوقع تمثلي، فإنه يرى أن ندرس «بنية العلامات الفضائية، بعض العلامات المنتجة للفضاء في المحكى». قراءة سيميائية لها أهميتها، لكنها تفضيلية أكثر بالنسبة لمن يأخذ على عاتقه قراءة متن روائي شاسع. وأكثر تفصيلية منها ما يقترحه علينا هنري لوفيفر كسبيل لقراءة الفضاء¹⁰¹، قراءة

95 - نفسه، ص. 11.

96 - نفسه، ص. 26.

97 - نفسه، الصفحة نفسها. ويمكن أيضا أن نشير إلى انتباه صاحب «الفضاء الروائي...» (م.م) لأهمية البعد العمودي في قراءة الفضاء، ولو بشكل عابر، باعتباره بعدا قابلا لتشكيلة عريضة من

احتمالات المعنى. Cf., J., WEISGERBER, L'espace romanesque, *op. cit.*, p. 228.

98 - نفسه، ص. 27.

99 - نفسه، ص. 100.

100 - Jean Yves TADIÉ, Le récit poétique, *op. cit.*, p. 48.

101 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, *op. cit.*, p. 312.

يرى أن تتطلق برصد وتجميع أبجدية «المعجم الفضائي» (ماء، خشب، رمال، إسمنت، حجر، لون...) والمرور بعد ذلك إلى مستواها التركيبي (منازل، مسارح، مكاتب، بنايات...) للعمل على فرض ومناقشة أسلوبيتها، إلخ؛ وإذ ندرك قيمة الدور الذي يمكن أن يلعبه المعجم المعبر عن الفضاء المختلف في ديناميكية الفضاءية (Dynamisme de la spatialité)¹⁰²، فقد لا تخلو طريقة كالتّي نجدها لدى لوفيفر من تعسف على مفهوم الفضاء الأدبي وانحسار نظر أكيد.

لنقل بأن عملية التقطيع التي نختمي بها هنا هي نوع من «تفجير» النصوص الروائية بحثاً عن إمكانيات أخرى مختلفة تجعل الكتابة الروائية غير موقوفة، من حيث معناها، على تماسكها البيوي وجود تكوينها، بل أن تكون بالفعل دائمة التخلق والولادة والامتداد الدلالي. بتعبير آخر، في المقطعية هناك إمكانية حقيقية للإحساس بكون العمل الأدبي هو «وحدة ممزقة» يملكها «تناقض رائع» هو القوة الحيوية للقصد الأدبي، كما يلاحظ ذلك موريس بلانشو¹⁰³. وبالتالي، فقد لا يفعل التقطيع أكثر من العودة بالنص الذي يقدم نفسه على أنه «متجانس» و«توحيدي» إلى طبيعته الأولى، تناصيته من حيث «إنه ترحال للنصوص وتداخل نصي»، فضاء لتقاطع الملفوظات الفضاءية القادمة من نصوص أخرى أو لتنافيها أو تناقضها¹⁰⁴. لنقل أيضاً بأننا بذلك ندرس النص الروائي هنا «كتداخل نصي، ن فكره في (نص) المجتمع والتاريخ»، وذلك عبر وحدات قراءة تقطعها على شكل مقاطع روائية، لسانية ودلالية، تظل تأخذ بعين الاعتبار «كلية الإنتاج الروائي»، بتعبير كريستيفا¹⁰⁵، أي تظل عملية التقطيع - ينبغي توضيح ذلك أكثر - عملية أركيولوجية تنغيا «توسيع الإشكالية من خلال السؤال العام للفضاء في الخطاب الروائي» كما يؤكد ذلك بحق دوني برتران Denis. BERTRAND¹⁰⁶ الذي أكد على قيمة أن نتعامل مع نص الفضاء كنص «يظهر في الأفق كموضوع بانتظار الوصف، مهياً لأن يقارن مع

¹⁰² - Gerges MATORE, L'espace humain, *op. cit.*, p. 34.

¹⁰³ - Maurice BLANCHOT, L'espace littéraire, *op. cit.*, p. 309 - 310.

¹⁰⁴ - انظر: جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، (مراجعة عبد الجليل ناظم)،

م.م، ص. 21.

¹⁰⁵ - نفسه، ص. 22.

¹⁰⁶ - B., DENIS, L'espace et le sens, *op. cit.*, p. 24.

نصوص أخرى ولأن يصب في غدجة معينة»¹⁰⁷، ذلك لأننا «لا نستطيع أن نفكر في مشكلة الفضاء - أو بتعبير أدق، في مشكلة التفضية (Spatialisation) - خارج تصور شمولي وتكاملي للدلالة الخطائية»¹⁰⁸.

إن المقاطع والشذرات المثلة لوجود بنى فضائية في النص الروائي المتعدد لسحر خليفة تشكل فضاء تناصبا معينا، فضاء لا يؤسس أساسا وعي القراءة. وذلك من خلال عملية جمع المعنى عبر المقاطع المنفصلة والمتباعدة، و«إخضاعها» لمقاربة تركيبية تمد جسورا عاشقة ومتعاطفة من شأنها أن تلامس «الهوية العميقة الموجودة بين الشذرات ذاتها»¹⁰⁹. ومن ثم، يصبح فعل القراءة استكشافا حقيقيا، وتصبح بالتالي عملية التقطيع طريقة للإمساك بجوهر الروائي (Le romanesque). لقد كان رولان بارت (ولنتذكر ذلك بكثير من الاستيحاء) يرى أن ما هو روائي ليس إلا «بمجرد تقطيع لا بنية له»¹¹⁰.

هكذا نقترح إذن سبيل التقطيع لنقرأ الفضاء الروائي، أو بالأحرى لنقرأ التفصيل الفضائي كما نقرأ لوحة فنية معلقة أمام بصرنا¹¹¹. نقف بأنوفنا قرب الجدار ثم نتراجع قليلا كما لو لنختزن ما رأيناه، ثم نعود لنعمق النظر والتأمل والإصغاء لنبض التفصيل، لنلتقط مجرى هذا التفصيل نحو ما يربطه بتفاصيل أخرى، ولنلامس مادة اللوحة كما لو لتأكد من تحقق التواء. كما لو أننا نريد أن نشم رائحة اللون.

لنتذكر، في نفس المنحى، ما كتبه صاحب كتاب *L'univers du roman*: «إن الروائي، كالمصور (Le peintre) أو الفنان الفوتوغرافي، يختار أولا قطعة من فضاء فيؤطرها، ثم يتموقع على مسافة معينة تجاهها»¹¹²، ويبدأ الاشتغال وتحريك الفعل الروائي (السردى والحكايتي) والتحري حول المعاني المتعددة للفضاء، حول أسس بناء (أو حول بناء أسس) المعاني المحتملة للفضاء الروائي.

يفعل الكاتب ذلك، فكيف لا يعمقه القارئ؟!

107 - *Ibid.*, p. 18.

108 - *Ibid.*, p. 17.

109 - Georges POULET, in *Qu'est-ce qu'un texte?*, *op. cit.*, p. 77.

110 - رولان بارت، لذة النص، م. س، ص. 33.

111 - Voir Bertrand DENIS, *L'espace et le sens*, *op. cit.*, p. 62.

112 - Roland BOURNEUF et Réal, OUELLET, *L'univers du roman*, *op. cit.*, p.

109.

الباب الثاني

في القراءات النقدية والصحفية القليلة التي أتيح لنا الاطلاع عليها، والتي قاربت الكتابة الروائية لسحر خليفة عبر مختلف رواياتها، كانت محاور الاهتمام والانشغال في الغالب هي: مشكلة المرأة وقضية تحررها الاجتماعي والجنسي، موقع المثقفين ودورهم في المعركة، قضية الاحتلال الإسرائيلي وانعكاساته الاجتماعية والاقتصادية والنفسية والسياسية¹...

والحق أن هذه القراءات لم تكن تخلو من الصواب في إمساكها بجوهر كتابة سحر خليفة وهواجسها المركزية، لكنها ظلت في أغلبها *قراءات* تمسك بأسهل ما يمكن الإمساك به في هذه التجربة الروائية، وتضع اليد على ما يمنح نفسه بسهولة في التجربة. ومن ثم، كانت جاهزة وتشتغل على الجاهز أساساً، بمعنى أنها كانت تقرأ النص الروائي - غالباً - كوثيقة لا كنص أدبي يتحدد بمقاصده الإبداعية ونواياه الجمالية.

¹ - انظر على سبيل الاستئناس: غالب هلسا: «الصبار رواية الواقع الفلسطيني»، مجلة *مواقف*، العدد 72، صيف 1983، ود. عفيف فراج، «صورة البطلة في أدب المرأة»، *الفكر العربي المعاصر*، العدد 34، ربيع 1985، وبثينة شعبان، «الرواية النسائية العربية»، *مواقف*، العدد 71/70، شتاء 1993، وفاروق وادي، «سحر خليفة وثلاثة هموم للكتابة الروائية»، *الطريق* - العدد 4/3، 1981، وإيمان القاضي، *الرواية النسوية في بلاد الشام، السمات النفسية والفنية (1950 - 1985)*، دمشق، دار الأهالي، 1992، ط.1، صص. 37، 116، 137 - 138، 196، 232، 282...، وفخري صالح، «باب الساحة، الانتفاضة بعيون هامشية» *جريدة القدس العربي* ليوم 9 أبريل 1993.

لذلك نقترح هنا محاولة أخرى للقراءة، قراءة تتأسس على ما أسلفنا فيه التحليل والتوضيح في الفصول السابقة، منهجياً وإجرائياً، وأخذاً بالاعتبار جملة الملاحظات التمهيدية التي نود أن نبديها هنا والآن، ربما على نحوٍ مَنْ ينطلق بالأشياء من «موقع متطرف»:

1 - كملاحظة أولى، يبدو لنا من قراءة متكررة لسحر خليفة أنها كتبت **مطولة روائية** تشكل من خمس روايات. وتلتقي هذه المطولة في عدد من القضايا والقيمات والشخصيات والمشاهد والتكرارات، أي أن فضاء واحداً مشتركاً يلحم الأعمال الروائية كلها، وربما كان مفهوم الفضاء الروائي - كما حددناه - هو الذي يفتح أعيننا على ما نعتبره مطولة روائية بالرغم من كونها تتبدى لأول وهلة كروايات منفصلة عن بعضها، علماً بأن «الصبار» و«عباد الشمس» تشكلان ثنائية روائية واضحة وتؤكد عليها الكاتبة في نهاية «الصبار»: «انتهى الجزء الأول»²، وفي نهاية «عباد الشمس»: «انتهى الجزء الثاني - تمت»، بل ونقرأ تحت العنوان الداخلي «عباد الشمس» عبارة «تكملة الصبار». هذا فضلاً عن طبيعة الشخصيات والأحداث والحكاية، وأيضاً الدور الجمالي والسيكولوجي الذي يلعبه الاستهلال الشعري للشاعرة فدوى طوقان، والذي تفتتح به سحر خليفة «عباد الشمس»³.

ربّما لم تتمكن سحر، في أية رواية من رواياتها من الإمساك الجوهرى بما يمكن اعتباره «تركة تاريخية» للشعب الفلسطيني. لقد ظلت عبر تطور وعيها الأدبي

2 - سحر خليفة، **الصبار**، بيروت، دار الآداب، (بدون اسم المطبعة وبدون تاريخ)، ص. 176، و**عباد الشمس**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة 1980، ص. 279.

3 - انظر: **عباد الشمس**، م. س.، ص. 7:

كبوا في غاب الليل الموحش، في ظل الصبار المر
كبوا أكثر من سنوات العُمر
كبوا التحموا في كلمة حب سرية
حملوا أحرفها إيجيلاً، قرأنا يُتلى بالهمس
كبوا مع شجر الحناء، وحين الثموا بالكوفية
صاروا زهرة عباد الشمس!

(من «أنشودة الصبرورة» - فدوى طوقان)

ومسار كتاباتها الروائية «سجينة» إيديولوجيتها الشخصية، وبالتالي انشغلت عن تقدير القضايا التي تبدو مظاهر أو مكونات للإيديولوجيا العامة للمجتمع الفلسطيني، أي ما يشكل هويته.

لعلها أخفقت في أن تلامس ما تركه التاريخ في الوجدان الفلسطيني، في الذاتية الفلسطينية، في الذاكرة الفلسطينية، في الوعي العام الفلسطيني... إلى درجة أن بعض منتقديها ظلوا يؤكدون عند صدور كل عمل روائي جديد للكاتبه على «ضعف احتمالية الواقع» لديها، وأنها تأتي في الغالب بنماذج لمثقفين أو لمناضلين أو لشخصيات نسائية يصعب احتمال وجودها في الواقع الفلسطيني المعيش الذي تجعل منه الكاتبة «حق السلب»، والذي تشتغل عليه باستمرار. ومن ثم، كانت التجربة الروائية لسحر خليفة ناجحة أكثر في الكشف عما يُمور بداخل سحر أكثر مما نجحت في الكشف عما هو عام، على نحو ما سنرى فيما بعد، وبالتالي ظلت هذه الإيديولوجيا الشخصية متحكمة في صياغة جوهر روائي واحد لا يتبدل مهما تبدلت الأسماء والعناوين والصياغات.

إن ضعف الاحتمالية، بهذا المعنى، لا يمس فحسب دينامية العمل الروائي التي توقظ، عادة، استجابات القراءة وتحفز على مهام الاكتشاف، ولكنها تضعف من بنات التحريد الأدبي، أي تضيق نوعاً ما من فراغات النص ومناطق اللاتحديد فيه أيضاً. بمعنى آخر، لا يمكن أن نفهم من هشاشة الاحتمال هذه إلا هشاشة المتخيل وصعوبة استعماله، وبالتالي الوقوف مباشرة أمام وجهة نظر سحر خليفة.

2 - ليس هناك إذن لدى سحر «نص» في ذاته، بل لديها نصٌ يفكر في أطروحاته ويهيئ اختياراته الإيديولوجية والثقافية قبل أن يعسكرها شخصيات ووقائع ملائمة للتنفيذ والتعبير. وربما كان علينا أن نشير إلى أن قراءة حقيقية وشاملة لكتابة سحر خليفة الروائية لا تحتاج فقط إلى مجرد الإحاطة بكل مكونات خطابها السردية، بل ربما احتاج الأمر إلى قراءة أوسع تستثمر ما يمكن أن نسميه بـ«النص العمومي»⁴ الفلسطيني كله (الحياة التاريخية والثقافية والسياسية والدينية، الخطابات السائدة والخطابات المضادة، الطقوس والتقاليد والفنون الشعبية... إلخ)، حيث نعثر

4 - Charles CRIVEL, Production de l'intérêt romanesque: Un état du texte (1870-1880), *op. cit.*, p. 33.

على مجتمع يحكي نفسه. فما بالك إذن ونحن لا تنغيًا إلا الإحاطة بأحد مكونات هذا النص الروائي، وهو الفضاء!

صحيح أن وصف الفضاء ورصده لا يتمّان إلا داخل النص نفسه باعتبار النص أساساً «مكان عرض للنسق»⁵، النسق بما هو سياقات النص المختلفة، مرجعيته، مجموع كتابات الكاتبة وحركتها في الحياة وفي المجتمع...، لكننا نظن - على الأقل من خلال قراءتنا لهذا النص - أن الفضاء عبر امتدادات مُطوّلة سَحَر خليفة ظل محكوماً بوجهة نظر الكاتبة ذاتها ولم يتحرر من مراقبتها الإيديولوجية، من حقل رؤيتها الخالصة إلا فيما ندر.

يبدو الفضاء هنا كظاهرة نصية شبه «حادث مصطنع» قد لا يفيد تحليله، ربما، إلا في فهم «الفعل الإنساني الذي منحه الحياة» بتعبير ناقد فرنسي⁶، فهم وعي الكتابة ولا وعيها، تكوينها النفسي والمعرفي، ثقافتها البصرية.. والإدراكية عموماً، موقعها الاجتماعي والثقافي، بل وموقفها الفكري العام.

إن ملاحظتنا هنا تنقصد التنبيه إلى طبيعة «وجهة النظر» التي حكمت استراتيجية الفضاء الروائي في كتابة سحر خليفة، أي تتعلق بالسؤال الذي طرحه جيرار جنت: من هي الشخصية التي تتحكم وجهة نظرها في المنظور السردي؟ في مقابل السؤال الآخر: من هو السارد؟ حيث يتم الخلط بينهما عادة⁷. ذلك أنه من المفيد هنا أن نعرف في روايات سحر خليفة: من يعيش الفضاء؟ من يقدمه لنا؟ من يرى مظاهره؟ من يتحكم فيه؟ من يؤثّر سرديا وحكايا؟ من يرتبه داخل اللغة الروائية... إلخ.

والواضح أن هذا العمل الروائي كان في الغالب غير مكثف بذاته. فالكاتبة تشحنه من خارجه. كانت تنطلق من «معرفة كلية»، حيث وجهة النظر غير محدودة، والسارد(ة) يعرف أكثر مما تعرف شخصياته. وسنلاحظ أنه في أنضج عمل روائي لسحر خليفة، على الأقل من حيث تعدد مراكز التعبير وتعدد اللغات، ظلت

⁵ - Ibid., p. 29.

⁶ - Edmond BARBOTIN, «présupposés et requêtes de l'acte de lire», in Qu'est-ce qu'un texte?, op., cit., p. 121.

⁷ - Gérard GENETTE, Figures III, op., cit., p. 203.

الحوارات، كما لاحظ محمد برادة، مُفَكِّراً فيها كي تُظهِرَ جزءاً من الإيديولوجيا المضمر⁸.

إن الحديث عن مشروع سردي حقيقي في تجربة الكاتبة الفلسطينية، بالمعنى الذي يُنْبِئُ إيقاعاً للتبشير، ويجعلنا نتبع الفضاء الروائي عبر دينامية الشخصيات وتعدد لغاتها وأصواتها واختلاف مواقعها ومواقفها، ما زال حديثاً سابقاً لأوانه. ومن هنا اعتبر أن هذه التجربة غير مكتملة وأن التبشير عموماً لا يزال لديها في *درجة الصفر*⁹ وحتى عندما يتخفى السارد في «باب الساحة» خلف تعدد اللغات تأسيساً لإمكانية «تعدد الأصوات»، فإننا نظل - وعلى عكس ما يتصوره محمد برادة¹⁰ - أمام انفعالات تبشيرية، أي أمام «*مؤشرات للتبشير*»¹¹ قد يزداد تعميقها في أعمال روائية لاحقة، لكنها هنا تبقى غير ذات موضوع بخصوص المنظور الذي يقود ويوثر الفضاء الروائي.

أكثر من ذلك، وحتى حين تختار الكاتبة كصيغة سردية لنصها «مذكرات امرأة غير واقعية»¹² تبشيراً داخلياً مركزه البطلة «عفاف»، وهو تبشير يتحقق هنا في المحكي بالمونولوج الداخلي كذلك، «حيث تختزل الشخصية المركزية مطلقاً إلى وضعيتها البؤرية. مفردتها، ولا تستنتج بناتا إلا منها»¹³، فإننا مع ذلك نلاحظ أن السارد - الذي هو البطلة في نفس الوقت - لا يقوم بتضيق حقل رؤيته ولا يتيح أية فرصة في سيرورة المحكي للتعبير عن أي «*جهل مؤقت*»¹⁴، بتعبير جنيت، بخصوص

8 - انظر: محمد برادة، «باب الساحة: مساهمة الانتفاضة والإيديولوجيا»، مجلة *بيادر*، العدد الرابع والخامس، 1991، ص. 101.

9 - Gérard GENETTE, *Figures III*, op., cit., p. 206.

10 - محمد برادة، *المصدر السابق*، ص. 100.

11 - Gérard GENETTE, *Ibid.*, p. 217.

12 - سحر خليفة، *مذكرات امرأة غير واقعية*، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى 1986.

13 - يتحدث جبرار جنيت عن هذا التحقق في المحكي بالمونولوج الداخلي في رواية «*الفيرة*» لألان روب غرييه. انظر G. GENETTE, *Figures III*, p. 209-210. والترجمة التي نعتمدها هنا هي من كتاب: *نظرية السرد، من وجهة النظر إلى التبشير*، ترجمة ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1989، ص. 63.

14 - G. GENETTE, *Ibid.*, p. 215.

الأحداث والتفاصيل والفضاءات، وبالأخص لتلك التي تتصل بزمن سابق لزمن الحكيم. إن الكتابة تصادر، في هذه الرواية، الصوت الوحيد لحسابها الخاص. ويمكن التأكد باستمرار من أن شخصية «عفاف» لم تكن حرة في حكي سيرتها واستيعاب محكيها الخاص. ورغم أن الكتابة ساردة لتفاصيل تجربتها في الماضي، فإنها تظل رقيقة لتطور أفكارها ومشاعرها وقراراتها. وسنرى أن هذه الشخصية التي من المفروض أنها تمتلك لسانها و«ليست ملزمة بأي تحفظ إزاء ذاتها»¹⁵، لم تكن تفصح عن رغباتها وانشغالاتها إلا من خلال المرأة الرمزية التي تجسدها قطتها «عنبر». ومرة أخرى، إنها الإيديولوجيا الشخصية التي تتكلم وتفكر من خلال الآخرين.

3 - الملاحظة الثالثة في هذا الإطار هي تلك التي يمكن تقديمها هنا كشيء فرضية ستوضح حقيقتها فيما بعد، وتتعلق ببساطة المتن الحكائي في روايات سحر خليفة، بامثال المتخيل الروائي لسلطة المرجعية. ونحن نقول بذلك، بطبيعة الحال، دون أي تنكر لقيمة وفاعلية الدور الذي تلعبه اللغة الأدبية في تحصيل المتخيل والإبقاء على الفروق الضرورية بينه وبين الواقع.

والحكيم، بما هو فضاء استعاري بامتياز، ليس في هذه التجربة الروائية أكثر من مجرد عبور للأفكار والمواقف. وبالتالي، نحن إزاء رواية أفكار ورواية شخصيات أساساً. بمعنى أن النص الذي تنجزه سحر خليفة يبين فضاء يتعين فهمه، في كثير من الأحيان، دون حاجة كبيرة إلى استثمار بياضات هذا النص قصد تشكيل معناه. إنها بشكل ما، تقدم واقعاً ونظاماً معيناً لتصديقه. نظام يشكل الفضاء، كعلائق وكأمكنة وكمشاهد يومية، جانباً مركزياً ضمن ترتيباته.

وإذا كنا قد أكدنا على مدى خضوع الشخصيات لأفكار ورقابة الكتابة، فإننا نضيف هنا بأن الفضاء متصل اتصالاً وثيقاً بهذه الشخصيات؛ ومة شخصيات «حاملة للفضاء»¹⁶ في ذاتها، في الجسد أو في الملامح أو في الصوت أو في اللباس أو في الأحاسيس... إلخ. بل إننا قد لا نعثر على تجلٍ معين للفضاء إلا ودلنا على

15 - *Ibid.*, p. 214.

16 - Jean Yves TADIE, *Le récit poétique, op. cit.*, p. 77.

شخصيات شبه بروسية لا تسمح باستحضارها بدون أن تكون «مصحوبة بصورة الأمكنة التي شغلتها تبعاً»¹⁷، أي أننا لا نتلقى شخصيات لدى سحر بدون أن نتلقاها ملفوفة بفضاءاتها لكننا - وهذا جوهر ملاحظتنا هذه - حتى نتجنب واقع أن لا نتلقى الفضاء إلا مُتَبَيِّلاً لأفعال الشخصيات سنقرأ الفضاء متشذراً بما يتيح لنا إعادة بناء معناه المتعدد.

الفضاء بهذا المعنى ليس علامات فارغة، أي مجرد «يباض دلالي لا قيمة له إلا من خلال انتظامه داخل نسق محدد»¹⁸، بل إنه علامة مليئة دلالياً داخل النسق، وخارجه أيضاً. ينبغي ألا ننسى مطلقاً أن هذا الفضاء كُتِبَ محملاً بطبيعته المرجعية وأبعاده الرمزية والثقافية والإيديولوجية دون أن يمنعنا ذلك من قراءته مجرداً، بما أن القراءة تستهدف إعادة بناء المعنى.

ربما كانت هناك شخصيات روائية غير ضرورية لأنها تفتقد أية وظائف حكائية، لكن الفضاءات غير مجانية إلى درجة أن بعضها يرقى إلى مستوى التميز بقيمة الحدث ذاته.

وربما كانت هناك شخصيات لا تتأمل في حدود ما تراه ولا تحتاط من أي فكر يصلها من خارجها عن طريق الكاتبة، مع أن هناك فضاءات عديدة تنفلت من سلطة الإخضاع التي تمارسها وجهة نظر الكاتبة؛ ووحدها القراءة هي التي تنتبه لقوة عملها *العمودي* في بناء هذا المعمار الروائي لسحر خليفة.

إن بساطة الحكايات تضعنا وجها لوجه مع فضاءات مسلحة بسجلها الواقعي، مع شخصيات لها وعي «جانسيقي» (رفض للعالم داخل العالم)، مع قيمها، لكنها لا تستطيع الانفلات منه، بل تسعى إلى تأنيثه ومعايشة مسافات ومساحاته. ومن هنا خطورة أن نقرأ الفضاء مجرداً من كثير من الأفعال، وأن نجعله يحضر وحده لتقوية الدلالة، مع أننا لا نجد فضاء فارغاً من كل حضور بشري، وقلماً تصف الكاتبة مقطعاً فضائياً بدون أن يكون هذا الوجه أو ذاك في مقدمة المشهد.

كما أن الحكايات المركزية التي تُلجِمُ العمل الروائي بمسئولية معين، تشجعنا هنا على تلمس الطريق للإمساك بوحدات حكائية صغيرة، هي البديل الحكائي الذي

17 - انظر فيليب هامون، «سيمولوجية الشخصيات الروائية»، مرجع المذكور، ص. 8.

18 - Gaston BACHELARD, La poétique de l'espace, op. cit., p. 192.

تؤسسه القراءة الفضائية بما هي *قراءة* تركز على الناتيء لا على الممتد والمنتشر، وتهتم باللحظة أساسا لا بالدق الزمني، وبالمقطع السردى والحكاى لا بالخطية السردية والحكاية.

هكذا، إذن، نود أن «نعطي وضعا عن الأوضاع كلها»¹⁹ فيما نحن نتعالى بكل أوضاع المحكى في روايات سحر خليفة.

كل ذلك، كل ما قدمناه من ملاحظات، كي نزعّم في النهاية أنه يحق لنا أن نتكلم بحرية معينة عما سنسميه، من الآن فصاعدا، فضاء سحر خليفة كما تراه هي، كما تستشعره بجسدها، كما تؤثّر مرجعيا ونفسيا، كما تبنيه وتُبْنِيه، كما تتعلق به هنا - ضمن علاقة غواية - أو تعاديه هناك - ضمن علاقة رفض كاتمة الصوت - برغم انتشار صوتها الخاص وتوزّعه على الألسنة والشخصيات والأسماء.

وأظن - لكي أفصح عن إحساس شخصي - أن هذا الوضع السردى/الحكاى يلائمني كثيرا كقارئ يبحث عما يهمه أساسا، رغم أن ذلك قد يبدو بشكل من الأشكال نقیصة على مستوى جمالية الخطاب الروائى. وإن كان ينبغي الإلحاح على أن هذه الملاحظات لا تُقَلُّ مطلقا - ولا ترغبُ في ذلك - من قيمة وأهمية كتابة سحر خليفة، سواء على المستوى الفلسطينى أو فى الساحة العربية. بل إننا قصدنا أن نكشف مسبقا عن انتباهنا - من خلال إبدائها - لبعض جوانب هذا المتن. وذلك لتفرغ فى هذا الباب لما نعتبره فى صلب اهتمام دراستنا هذه.

¹⁹ - Jean STAROBINSKI, *L'oeil vivant*, Ed. Gallimard (Le Chemin), Paris, 1961, p. 75.

الفصل الرابع

فضائية النظر

I - العين والمشهد

عموما لا يشكل الفضاء الروائي لسحر خليفة استثناءً من حيث هو تجريد يتجلى أولاً فيما يحيط بالأفعال والشخصيات من حقائق وأشياء. ومن ثم تتحقق إمكانية تخيله وإدراكه. إن العين هنا هي نقطة البدء في الاتصال بالفضاءات. تتحرك العين أولاً قبل أن تلتحق بها الحواس الأخرى، «قبل الامتلاء بالقيم الجسدية كلها»¹. تتوقف العين عند المشاهد اليومية المختلفة، العابر منها والثابت، عند الأمكنة، عند الأشكال والألوان، ثم تغوص إلى ما يشكل جواهر فضائية للعالم. وعندئذ تصبح العين التي ترى باحثة عن عين أو أعين أخرى كي تبادلهما النظر.

إن العين حاسة مركزية في تجربة سحر، لكنها لا تلغي الحواس الأخرى.

هناك دائما العين التي ترى وتحكي المشهد الحكائي.

هناك عين أخرى تراها، عينٌ شاهدة تقدم لنا نظرة مجهولة لمشاهد بلا هوية، على الأقل بالنسبة إليها.

وهناك بالطبع العين الثالثة التي تراهما معاً - ينبغي ألا ننسى ذلك - عينُ القراءة. العين اليقظة، «العين الحية» بتعبير لستاروبانسكي².

تبدأ العين بالتفاصيل، بالأجزاء والمقاطع للإمساك بالشامل والممتد، تبدأ بالمرئي للإمساك باللامرئي، تبدأ بالتأطير (بما هو ظاهرة تصويرية pictural على نحو ما يؤكد

1 - Jean STAROBINSKI, L'oeil vivant, *op. cit.*, p. 20.

2 - عبارة يستعملها جان ستاروبانسكي في كتاباته النقدية، اختارها عنواناً لكتابه المشار إليه.

روني باسرون³) للتحكم في المشهد. أبدا ليس هناك مشهد سائب. لسحر خليفة عين حاذقة، تبدو معرفتها التشكيلية جيدة. كأنها ترسم المشهد عندما تكتبه: «وجدته يقف عند النافذة والجبل الشمالي خلفه يأتلق بلون الأصيل. لم تر قسماته، فضوء الخارج أحال الشكل إلى شبح»⁴. إن النظرة المتجهة إلى المرئي ليست هنا إلا تعبيراً عن حاجة إلى نظرة متجهة من خارج الجسد إلى داخله. بمعنى أن النظر إلى الخارج هو نوع من الهروب من سوء التفاهم مع الكلام. النظر الذي لا يُنْكَبُ، بل يمضي إلى حد الإغراء بتصويره. إن هذا النظر يصبح لوذاً بالصمت.

لنتنبه: إنه صمت يتشكل في المحكي، لكنه أيضاً يتم بصورة محايثة على المستوى السردى. صمت يستدرج تقنية الوصف. من هنا، أفضل أن أستبدل ما يسميه جبرار جنيت «الوقفة»⁵ Pause بالصمت: صمت هو من صميم بناء الكتابة الروائية وليس عنصراً طارئاً أو برأئياً، هو صمت اللغة ذاتها.

لقد سبق واتبه ريكاردو غيئون في دراسته حول الفضاء الروائي⁶ إلى كون هذا الصمت «يقوم بوظيفة محددة تحديداً دقيقاً ألا وهي توليد قدر لا متناه من الأحاسيس والانطباعات» مادام من الصعب على المرء أحياناً أن يدرك معنى الفضاء. ذلك لأن هذا الحضور الصامت ينه الشعور إلى بعض الحقائق التي تكتسي طابعاً مبهماً أو غامضاً. إن «الصمت هو الذي يسمح للفضاء بتأكيد حضوره، فهو نبضه وطريقته الخاصة لإثبات الذات»⁷، وطبعاً فحسب الحالات والمواقف تختلف الرؤية.

وفي نفس السياق، يوضح ريكاردو بأن الصمت يلعب دوراً تكميلياً في علاقته بالفضاء الروائي، ذلك أنه يملأ هذا الفضاء ويكمله. «ويكفي أن نلاحظ أن الصمت ليس عبارة عن فضاء فارغ، وإنما هو عنصر مكمل لتركيب الجمل. إذ تقف أحياناً حركة النص فيشعر القارئ بالحاجة إلى الربط والإتمام اعتماداً على تفكيره الخاص وتخيله للافتراضات التي

3 - René PASSERON, *L'oeuvre picturale et les fonctions de l'apparence*, Ed. VRIN, Paris, 1980, p. 152.

4 - سحر خليفة، باب الساحة، مصدر مذكور، ص. 10.

5 - G. GENETTE, *Figures III*, op. cit., p. 133.

6 - Ricardo GULLON, «On space in the novel», *Critical Inquiry*, Automne 1975, p. 17.

7 - *Ibid.*, p. 17.

تربط بين ما قيل وما سُبِكَتَ عنه»⁸.

إن المشهد لدى سحر يؤسسه الصمت أيضاً. يصبح النظر كلاً ما كي يلتقط ما ينفلت منه. عيون سحر خليفة وهي تطمح لبناء علائق وثيقة بمنزلياتها، تسعى أيضاً لتجمع صور اليومي المتشذرة لبناء مشهدها الروائي. إنها عين ساردة تتخذ نحو المشاهد والمرئيات في حركة «ترافلينغ» (Traveling) تستدعي ما تراه إلى *نظرهظة الداخلي* لتمنحه بعده العميق من خلال ربطه باستراتيجية الحكاية.

الأشياء هنا، كي لا تتلاشى، تتخذ في الكتابة بُعداً فضائياً (se spacialisent). وليست النظرة هنا مجرد شاشة لعرض الموجودات، بل إنها تشي بوجود عين لها قوة الملاحظة، عين فكرٍ عمضي نحو مزوجة التجربة الداخلية فيما يمكن أن نسميه بدفقٍ بصري. عين تحضن كل شيء فيما هي تقاربه أو فيما هو يَفِرُّ منها.

أحياناً، وأنا أقرأ المقاطع التي اجتزأتها من روايات سحر خليفة، أشعر بأنني أمام رواية تكتب بعينها أساساً وأستطيع أن أزعم أنه يمكن إنجاز أطروحة حول عين سحر خليفة فيما يمكن أن نسميه *بسرود النظر أو بالنظر السردية* (La narration du regard) (Le regard de la narration)⁹، حيث تحكي العين حكايتها، تحدد عميقاً فيما تسرده المشاهد... في فضاء يتحلى في الزمن، لكنه فضاء لا معنى للزمن إذا لم يضع عليه جناحه. الفضاء الذي يتجه إلى العين الكاتبة مخزناً لتقائنها وثقافتها، مسلحاً بكل ما فيه من أجساد وموضوعات وأشياء متجاورة، بكل ما فيه من أصوات وروائح وعلامات متعايشة، متجاورة ومتخاطبة.

تتحول العين. تجوس الأشياء التي تقدم نفسها للرؤية. كما تجوس الأشياء التي تنحني كي تنزلق الرؤية إلى داخلها (لنتذكر الصحن الذي رسمه بول سيزان مائلاً كي نرى الحساء بداخله كما لو كانت ثمة تسوية بين الشكل والصحن المنحني¹⁰)، تسوية بين العين والمرئي. وسواء تعلق الأمر بفضاءات مرجعية كالساحات، الشوارع، الحقول، البيوت أو بتجليات الفضاءات الذهنية والنفسية (فضاءات الإخفاق، فضاءات النفس، فضاءات الموت، إلخ...).

⁸ - Ibid., p. 17.

⁹ - Voir: «L'espace, le temps et les arts de l'espace», in L'espace et le temps aujourd'hui, op. cit., p. 239.

¹⁰ - MAURICE MERLEAU-PONTY, *La phénoménologie de la perception*, op. cit., p. 301.

دائماً تفتح رؤية سحر الفضاء للرغبة، رغبة الكتابة أولاً ثم رغبة القراءة ثانياً. إنها رغبة رؤية «تستلزم إعطاء الحق لنظر آخر»¹¹. فالكاتبة الروائية هنا لا تكتب لذاتها، بل لتضطلع بدور ثقافي وإيديولوجي: دور تعبئة وإشراك دور إقناع أيضاً.

يتأسس المشهد الفضائي من النظرة البدئية، فالعين كما نعلم هي «عضو المعرفة الإنسانية الأكثر فاعلية»¹²، منها يبدأ التخيل سيرورة اشتغاله، وبواسطتها كحاسة مركزية للإدراك ينطلق النشاط المعرفي والإبداعي. بالنظرة الأولى تفتتح الحكاية، لا حكاية لدى سحر خليفة بدون يومي، بدون مشاهد يومية ساكنة أو متحركة.

ولا تقوم سحر في تقديم تفاصيل المشهد اليومي بمجرد عملية وصف يقتضيها البناء الروائي التقليدي، وإنما تلتقط التفاصيل المشكّلة للفضاء النفسي للكتابة. إنها لا تقدم حكاية أشخاص عاديين يمكن أن يكون لهم أشباه في أي مكان، ولكنها حكاية شخصيات محددة بخصوصيات فضاء شرقي عربي تختلط فيه اللغات والعقائد والقيم والرموز والأعراف. لكن العين - هنا أيضاً¹³ - تبقى حاسة انتقائية في بناء التجربة البصرية، فهي ترى كل شيء وتخترق الفضاء الذي يلف المشهد كاملاً، لكنها لا توطن إلا ما تريد ولا تقدم للعين القارئة إلا ما يخدم استراتيجيتها الكتابية. ومن ثم أهمية أن نفهم لماذا لا يُشاهد الشيء في الفضاء، لدى سحر، إلا إذا شوهد في سياق معين، مشدوداً إلى علاقة معينة «Voir signifie Voir en relation»¹⁴، بل ليس هناك من فعل بصري معزول. كل نظرة للتفصيل هي نظرة شاملة، كل نظرة شاملة هي رؤية مطلقة، وكل رؤية هي استغراق فكر روحي. إن العين هنا لا تشغل بدون ذاكرة.

«ودار بسيارته في كل الشوارع الكئيبة الممطرة، فقطع شارع البيرة، وعاد أدراجه فسار في الشارع الرئيسي. وكان بعض الفلاحين يقفون على الرصيف تحت المطر في انتظار الأتوبيس بينما وقف بائع الكعك والبيض في زاوية قرية من المحطة وقد غطى بضاعته بقطعة من النايلون اتقاء للمطر. وممر

11 - L'oeil vivant, op. cit., p. 15.

12 - Rudolf ARNHEIM, *La pensée visuelle*, traduit de l'américain par Claude Noël et Marc Le Cannu, Ed. Flammarion, Paris, 1976, p. 7.

13 - *Ibid*, p. 27-28.

14 - *Ibid*., p. 62.

أمام لافتة ضخمة معلقة في منتصف الطابق الثاني من بناية ضخمة تحتل أبرز مكان في الشارع..»

(لم نعد جوارى لكم، ص. 153)

• «لا شيء تغير في المدينة. الدوار مازال مكانه، وساعة الدوار تمشي بصمت وببطء. لكن الأزهار نمت واستطالت. ولا شيء تغير! المصينة ما زالت مكانها. ورائحة الجفت والرطوبة تنبعث من بابها الكبير. وفي مكتب المصينة يجلس الأعيان يناقشون ولا يفعلون. وبقية خلق الله على الرصيف يفعلون ولا يناقشون. ولا شيء تغير»

(الصبار، ص. 26)

• «وصمت الإثنان وتحجرا. ومرت عربة يد ضخمة تحمل صناديق وأكياس المأكولات فباعدت بينهما. ثم مشيا بصمت واحترقا الشارع الرئيسي ودلفا إلى أحد الأزقة المؤدية للبلد القديمة. وكان الباعة ينادون: غزّاي ياسمك. يا فارى يا بردقان. ريحاوي ياموز. وصاجات بائع السوس والخروب توقع أنغاما راقصة. وبائع الجرائد نفسه ينادي. القدس. الشعب. الفجر. كيمسجنر ييشر محل للقضية. فريد الأطرش مازال يندب. وصاجات بائع السوس والخروب توقع أنغاما راقصة. والناس يشترّون خبزا وخضارا وفواكه»

(الصبار، ص. 27)

• «مشى يتخبط في الطرقات الموحلة وأصوات الباعة المتنافرة تخترق أذنيه. خضروات ولحوم وفواكه. وبائع الخبز يملأ عربته بقوالب مصنوعة هناك. - طازة يا خبز. الحق الحق الحق. بليرة القالب. ليرة القالب. ليرة. ليرة. ومر رجل بطربوش صامد فوق رأسه. أمسك برغيف طويل. جسّهُ ثم تركه. ناداه البائع.. طازة وحياة شواربك»

(الصبار، ص. 61)

• «تحت المظلة يتأمل باصات أيجيد والناس. امرأة تحمل سلة مليئة بخضار الموسم. قرنييط وسبانخ وربطة فجل أحمر. رجل دين اشأبت سوائفه حين اصدمت قدماه بالأرض. شاب وفتاة متخاصران يتأملان الشرق بفضول وتسلية. صبي في العاشرة يقفز من باص لآخر ويده أكياس ترمس، يصرخ بأعلى صوته «تورموس». بعض الباعة، كعك وبيض وزعتر. حلالة سمسم.

وفرش يحط عليه الذباب فلا تعرف نوعه. وأناس يروحون وآخرون يجيئون.
وفي أول الشارع راهبة تجر وراءها عنقود أيتام يمشون بصف العساكر
المهزومة»

(عباد الشمس، ص.9)

• «وقف يهز رأسه، ومشى في الأزقة وحده. رائحة جلود الخراف خيطت
جاكيتات فرائية بلون التدف. وبائعو البقالة على جانبي الشارع المسقوف،
زيتون رصيع، زيتون يوناني، وفسيخ وقطين مشكوك عقوداً طويلة. وخضار
وحلويات شرقية. وبائع عوامة زلاية. وباعة أشرطة كاسيت يستعرضون
بضائعهم فتختلط الأنغام وتختلط اللغات وتختلط البلد»

(عباد الشمس، ص.11)

• «ومشت في الشارع الفرعي وتلاشت الأصوات. هنا شجرة، وهنا
مدرسة خلا ملعبها من الطلبة، وهنا بيوت نظيفة على أسطحها غسيل
مضيء. وهنا امرأة تطرز على الفراندة وتستمتع بدفء الشمس الربيعة..»

(عباد الشمس، ص.118)

• «وكانت الأزقة مازالت هادئة وبعض الباعة يفرغون السحاحير ويصفون
الفواكه والخضراوات في أهرامات صغيرة، وباعة الحمص والبقول مازالوا
يحضرون الخلطة...»

(باب الساحة، ص.29)

واضح أن الشوارع والأزقة والطرقات ليست كتلا صماء، إنها مجرد سَندٌ بصري
لحركة شاملة من العلائق والأصوات والصور والروائح والإيماءات والطقوس. فالأمكنة
تؤثت الفضاء اليومي، وبقدر ما هي ثابتة ومقيمة بقدر ما هي متسكعة. واليوميُّ هنا هو
الأمكنة المفتوحة التي تبحث فيها الشخصيات - تماماً كالبطل الروائي في كتابات
سيلين¹⁵ - عن أفق لعبورها إلى حيث تُسمُّ لعب أدوارها في الحكاية. لكن بينما نجد أن

15 - Alain CRESCIUCCI, *Les territoires Céliniens. Expression dans l'espace et expérience du monde dans les romans de L. F. Céline*, Ed. Aux amateurs de livres, Klincksiek, Paris, 1990, p. 9.

«المشهد السيليبي هو العالم، عالم النصف الأول للقرن العشرين»¹⁶، يظل مشهد سحر خليفة أكثر تحديداً وخصوصية، هو فلسطين المحتلة منذ العام 1967.

إن فضاء اليومي في روايات سحر ظاهرة دينامية. للحركة إيقاع واضح في بناء المشهد. تحتل الحركات حقل الرؤية الذي ترعاه العين. كل شيء قابل للحركة من نقطة إلى نقطة، من بداية معينة إلى نهاية معينة. حتى الأشياء الثابتة تندرج في إيقاع الحركة: تصبح بداية أو نهاية لحركة ما. الفضاء كلُّ الفضاء يصبح متموجاً متمدداً عبر امتداد العين. وما يبدو ثابتاً أو جامداً يمكنه أن يتحرك من خلال عملية تماهٍ. هذا التماهي الذي يصنعه انتشار وقع الشيء ذاته.

هناك «منطق بصري» (Logique visuelle) (بانوفسكي)¹⁷ يمنح للمشاهد اليومية أدواراً عدة، يجعلها «متعددة الوظائف» (polyfonctionnels)¹⁸، فمن جهة هي فضاء اجتماعي ثقافي يضع نفسه في مقابل المنظر الطبيعي (le paysage)، يشتغل عليه ويغير من طبيعته. ومن جهة أخرى، هي فضاء للاستعمالات (للتلاقي الشفوف، للتبادل التجاري والاقتصادي، للاستعادة ولتشخيص مصادر الهوية...). هذا فضلاً عن أن هذه المشاهد يطبعها إيقاع الإنماءات التي تنتجها الفضاءات وتنتجها هي كذلك بدورها.

هكذا، نعثر في النص الروائي على وجودين (وهما وجودان في النص وجودان له، في نفس الآن): الأول بما هو قوة وضعية (فرضية) - حسب تحديد أيزر - والآخر بوصفه ميداناً مرجعياً، حيث يخلق النص «عالمًا جديداً فريداً في كل لحظة، وفي الوقت نفسه يحور ذاته كي يشير إلى واقع مألوف موجود سلفاً»¹⁹.

يبدأ كل شيء بمكر العين، في لعبة تشغيل الاحتمالات، ثم تعود المشاهد إلى منطلقات تشكّلها الإيديولوجي. نختزئ المقطع فنعثر على مستوى من التجريد الفني أعلى من مستوى التجربة التي يمثلها، ثم سرعان ما يذكرنا بوظائفه. إن الكتابة المشهدية في تعدديتها تمثل علاماتٍ في سبيل حكاية تمضي نحو نهاياتها، لكنها أيضاً تمثلات لتجربة عنيدة تصر على أن تبقى عصية عن كل تجريد فني أو جمالي.

إن فضاء اليومي في كتابة سحر خليفة، وبخاصة في «الصبّار» و«عباد الشمس»، له

16 - Ibid., p. 9.

17 - La production de l'espace, op. cit., p. 299.

18 - Ibid., p. 249.

19 - انظر كتاب وليم راي، المعنى الأدبي، مرجع المذكور، ص. 68.

أهمية استثنائية. إنه صيغة لحكي مضاعف، وفيه نثر فعلا على أحد أبرز النماذج الروائية لتشخيص ما يسميه باختين بالكرونوطوب، خصوصا «كرونوطوب اللقاء» أو «كرونوطوب الطريق»: في الروايات تنعقد اللقاءات عادة في الطريق، مكان اختيار الاتصالات العابرة. في «الطريق العام» تتقاطع في نقطة التداخل الزمكاني ذاتها سبل عدد من الأشخاص من مختلف الطبقات، الأوضاع، الأديان، الجنسيات والأعمار. هنا يمكن أن يلتقي صدف أناس تفصلهم في العادة تراتبية اجتماعية، أو فضاء، ويمكنهم أن يخلقوا أنواعا من التناقضات، حيث تصطدم أو تتعثر مصائر مختلفة²⁰. الكرونوطوب بما هو زواج الفضاء بالزمن يحدد هنا، وفق منظور باختين، الوحدة الفنية للعمل الروائي في علاقته بالواقع بل الأفق الضروري لاختراق عالم المعنى²¹.

لا تدع سحر اليومي - كفضاء - يستعرض نفسه حرًا.

إنها تقيم علاقة باطنية مع المشاهد العابرة. ترحل باتجاه المرئي كما يمضي الرسام باتجاه «الموتيف» (Le motif) الذي سيرسمه. وطبعاً فهي لا تعكس هذا المرئي - كما قد يحدنا تتبع الصور اليومية في كل مشهد - ولكنها «تجعله مرئياً» (بول كلي P. Klee) 22. كأنها - وهي تكتب اليومي - تسعى لتحويل فضاء خارجي عبر اللغة، لغة الكتابة ولغة الروح، إلى فضاء باطني. كأنها تود أن تحتزن فضاءً يستعد لأن يمحي بعد قليل. تخرج الكتابة - فيما يُخيّلُ إليّ - إلى اليومي بصحبه وحركه، بمواجهاته واحتكاكاته، بعلاقته وتطابقاته، بصمته وإيماءاته، وتنخرط في كتابته كتابة جسدية، مباشرة وفورية. ترى المشاهد ولا توجّلها. تسمع الأصوات وتلتقطها قبل أن تتلاشى. أقصد أنها تكتب كتابة تستلزم «القرب والحضور والمواجهة» عكس مشرّطات «الكتابة المرتبطة بالتأجيل، بالإرجاء بالغياب» التي يشير إليها عبد الفتاح كيليطو استناداً إلى دريدا²³. ومن ثمّ، يمكن القول بأن سحر خليفة تغذي كتابتها أساساً بما تشاهده. حركة العين هي حركة الذاكرة في نفس الفضاء، في نفس اللحظة.

إن شخصيات سحر لا ترى المشهد بأعين اللحظة العابرة والطارئة فحسب، بل تراه

20 - M. BAKHTINE, *Esthétique et théorie du roman*, *op. cit.*, p. 384-385.

21 - *Ibid.*, p. 398.

22 - انظر: 17 p. *La production de l'espace*, *op. cit.*

23 - عبد الفتاح كيليطو، *الغائب، (دراسة في مقامه للحريري)*، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987، ص. 66.

أيضا من خلال ذكرياتها. وفي هذه الذكريات تستضيء المشاهد التي تراها الشخصية الروائية بالمشاهد التي قرأتها (كما يحدث كثيرا في رواية «لم نعد جوارى لكم»: زرادشت (ص. 53) - دكتور زيفاجو وعمر الشريف (ص. 54) - د. هـ. لورنس (ص. 56 - ص. 69 - ص. 130) - همنجواي، شتاينبك، ديكنز، جين أوستن، شارلوت برونتي، البرتو مورافيا (ص. 60) - فرويد (ص. 65) - يونج (ص. 67) - رود زورث (ص. 68) - سارتر، سيمون دو بوفوار، كوكو، راسين، بودلير (ص. 74) - شرلوك هولمز (ص. 86) - دالي (ص. 90) - جان دارك (ص. 104) - تشايكوفسكي (ص. 113) - روك هدسون (ص. 129) - بيكاسو (ص. 148) - جيفارا (ص. 158) - ...)

الكتابة بهذا المعنى تجعل «وظيفة الواقعي ووظيفة اللاواقعي»²⁴ متضامتين. إذ ليست أمامها أية استحالة كي تمسك بإيقاع اليومي. ما اليومي؟ إن لم يكن في العمق إيقاعا؟ ما الإيقاع إن لم يكن هذه التلاقيات والتقاطعات بين الأمكنة، الأشياء، الأفعال ودق الصور؟ «إن له قانونه في ذاته، له انسجامه؛ وهذا القانون يأتيه من الفضاء، فضائه هو، ومن علاقة بين الفضاء والزمن. ومن ثم، فكل إيقاع يمتلك ويحتل واقعاً فضائياً زمانياً»²⁵. مع ذلك، تبقى حقيقة الفضاء تصورية، ولا يمكن بالتالي لأي خطاب روائي عن الفضاء أن يكون واقعياً تماماً أو متخيلاً تماماً. لنقل من ثم إن فضاء اليومي لدى سحر خليفة متخيل ومتحقق في نفس الآن.

هذا يقودنا بالطبع إلى سؤال نظري: أية علاقة بين اليومي وبين الفضاء؟ والأكد أن العلاقة بينهما وثيقة - على نحو ما يوضح ميشيل مافيزولي²⁶ - وهما يشكلان كلا إيقاعيا ملتصحا. لكن الجميل في هذه العلاقة هو الإمكانية التي يتبعها اليومي، كمشهد يتصافر فيه العابر والمقيم، للفضاء كي يصبح ممكناً ذهنياً. وأيضاً ما يتيح اليومي للفضاء الروائي بالذات من عناصر حكاية طارئة: أن نكتشف شيئا بالصدفة فيما نحن نبحث عن شيء آخر، أن نثر على محكمات داخل المحكي.

ولا يفوت باحثين، ضمن تحديداته النظرية النابذة، أن يقف عند فضاء اليومي بما هو تكرار «العادي»، حيث يتخذ الزمن شكلاً دائرياً متخلياً تقريباً عن مجراه التاريخي المتقدم.

24 - G. BACHELARD, La poétique de l'espace, *op. cit.*, p. 238.

25 - La production de l'espace, *op. cit.*, p. 238.

26 - Michel MAFFESOLI, L'imaginaire dans l'espace, in *Imaginaire de l'espace*, Espaces imaginaires, *op. cit.*, p. 23.

فلا يتقدم إلا في مسافات ضيقة ودوراتٍ محدّدة: دورة اليوم، دورة الأسبوع، دورة الشهر، دورة حياة بكاملها. فلا يكون اليوم أبداً يوماً، ولا تكون السنة سنة أبداً، ولا الحياة حياة أبداً. من يوم لآخر تكون الأفعال العادية نفسها، تتكرر نفس مواضيع الحديث، نفس الكلمات... ومن ثم فالزمن الذي يخترق الحياة اليومية يظلّ زمناً نخبياً، لزجاً، يزحف في الفضاء بدون أن يصبح زمناً رئيسياً للنص الروائي، وإنما يبقى عليه الروائي كزمن تكميلي ثانوي²⁷.

وفي الحقيقة، فإن سحر خليفة - فيما تبدى لي - مدركة لمسألة أساسية، وهي - فضلاً عما ينتجه اليومي من قيم جمالية للكتابة الروائية - أن الرواية يمكنها أن تمسك باختلاجات «التاريخ الصغير الذي يُصنَّع ويُهدَّم يوماً بيوم»²⁸، بتعبير ريجيس دوبريه، فيما هناك «تاريخ كبير» عادة ما يتوفر له من يكتبه ويقتفي آثاره.

إن الإيقاع اليومي بالنسبة إليها مشبهةٌ ينبغي أن تشد النظر وتستدعي الفكر معاً، فليس ثمة قريب لا يمتد إلى شيء بعيد، وليس ثمة من حضور لا يؤشر إلى غياب. ورغم أن شخصياتها عموماً لا ترى إلا ما تنظر إليه وما تراه هو الذي في متناول اليد، وتعتبر ميرلوبونتي²⁹، فإنها على وعي بالقيمة الرمزية للأشياء المرئية، بالمعرفة المضنية كذلك التي يعطيها الفضاء اليومي عن واقع وقضية وأفق الناس الذين تحكي عنهم. ومن ثم أهمية التضامن الذي تقيمه سحر خليفة بين المرنى واللامرنى في فضاءها الروائي.

من هنا، فقوة سحر خليفة كروائية - بالنسبة إليّ على الأقل - لا تكمن في المشون الحكائية لرواياتها، ولا حتى في البناء الروائي الذي يظل لديها عادياً وتقليدياً. إن قوتها كامنة في ذكاء الكتابة التي لا تكفي بإدراك ما يُقدَّم نفسه للإدراك، بل في الهامش «اللامُدرَك» الذي يرافقه ويتخذهُ أفقاً له. ذلك لأن «النظام الظاهر ليس هو النظام الحقيقي»³⁰ بالنسبة إليها. أكثر من ذلك، فإن شخصياتها المتدفع في إدراك وحيد لليومي (أي أنها في هذا الفضاء، وأن هذا الفضاء لها و«ليس لها» في نفس الوقت) إنما تتحرك في

27 - M. BAKHTINE, Esthétique et théorie du roman, op. cit., p. 388-389.

28 - ريجيس دوبريه، نقد العقل السياسي، ترجمة غيف دمشق، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، ص. 6.

29 - MERLEAU-PONTY, L'oeil et l'esprit, Ed. Gallimard (Folio), Paris, 1964.

30 - انظر: Territoires de l'imaginaire, op. cit., p. 222.

«تأولية اليومي»³¹ التي تصوغها ككتابة لتفعيل أحد مكونات فضاءها الروائي. مع ذلك لدى شعور بأن سحر خليفة، وهي تَجْهَد البَصَرَ لا متلاك فضاءات متموجة عنيدة، لا تجد اللغة ولا الكلمات القادرة على استيعاب الحمولة الدلالية للمشاهد. من ثمَّ تقنية *التأطير* التي تشتغل بها كثيرا في بناء تفاصيلها الفضائية، حيث يظهر الفضاء اليومي في صيغة لوحة فنية أو نافذة مفتوحة على تفصيل أو مقطع مشهدي أو مرآة أو صورة فوتوغرافية...

II - التأطير: عن العين والنافذة:

يبدأ تأطير المشهد في كتابة سحر خليفة بدءا باستعمال التقنية الفوتوغرافية، ثم باستثمار عنصر التفضية (Spatialisation) كتقنية تصويرية (Picturale)، وصولا إلى الأدوار التي تمنحها للنافذة في تشكيل الصورة المؤسسة للمشهد كما لو كانت الكتابة الروائية لا تكتفي بأن تجعل القارئ يشعر فقط، بل تحرص على جعله يرى كذلك. في روايات سحر أيضاً، كما في الكتابة البروستية³²، يحدث أن الشخصية ترى الفضاء يَنْشَطِر وينقسم، بل ويتكلف الصوت السارد نفسه، الشخصية المركزية في «مذكرات امرأة غير واقعية» بتشطير المشهد قصد التركيز على بعض صوره في محاولة للتغلب على انعدام الحركة فيما نراه. للتعرف أكثر على دينامية باطنية وحده يقيننا غير الموهل هو الذي لا يرصدها، أقصد «ثبات فكرنا باتجاهها»³³.

• «وتأمل صورة معلقة على الحائط تمثل العائلة كلها. الأب بجلال قدره وقد جلس في الوسط وإلى جانبه زوجته المستكنة، ورعيل الأطفال من حولهم. عادل خلف أمه تماما، وقد تبذت على وجهه المراهق لمسات حساسة تنم عن نفسية قلقة وأحلام طوباوية. ونوار الطفلة بصفائر وشرائط وخطود مكتظة مستديرة، وباسل الصغير وضحكة عفريته على وجه مدحج بالشقاوة والتمرد. وأطفال آخرون بعضهم مات وبعضهم مازال حياً ينمو ويكبر...»
(عباد الشمس - ص. 40).

31 - ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، م. م، ص. 106.

32 - G. POULET, L'espace proustien, *op. cit.*, p. 18.

33 - *Ibid.*, p. 18.

• «وهذه المرة حلمت بأمي ودار العيلة. إخوتي وأخواتي كلهم جلوس في الديوان يحيطون بأمي وكل يحاط بعائلته. زوجات أزواج أطفال وصور تذكارية لكل منهم. الأب والأم في وسط الصورة، والأولاد على الجانبين وفوق الرأس وفي الأحضان وفي كل مكان. لكل أخ وأخت صورة، صورة العيلة المعهودة، أما أنا فبدون صورة لأنني كنت بلا أولاد. أُمِّي في صدر الديوان مثلي وحيدة رغم الإحاطة. كانت تنظر في عيني وتبكي وتحرك شفيتها همسا. «أنا وأنتِ بدون صور». همستُ «بل أنتِ في كل الصور»...».

(مذكرات امرأة غير واقعية، ص. 88).

إن اختيار الصورة الفوتوغرافية بالذات ليس اختيارا اعتباطيا في هذا السياق. أقصد أنه ليس مجرد لعبة جمالية مجانية. إن الأمر يتعلق بأداة تشكيل ذهني. ثمة أولا نوع من التثبيت للماضي في الصورة. العائلة المندثرة كذاكرة وكسلطة أبوية منهاره وكأصوات وأعمار وأسماء، والعائلة البعيدة المتخيلة، المحلوم بها، تثبتهما الصورة، توطنهما في لحظة استعادة واستغراق تأملي. وطبعاً، فالصورة هنا لا ينظر إليها كما يُنظرُ إلى شيء آخر. يتغير النظر لأن الأمر يتعلق بفضاء موطن تستدعيه رؤية فوتوغرافية. نحدق في شيء أكثر مما نحدق في شيء آخر. تتسكع العين عزلاء في المشهد العائلي مرفوقة بالفكر، بالموقف الذي يمليه الجسد. غير أن «الرؤية فكر مشروط» كذلك. «إنها تولد «مناسبة» ما يأتي إلى الجسد»³⁴. ذلك لأن المشهد الذي يتبدى «داخل الخارج وخارج الداخل»³⁵ لا يمكنه إلا أن يوحد الراجي والمرئي. يوقظ الفكر والمشاعر.

من الصعب أن أقرأ رواية كمتالية صور بدون أن تستوقفني الصور داخل الصور، خصوصا لما تكون الصورة الفوتوغرافية بالذات جيء بها أساسا «لا كسؤال، (ثيمة)، بل كجرح: أرى، أحس، وإذن ألاحظ، أنظر وأفكر» بتعبير بارت³⁶. ولا تدع الكتابة الصورة تقدم نفسها بدون أن توشح فيها إلى تفاصيل معينة كي نراها أكثر، كي نتوقف

³⁴ - Merleau-Ponty, L'oeil et l'esprit, op. cit., p. 51.

³⁵ - Ibid., p. 23.

³⁶ - Roland BARTHES, *La chambre claire, note sur la photographie*, Ed. Gallimard - Seuil (Cahiers du Cinéma), Paris, 1980, p. 42.

عندها أكثر، كي نصوغ من خلالها مشاعرنا أو رؤيتنا. ليس ثمة من ترتيب محايد لتفاصيل الصورة: «الأب بجلال قدره وقد جلس في الوسط وإلى الورا وإلى جانبه زوجته المستكنة» و«الأب والأم في وسط الصورة...». دائما نفس الصورة العائلية في تاريخ التصوير فوتوغرافي: الهية، الروح المحافظة، السلطة الرمزية الخفية، وروح التكلف. العين تشتغل هنا على الصور، على ماضٍ يحدث أن يمتد إيقاعه إلى المستقبل. وهي بصدد الإمساك بهذا المنفلت. لكنها علاقة تخلو من كل غواية، كأننا بصدد عين للإقصاء. إن المرئي في الصور هو الذي هيأته الكتابة للرؤية.

لنحذر. لكن اللامرئي (L'invisible) أيضا موجود في الصور. إنه ليس عدما، بل هو فقط غير مرئي في طريقة ترتيب العلامات والتفاصيل، ويمكنه أن يكون مرئيا من زاوية أخرى للنظر والترتيب. في كتابه «المرئي واللامرئي»، يتساءل ميرلوبونتي عن معنى اللامرئي، ويرى أنه «ما ليس مرئيا الآن، لكن يمكنه أن يغدو مرئيا، فهو قد يكون سمات محجوبة أو غير راهنة. اللامرئي هو ما هو نسبي بالنسبة للمرئي»³⁷.

يتعلق الأمر إذن في التأطير بتوفير إمكانيات للإمساك بالرائل، للتحكم في المنفلت وتقييده في إطار الصورة. هل يتعلق الأمر بإيلاء نوع من الامتياز للمرئي؟ ربما، فالقارئ النابه عندما لا يقوى على اجتياز المشهد المُوَطَّر في النص الروائي لابد أن يرفع عينيه عن الصفحة ويسائل العتمة قليلا.

نظريا كذلك، يمكن أن يكون التأطير في كتابة سحر خليفة أداة لإبراز مشاهد المحكي وجعلها ناتئة، لا في العين فحسب، بل وفي الذات القارئة. لم لا نقول أيضا بأن التأطير هنا هو التحديد: أن نسيج الأشياء والتفاصيل كي نلقاها دون غيرها أو نلقاها أعماق من غيرها.

لقد كان بإمكان الكاتبة أن تحكي مشهدها دونما حاجة إلى تقنية تأطيره عبر صورة فوتوغرافية، لكنها لم تفعل، لأن لها استراتيجيتها. وما يحدث للقارئ المتعجل أنه يرى اللوحة، أقصد القماش المرسومة بدون أن يرى الإطار الذي يحيط بها، كما لو لم يكن الإطار مكونا من مكونات العمل المرئي على نحو ما يوضحه يوري لوتمان في «بنية العمل الفني»³⁸ ببعض العمق والتفصيل.

37 - MERLEAU-PONTY, *Le visible et l'invisible*, op. cit., pp. 310-311.

38 - Iouri Lotman, *La structure du texte artistique*, op. cit., pp. 299-309.

وضمن فضاءات اليومي تتعدد استعمالات سحر لتقنية التأطير. يمكن أن أستحضر مثلاً تأطيرها لما أسميه هنا بامتداد المشهد القروي في المشهد الحضري. كأنها بصدد تكبير التفصيل العابر ودفعه إلى مقدمة المشهد:

• «شمسي الفلاح وراء حماره الحمل بالفاكهة والخضار واللبن، ويردد أنغامه المألوفة السمحة: «هاي التين، هاي اللبن، هاي الفقوس...» ويكون الصبح مازال في أول إشراقاته، والشمس ما تزال مختبئة وراء الهضاب»

(لم نعد جوارري لكم، ص. 162)

• «ومرّ بهم فلاح وحمار أعرج يحمل فاكهة أكثر من طاقته..»

(لم نعد جوارري لكم، ص. 163)

• «ومرت بها عربة كاز. صهريج مرفوع على عجلات يجره حمار. القوة الدافعة محمولة على كفتي حمار. وهوى البائع بعصاه على مؤخرة الحمار فخبخب. الكاز يسير حمار، والحمار يتلقى الضرب ولا يرمش.»

(عباد الشمس، ص. 120)

طبعاً، لا يعني التأطير بما هو تثبيت لمشهد أو لصورة تجميدا لحيوية الأشياء والموضوعات، وإنما بقصد تشغيل وتنشيط الإحساس عند كل قراءة. وقد علمتنا الاستيقاظ الماركسية بأن حتى «لوحة الطبيعة الميتة، بالرغم من أنها تصور أشياء جامدة، تثير فينا أفكاراً حول الإنسان»³⁹. بمعنى أن التركيز على تفصيل في الفضاء اليومي يقود إلى تداعياته. ننظر إلى الشيء الذي يبدو داخل الإطار جامداً، لكنه يحرك إحساسات معينة لدينا، أو يعبر عن بعض حاجتنا، أو يحيل على مرحلة من مراحل التجربة المحكية، أو يلفت رغبة التأمل.

إن سحر تلتقط المشهد العابر للحمار في فضاء المدينة كي تقيم نوعاً من التقاطع بين البادية والحاضرة، بين زمنين أيضاً. إنها طريقة لإعطاء الفضاء بعداً زمنياً. لحظة من تلك اللحظات التي كان يقول عنها أراغون بأنها ليست «إلا مناسبة لمحاولات في رسم طبيعيات مية».

39 - انظر: «عناصر الاستيقاظ الماركسية»، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 69، ليوم 17 مارس 1985، ص. 7.

لا يتعلق الأمر بمجرد يسوقه وجه زراعي في الشارع، بل بأرض وبذاكرة وهوية. يرتقي الفضاء اليومي من مجرد تفصيل تلتقطه نظرة حشة إلى أعمق ما في الواقع من هشاشة تاريخية ووجودية. وعلينا ألا ننسى في هذا السياق أن نظرة الشخصيات الروائية، وهي توظف المشهد اليومي، ليست محايدة، إنها على العكس مشبعة بضرورة الحياة الاجتماعية وبالتاريخ. لنقل بالأحرى إن الكاتبة تحرك حواسها، جسدها في كتابتها كي توقف/توقد المعنى في الأجساد الأخرى.. وفي الأشياء الأخرى. ذلك لأن تقنية الكتابة مثل «كل تقنية هي «تقنية جسد»⁴⁰. إنها تستدرج صور الفضاء اليومي كي تشكل موجّها رئيسيا لإنتاج «الواقعي».

لقد استوقفني الحضور الكثيف والمتنوع للنافذة في مجموع روايات سحر خليفة. حضور طاع لا يمكن ألا تكون له وظيفة في صوغ المعنى الكلي لهذه التجربة الروائية: تجربة فلسطينية أساسا كتبها امرأة.

إن النافذة تملأ الروايات الخمس. تحضر كما لو لتقول الأمكنة بوفرة. ولكن أيضا لتعبر بوضوح عن كتابة لها رهانات ويحركها نظام معرفي جاهز وخاص.

إزاء النافذة، نحن بصدد رصد محكي حقيقي يوازي المحكيات الرئيسية في الروايات. «محكي مكاني» قد يساير المحكي الرئيسي وقد «يشتغل وفق إيقاع مخالف»⁴¹، لكنه محكي مُفكّر فيه غالباً.

إن هذه الكوة المؤطرة أيضا مكاناً لعبور النظر من الداخل إلى الخارج، ومن الخارج إلى الداخل. «لها معنى مزدوج» على نحو ما يوضح ذلك هنري لوفيفر⁴². وإذا كان الباب مكاناً للعبور، فهو مفتوح لعبور جسدي كامل. يخرج الجسد ويدخل بكامله. أما النافذة فلا تسمح بأكثر من عبور الضوء والنظرات. تكاد النافذة تكون مرآة. أما الباب فيبقى مشدوداً إلى بعده الوظيفي (النفعي). أقصد أن النافذة تتيح إمكانيات أكثر لبناء المعنى، خاصة ما تتيحه للقارئ من «تمثل بانورامي» للفضاء اليومي، وأعمق من ذلك.. إمكانية

40 - MERLEAU-PONTY, L'oeil et l'esprit, *op. cit.*, p. 33.

41 - انظر للاستئناس: أحمد البيوري، «اشتغال المحكي المكاني» في رواية «الغربة» لعبد الله العروي؛ قراءة جديدة لرواية «الغربة»، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي ليوم 14 يناير 1988.

42 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, *op. cit.*, p. 241.

«التمثل الشئري» الذي تفرضه قوة التأطير ويستلزمه ما يسميه جورج بولي بـ «تصدع معين في حقل النظر»⁴³.

هكذا تفسح النافذة للنظرة القارئة شكلا آخر للقراءة: حيث تحضر النافذة يتأسس محكي جديد داخل المحكي الرئيسي. يصبح المقطع السردى، وأحيانا الصفحة الواحدة من الرواية، شاشة للمشاهدة. تغلو القراءة ممكنة أيضا بالعين وبالصمت. لتتذكر هنا تقنية الروائي الفرنسي كلود أوليبي OLLIER، في روايته «حكاية غامضة» *Une histoire illisible*، مثلا، أو في أقصوصته «وصف اشتغالي لحي حديث» على الخصوص التي يقف عندها مطولا جان ريكاردو⁴⁴ في سياق مساءلته للعلائق القائمة بين الوصف والمعنى. لنقم أولا برصد لهذا الحضور القوي، المتعدد للنافذة في الروايات الخمس، وذلك لنلمس إلى أي حد يمكن لهذا الشكل الفارغ أن يكون ممتلئا بالمعنى. لنرى بتعبير رولان بارت كيف أن «نوعا من الدرجة الصفر» للفضاء يقول أشياء كثيرة⁴⁵:

1 - لم نعد جوارى لكم:

- «لكن السيدة كانت تتأمل الشعاع الذهبي المنبثق من خلال زجاج النافذة الأصفر بصمت، وكانت تفكر بشروء..» (ص. 6)
- «قطرات المطر يصبح لها صوت عذب، أعذب من نقرات طائر الحسون على زجاج نافذة في الصباح..» (ص. 7).
- «ولهذا أضطر إلى فتح النافذة حتى أرى حقيقة الأشياء» (ص. 9).
- «وقامت واقفة واتجهت نحو النافذة، وأخذت تنظر من خلالها إلى الحديقة..» (نفس الصفحة).
- «وأطلقت ضحكة مرحة طارت عبر النافذة..» (ص. 10).
- «استدارت بوجهها نحو النافذة المفتوحة وقد بدأ عليها التجهم والغیظ.» (نفس الصفحة).

43 - G. POULET, L'espace proustien, *op. cit.*, p. 53.

- انظر: SUSAN Sontag, *op. cit.*, p. 40-41.

44 - انظر: جان ريكاردو، قضايا الرواية الحديثة، ترجمة صياح الجهم، مرجع ملكور، صص. 144-166.

45 - Voir, Suzan SONTAG, *op. cit.*, p. 40-41.

- «وأقفلت النافذة وخرجت بعد أن خلعت معطفها وعلقتة على المشجب بجانب الباب» (نفسها).
- «كان وجهها حزينا ويائسا، واستدارت نحو النافذة، محاولة إخفاء ما بها...» (ص. 32).
- «... وكان عبد الرحمان يقف بجانب النافذة يدخن، والابتسام يعلو وجهه» (ص. 34).
- «إناء فخاري على حافة النافذة تنسكب منه شلالات خضر من نبات الخنثار المنزلي، وضوء اصفر ينهال عليه عبر زجاج النافذة. وعلى الجدار المجاور للقاطع الخشبي بزواياه الهندسية تقبع لوحة «المرجريت»..» (ص. 36).
- «يومئذ، وكان المجد يحيط به من كل جانب، لمح سامية تقف في زاوية منعزلة بجانب النافذة، ترقبه من خلال دخان سيجارتها الذي لا ينقطع» (ص. 40).
- «وكانت هي تقف أمام نافذة القاعة المظلمة تنظر إلى العتمة في الخارج، والرياح تصفر، والمطر يتساقط، وفروع الشجر تهتز، وكانت الدموع تنهمر من عينيها...» (ص. 43).
- «وقفت وراء النافذة الصفراء (...) وكانت ما تزال تشد كفها إلى شفتيها وتمتم بوله، من خلال شهقات البكاء» (ص. 43).
- «وأنتِ أحبيتي... ومازلتِ تحبيني.. أنا أعرف هذا. أعرف. أعرف. رأيت ذلك في كل حركة من حركاتك. رأيت في لوحة «المرجريت»، وفي زجاج النوافذ.. في ثوبك الأصفر المهفاهف» (ص. 80).
- «هل أفتح النوافذ والأبواب وأسمع الناس صوتي لتصديقي» (ص. 87).
- «وفي ركن بجوار النافذة المسدلة الستائر قبع بضع أرائك جلدية، وقد نصبت حاملة لوحات وفيها لوحة لم تكتمل بعد...» (ص. 107).
- «وفهمت الدرس جيدا، فانهارت على الأريكة بارتطام، وتأوهت عمرارة، بينما اتجه هو ناحية النافذة يراقب بداية الظلمة في الخارج...» (ص. 121).
- «واستدارت بعينيها الزرقاوين نحو النافذة الكبيرة. وفجأة، وبدون سابق إنذار أخذت الدموع تتدفق من عينيها» (ص. 131).

- «قالت إيفيت وهي ترنو إلى النافذة الكبيرة: «لكنك لست محرومة!» (ص. 132).
- قالت إيفيت وهي تستدير نحو النافذة المطلة على الحديقة: لست سعيدة فيه [البيت]، لأحافظ عليه» (ص. 144).
- «وتطل النسوة في ثياب النوم من النوافذ والشرفات تنادين وتساومن وتشترين، وأحياناً تنادين وتساومن ولا تشتري» (ص. 162).

2 - الصبار

- «ومر تحت النافذة الصغيرة المرتفعة، وسمع دوي صفعات متلاحقة. وقف الشعر في رأسه، وتوقف عن المشي وقد تصلبت ساقاه. وكانت تصبح: ياكلاب، ياكلاب، ياكلاب. آي» (ص. 12).
- «ونظر نحو النافذة العلوية الصغيرة» (ص. 12).
- «استدار بظهره. أرسل نظره من خلال النافذة... وكيف يهدأ القلب الموجع!» (ص. 24).
- «- أترى هذه الجديّة؟
- ونظر من النافذة. ورآها جديّة بالفعل» (ص. 25).
- «واستدارت بوجهها نحو النافذة المقنطرة ذات الزجاج الملون. تماسكت» (ص. 33).
- «ناولوه أبو صابر فنجان قهوة وعاد ينظر من النافذة..» (ص. 129).
- «.. وعاد ينظر من النافذة بقلق» (ص. 130).
- «الحرمة تأخرت. لا بد أنها تقف الآن تحت نافذة أم بدوي تستغيان بقية نساء الحارة» (ص. 130).
- «لا أفارق النافذة إلا للنوم» (ص. 140).
- «وقفت واستدارت نحو النافذة، ورأت الجيران يحملون من وراء زجاج النوافذ المضأة، وكانت أم صادق تختفي خلف الستارة تسترق النظر من شق صغير بين الضلفتين..» (ص. 141).
- «وركب الجنود السيارات تاركين الحي مضأة النوافذ» (ص. 143).
- «وقف خلف النافذة يرقب مطلع الدار بقلب واجف» (ص. 168).

- «أم عادل تقف في نافذة أم أسامة ترقب الرجال يروحون ويحيثون بالمتاع الذي تحفظ كل قطعة منه عن ظهر قلب» (ص. 172).

3 - عباد الشمس:

- «و حين قام رشاد عن مصطبة النافذة مشى بقمزة تشبه قمزات شحادة» (ص. 25).

- «ملأت سعدية الصحن لشحادة فحمله وجلس بجانب جمال على النافذة المغطاة بالطرايح» (ص. 26).

- «وتأملت نوافذ جاراتها التي كانت ما تزال مغلقة، وتمنت أمنيته اليومية الثانية، أن تظل النوافذ مغلقة إلى الأبد» (ص. 32).

- «وتظل الأم في زاويتها على مصطبة النافذة تمضغ أحزانها ووحشتها مسترجعة ماضيها، متأملة حاضرها، متخيلة ما سيكون عليه المستقبل من وحشة وقسوة» (ص. 34).

- «وتفتح شبك المطبخ المقابل لشباك أم تحسين وتغني وهي تصنع الحساء والعجة للعشاء» (ص. 35).

- «وترى النسوة في الشبايك يرمقنها بحسد وغيرة» (ص. 35).

- «وتأملها تقف أمام النافذة من خلالها تنظر للسماء..» (ص. 38).

- «هذا فراش حقيقي. وليس برشا. وهذه نافذة عريضة وليست كوة» (ص. 43).

- «تراكم الثلج مرة على النافذة المعلقة» (ص. 59).

- «حضرت نوار ووقفت خلف النافذة المسيجة» (ص. 59).

- [نوار] «نافذة رمزية» (ص. 60).

- «وأخرجت رأسها من النافذة ولوحت بيدها..» (ص. 77).

- «ومدت خضرة يدها من النافذة تلوح لسائق باص إيجيد» (ص. 78).

- «ونظرت إلى النافذة ورأت اختفاء اللون الأزرق وحلول الظلام فشبهت وضربت صدرها..» (ص. 85).

- «الهوام تحوم حول النافذة المضاءة» (ص. 93).

- «وتبعتها وهي تتلفت حولها وتنظر من خلال زجاج النوافذ» (ص. 94).

- «وأشعل سيجارته العشرين ووقف خلف النافذة» (ص. 104).
- «مدير وسكرتير التحرير هو شخص واحد. وفي العادة يجلس في قمة الطاولة عند النافذة العريضة المغطاة من المخمل العتيق» (ص. 125).
- «.. وتقولات ونظرات ونوافذ وأبواب تغلق فجأة حين تمر سعادتها بها» (ص. 228).
- «هزت رأسها وظلت تنظر إلى الناس من خلال النافذة..» (ص. 215).
- «ولم تصدق إلا حين فتحت أم تحسين نافذتها المغلقة منذ أشهر ونادتها وتحدثت إليها بلطف وعطف» (ص. 264).
- «ووجدتها تقف أمام النافذة الغربية تنظر إلى ساحة المدرسة حيث يتكروم الرجال صفوفاً» (ص. 275).
- «.. وعادت تمسك بقضبان النافذة تتأمل الرجال..» (ص. 275).
- «.. وعادت تمسك في النافذة..» (ص. 275).

4 - مذكرات امرأة غير واقعية:

- «لكنني بقيت في فراشي مريضة دون مرض أتأمل قطعتي تقف على حافة النافذة تتصيد نور الشمس» (ص. 15).
- «ينبعث صوتها باردا كخبر النسيم من نافذة هناك» (ص. 15).
- «فزعت الأبصار، أبصار الأولاد والرجال والنساء في النوافذ وعصافير سلك الكهرباء وغربان القرميد وضوء النهار» (ص. 19).
- «كانت تقفز من هذه النافذة إلى تلك ومن السرير إلى أعلى الخزانة. كانت كمن أضاع شيئا فطار صوابه» (ص. 26).
- «حاولت حملها لكنها تملصت وعادت إلى النافذة تمسك في ما وراء الزجاج. وراء الزجاج مبنى السفارة وحديقتهما وشجر النخيل. ومقابل نافذتنا مباشرة نخلة انزعت في عيني وذاكرتني إلى ما لا نهاية» (ص. 26).
- «بحثت عنه بين كل اللوحات وكل الألوان وكل الوجوه وكل النوافذ. ربما كان في البستان بين أشجار الصنوبر. وركضت نحو النافذة الشرقية، ولم يكن. ربما كان في الساحة الغربية، وركضت نحو النافذة الغربية» (ص. 27).

- «وفتحتُ لها الباب وأخرجتها لتنزل الدرجات وحدها وعدتُ إلى نافذتي» (ص. 29).
- «وعدتُ إلى نافذتي أنتظر رجوع عنبر [قطعة]» (ص. 33).
- «.. وأطلق قهقهة شامخة وراء النافذة وأنتشي» (ص. 35).
- «من النافذة رأيتُ عنبر..» (ص. 36).
- «وبكت أُمِّي وجففت دموعها ونظرت من النافذة وهمست: «قسمتك ومكتوبك..»» (ص. 38).
- «لماذا لا أركب سيارة أغلق نوافذها فلا أشم الرائحة ولا أسمع الأصوات المزعجة» (ص. 41).
- «سمعتهم يرددون خلفي أنني فتاة غير طبيعية فاشرعتُ في وجوههم سلاطة أين منها سلاطة نسوة الحواري اللواتي كنت أسمعهن يتراذن في النوافذ وأمام الأبواب» (ص. 55).
- «تعال يا حبيبي. فلنفتح النافذة، فهذا صباح جميل» (ص. 72).
- «نظرتُ من النافذة ومسحتُ دموعي. وقلتُ بلى، كل الأشياء تتغير، تغيّرُنا للأسوأ» (ص. 88).
- «وللحظة كلمحة برق على زجاج نافذة مغلقة..» (ص. 94).
- «.. ومن حيث أجلس ومن النافذة رأيت الناس في البلكونات ورأوني» (ص. 97).
- «كنت مشغولة عن الدنيا الكبيرة بالنظر من خلال نافذة صغيرة منها أحاول تلمس نور البداية» (ص. 101).
- «كانت الشوراع نائمة والبيوت مغلقة والنوافذ مضاءة..» (ص. 117).
- «الماء ينقر زجاج النافذة والمزrab. أحب الشتاء» (ص. 128).
- «وغافلتهم ونظرت من النافذة بحثا عن ابن الجيران، ولم أجده، ففتحت الباب كي أخرج إليه، فصاح والدي زاجرا: «عفاف!» فأغلقت الباب وعدتُ أنظر من النافذة جلسة» (ص. 129).
- «وراء هذه الستارة مصطبة النافذة العريضة. كنتُ أقف على المصطبة وراء الستارة وأصرخ..» (ص. 130).
- «وأرُمي بمحفظة كتي على الأرض وأندفع نحو مصطبة النافذة

كالصاروخ» (ص. 130).

- «كنت أعلم أنني في أحلك الساعات وأضيق الزنانات قادرة على فتح نافذة في رأسي أنفلت منها إلى عالم مليء بالبهجة والرقص والغناء والوجوه الباسمة المتأججة بالعواطف» (ص. 131).
- «أقف في النافذة وأنظر من خلال الزجاج وأرى الشارع الغربي خلوا إلا من رائحة البحر» (ص. 138-139).
- «وأعد النوافذ المضاءة وأقول إن خلف الضوء عتمة امرأة تجلس في الداخل تعاني كثرة الأطفال وتموت من الوحشة والشك» (ص. 139).

5 - باب الساحة

- «وجدته يقف عند النافذة والجبل الشمالي خلفه يأتلق بلبون الأصيل» (ص. 10).
- «دار سكينه ذات النوافذ والأباجورات المغلقة» (ص. 22).
- «حتى شققت قصارتها وتداعى الخشب عن نوافذها» (ص. 22).
- «توقف الجسم في النافذة وردد: «مين؟»» (ص. 58).
- «ونظرت من النافذة ورأت «سمر» تلفت من وراء قبة القرن» (ص. 60).
- «أغلق الناس النوافذ وسدوا أنوفهم بمحارم الكولونيا حتى داخوا» (ص. 67).
- «وقفت نزهة أمام النافذة ومدت نظرها عبر الزجاج وكانت أوراق الليمون تهتز وتلمع تحت المطر» (ص. 143).
- «استدارت نزهة وألصقت جبهتها بالنافذة وتنفست فغرق الزجاج وتذكرت أشياء وأشياء» (ص. 148).
- «فابجبه بعينيته نحو النور وزجاج النافذة والقضبان» (ص. 150).

إن حصيلة رصدنا لحضورات النوافذ في الروايات الخمس يؤكد بأن هذا التعدد ليس صدفة في هذه الرواية أو تلك: لم نعد جوارري لكم (21 مرة)، الصبار (13 مرة)، عبّاد الشمس (23 مرة)، ملذكرات امرأة غير واقعية (26 مرة)، باب الساحة (9 مرات). لقد كان من الممكن أن نرصد مكونات أخرى. (لَمْ لَا؟) كالجدران، الأبواب،

الممرات، السطوح، الشرفات، وغيرها. لكن النافذة تظل أكثر حضوراً وتعبيراً. نقصد أكثر تمثيلاً من حيث قوة التفصيل المعماري في طرح الكلي والعام. وبممكننا أن نقول - دونما مجازفة - بأن نافذة سحر خليفة، بكل امتداداتها ومظاهرها في الكتابة، تشكل «كرونوتوب» محددًا للوحدة الفنية للتجربة في علاقتها بالواقع وبمختلف سياقات الكتابة. ووفق تحديدات باختين، فإن النافذة هنا أيضاً تتبدى كرونوتوب عقبة 46، مُشبع بقيمة عاطفية عميقة. وما أكثر ما كانت النافذة تكشف فضاء مأزوماً لحظة حرجة (Le Chronotope de la crise) في حياة الشخصيات ومنعطفات الفعل الروائي. تمنحنا سحر خليفة في توظيفاتها للنوافذ قوة الإحساس بأن الحكاية الحقيقية ليست هي تلك التي تمر في الأمكنة المفتوحة والممتدة، بل هنا بالذات: في مصطببات النوافذ، خلف الستارات، وفي مناطق العتمة الكامنة خلف النوافذ المضاءة.

إن سحر خليفة بهذا المعنى تشيد فضاءاتها الاستعارية والرمزية تحت ظلال الفضاءات «الواقعية»، كي يعبر إلى أجسادنا خطاب جسدها: خطاب الهامش، خطاب الصمت، خطاب الظل، خطاب اللحظة. ألم يلاحظ باختين أن الزمن عموماً في «كرونوتوب» العتبة «يظهر كما لو كان لحظة. كما لو أنه بدون ديمومة» 47؟ ذلك لأن لحظة النافذة تستغرق الوقت كله تقريباً: «لا أفارق النافذة إلا للنوم» (الصبار، ص. 60). وبالتالي، تغدو النافذة مجرىً جيوغرافياً لحظة بلحظة، وفضاء مسعفاً للتخيّل. لقد سبق أن أكد غاستون باشلار في «شعرية الفضاء» بأن «الفضاء الذي تأسره المخيلة لا يمكنه أن يظل لا مبالياً، مستسلماً للمقاس ولتأمل المعماري. لقد كان معيشاً ولا يزال. لا في يقينته، بل بكل تغيرات المخيلة» 48.

معماريًا تشكل النافذة تكويناً ضوئياً أساسياً، نظراً لأهمية الضوء في تعايشنا اليومي مع العمارة. ومع أن هناك إمكانيات متعددة لإضاءة البيوت أو الغرف بكميات الضوء الطبيعي: الردهة المفتوحة المشرقة، الغرفة ذات الإضاءة السقفية الطبيعية، والغرفة ذات الإضاءة الجانبية.. وهي الأكثر شيوعاً على مستوى الاختيارات المعمارية 49. وربما لذلك،

46 - M. BAKHTINE, Esthétique et théorie du roman, *op. cit.*, p. 389.

47 - *Ibid.*, p. 389.

48 - G. BACHELARD, La poétique de l'espace, *op. cit.*, p. 17.

49 - انظر لمزيد من التفصيل: ستين أ. راسموسين، الإحساس بالعمارة، ترجمة المهندس عماد الكيلاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص. 202 - 203.

سجلنا أن النافذة الجانبية هي الأكثر حضوراً في معمار سحر خليفة. وهي الشكل الأكثر حضوراً على العموم في الآداب والفنون الإنسانية. بمعنى أن هناك تراثاً بصرياً يصعب نسيانه في قراءتنا ومشاهدتنا.

إن نوافذ سحر خليفة تذكر مباشرة بنوافذ الرسام الهولندي فيرمير Jan VERMEER في أعماله التصويرية. ذلك الفنان الذي اعتبرت لوحاته أداة دقيقة للبحث والدراسة، لا على مستوى مؤرخي ونقاد الفن فحسب، بل بالنسبة للمعماريين أيضاً الذين درسوا من خلالها علاقة الضوء بالنافذة، وتطور بناء النوافذ في المعمار الإنساني، الأوروبي خاصة.

والنافذة في روايات سحر عموماً تؤثر إلى نمط معماري شرقي، شكل نوافذه ينتمي إلى الشكل الهولندي، أي إلى مرحلة تاريخية في التطور المعماري (نوافذ ذات مصاريع لتنظيم الضوء، نوافذ ذات شبايك وزجاج لها علاقة بتأثيرات الجلاء والقتامة). وعلى العكس، لا نعر على نماذج لنوافذ حديثة، نوافذ لو كوربوزيه LECORBUSIER (1887-1965) مثلاً حيث تغطي النافذة الجدار كله. والأمر في نظري ليس اعتباطياً. فاختيار الكاتبة لنمط معين من النوافذ يندرج في استراتيجية كتابة أنثوية واضحة. هل هي صدفة أن أغلب ظهورات النافذة في الروايات كانت في نفس الآن ظهورات لوجوه نسائية؟ هل صدفة أيضاً أنه باستثناء مرة أو مرتين مرحتين، كل اللحظات الأخرى كانت النساء منكسرات النفس باكيات أمام النافذة أو خلفها؟ لا. إن الكاتبة تختار النافذة ذات المظهر العاطفي المناسب. كأنها - فيما يُخيلُ إليّ - تقوم باعتلام (Repérage) أمكنتها قبل أن تنتهي للكتابة. ولها من الدقة في ذلك ما يصل أحياناً حد الارتقاء بالوصف إلى مستوى رسم لوحة من نوع «الطبيعة الميتة»: «إناء فخاري على حافة النافذة تنسكب منه شلالات خضر من نبات الخنشار المنزلي، وضوء أصفر ينهال عليه غير زجاج النافذة. وعلى الجدار المجاور للقاطع الخشبي بزواياه الهندسية تقبع لوحة المرجريت..» (لم نعد جوارى لكم، ص. 36). ذلك أن ما هو مهم في هذا المشهد هو ما يرمز إليه وليس ما يقوله. بمعنى أن موضوع القراءة هنا ليس في المرئي، بل في الأمرئي أساساً.

هكذا، فإن النافذة بقدر ما تشكل فتحة ضوء معمارية، تظل بالنسبة لسحر خليفة مؤشراً إلى فضاءات مغلقة. وظيفتها موحية وتحركها أبعاد سيكولوجية متلائمة. النوافذ عموماً في هذه الروايات تكمن وظيفتها في رغبة «تعميق الحياة الباطنية للشخصيات»⁵⁰.

الفصل الخامس

سحر خليفة وأمكنتها

I - امكنة اللغة

إن دراسة المشهد اليومي إذن، وعلى نحو ما رأينا، تعود إلى الإمساك بجوهر الكتابة الروائية في تجربة سحر خليفة. ذلك أن تسييج قوة هذه الكتابة في قضية المرأة أو الثورة أو الاحتلال هو نوع من إفقار التجربة. وقد لاحظنا كيف أن العين تُدَرَّر الواقع تدريرا وتجعله - كما تفعل الصورة الفوتوغرافية مثلا - مطواعا وغامضا في نفس الآن. لكنها تبقى عليه، عكس الاشتغال الفوتوغرافي، مستمرا ومتداخلا.

إنها «توقف» الواقع مجهرها من خلال شذراته اليومية، من خلال تفاصيله، من خلال تكويناته المعمارية وملاحمه البشرية حتى تبني مشاهدتها الحية التي تملأ الفعل الحكائي بالحياة وبالخصوصية. وفي اللحظة ذاتها «تَدْعُ» الواقع مندفعاً دافقاً في سيرورته وامتدادته. وهكذا، فكلما كان المشهد جيدا، كلما أشرَّ إلى سياقه.

وكلما تحركت شخصية في السياق، حركت معها فضاء خصوصيا تمتلكه مثلما يمتلكها. الروايات الخمس نفسها تكاد لا ترح مدينة واحدة؛ فباستثناء مشهد عابر لتل أبيب نائمة، حيث يتدفق العمال من باب الشاحنة بينما «كانت الشمس ما زالت تغطي في سماء غائمة» (الصَّبَّار، ص. 45)، و«الأضواء والليل» في القدس التي يختزلها مشهد عابر في سور أترُي تجثم لصقة «نباتات شوكية لها ثمار حمراء مرجانية» (عباد الشمس، ص. 15). وباستثناء مشهد متباعد لأريحا «أخفض مدينة في العالم، أقرب مكان من نواة الكرة الأرضية»، حيث «الأرض خصبة هناك..» (لم نعد حواريا لكم، ص. 91). باستثناء ذلك تظل نابلس مدينة سحر خليفة بامتياز: *وحداية المكان المركزي قصد قيادة جيدة*

للمتخيل وضبط قوي للتفاصيل والخصوصيات والشخصيات¹.

إن سَحَر تكتب بوضوح كامل في سجلها الواقعي² ما في ذلك شك، لكن ينبغي مع ذلك الإبقاء على حدٍّ جذري فاصل بين الفضاء المكتوب والفضاء الذي تقدم الكتابة صوراً معينة عنه. وذلك بدون حاجة للعودة إلى تأكيد الحقائق التي أكدها باحثين وأكدت عليها مناقشات خصبة بين جرّار جينيت، ما شري، ألان روب غربي... مثلاً، من حيث إن الواقعية في الكتابة لا تعني مطابقة ما هو واقعي، لكنها تعني فيما تعنيه: الامتثال لقواعد الطبيعة الاجتماعية³، التقاط الخصوصيات الثقافية والرمزية، صلة الفضاء الروائي بالفضاء الواقعي عبر تشابهه (Analogie) أو تماثل (Homologie) لا عبر اتصال آلي مباشر⁴. من ثم، يتعين ألا ننسى الخاصية اللغوية والجمالية للفضاء الأدبي. ذلك أن ما تكتبه الكاتبة من واقع يظل خطاباً عن واقع، خطاباً ممكناً وغير ممكن في نفس الآن.

لقد حاولت الكتابة هنا أن لا تغمر الواقع بدفق وحتمية اللغة. بمعنى أن تظل قريبة من الواقع وهاربة منه في نفس الآن. ومن ثم قوة البناء المُشْهَدِي: أن ترسم المشهد أكثر مما تقول، أن تجعل وظيفة المشهد هي خلق الترقب أساساً لا ترسيخ الاحتمال الجاهز.

إن اللغة هي كل شيء. وهذا معناه أن لُحْ «كلية الواقعي تقدم نفسها في شكل لغوي»⁵. معناه أيضاً أن قراءة الفضاء في اللغة الروائية تستلزم نسياناً خاصاً: أن ننسى الفضاء في الواقع، وأن نتخلّص من «طغيان الاشتغال المرجعي»⁶؛ أي أن نقبل بأن المحتمل الوحيد الممكن هو أن لفضاء النص، في تجربة سَحَر، علاقة معينة بفضاء الواقع.

1 - انظر في معنى دلالة الفضاء على الشخصية، كيف يدل ديكور معين على شخصية، سكنى على ساكن، سجن على وضعية سجين... (فيليب هامون: سيمولوجية الشخصيات الروائية (مترجم)، مرجع ملذكور، ص. 71-72).

2 - يتحدث محمد براءة في دراسته: «باب الساحة»: مساءلة الانتفاضة (مجلة البيار، م. س.، ص. 109، عن وضوح السجل الواقعي للكتابة).

3 - Voir, A. ROBBE-GRILLET, «La vraisemblance et la vérité», in *Magazine Littéraire*, n° 103-104, Septembre, 1975, p. 84.

4 - انظر حديث بيير زعاً مثلاً عن هذا التشابه أو التماثل القائم بين الأحداث النصية والأحداث الاجتماعية، النقد الاجتماعي (مترجم)، م. م.، ص. 172.

5 - Susan SONTAG, *L'écriture même: à propos de Barthes*, op. cit., p. 34.

6 - R. BARTHES, *S/Z*, op. cit., p. 267.

لقد كان هنري لوفيفر يعتقد أن كلاً لُغَةً لُغَةً تتموضعُ في فضاء معيّن، وأن كل خطاب يقول شيئاً إنما يقوله عن فضاء معيّن، بل «يتعين أن نميز الخطاب في الفضاء، الخطاب حول الفضاء وخطاب الفضاء. وإذن هناك بين اللغة والفضاء بعض العلائق أكثر أو أقل إجمالاً»⁷.

ولا يتعين إدراك العلاقة بين الفضاء واللغة من خلال حصرها، بسذاجة وآلية، في محاولة تمييز معجم الألفاظ الدالة على فضاءات أو علائق فضائية مختلفة، بل الأمر - في نظرنا - أعمق من ذلك. إنه يطرح بنية المساحة اللغوية كلها، كمستويات تحقق التعدد اللغوي والصوتي... لو كانت التجربة غير التجربة، ولو كان الأمر يتعلق بدراسة مستقلة. لكننا مع ذلك نرى أن من الضروري مسألة هذه العلاقة كمدخل أساس لفهم بعض تجليات الفضاء في تعبيرات سحر خليفة.

إن أحد مظاهر أحادية الصوت رغم تعدد الشخصيات في روايات سحر خليفة هو الطفاني الواضح لفضائية التعبير. هل يتعلق الأمر مثلاً بشخصيات شبيهة بشخصيات سارتر، حيث العالم - بالنسبة إليها - مكانٌ مَخَارِجُهُ منغلقة، بدون مسارب ممكنة للخلاص، وحيث الإنسان مُطَالَبٌ بتحديد شروط وجوده فضائياً؟⁸

ومنذ روايتها الأولى ظلت لغة سحر فضائية بامتياز:

1 - لم نعد جوارى لكم

- «قالت سهى بتأكيد: "أما الفنان فهو البناء، قمة البناء." فقال فاروق ساخراً: "أي أنكم في الأعمالي، ونحن في أسفل السفح" (ص. 68).

- «أنا أريد أن أنظف الجراح، أن أسطح التفضنات، أن أضيء القاع، أن أعيد لعلاقتنا عمقها ونظافتها» (ص. 96).

- «فاضت دموع حنانها. فمد يده ولمس استدارة وجهها بأصابعه، كنحات يتحسس تمثاله المفضل» (ص. 102).

- «كرهت حتى لم يعد في داخلي مكان لأي شعور آخر» (ص. 121).

⁷ - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, op., cit., p. 155.

⁸ - Georges MATORE, L'espace humain, op. cit., p. 17.

2 - الصبار

- «ونقلته أحلامه إلى ما وراء الجسر. إلى اللوحات السماوية المفروشة على امتداد الوهاد والوديان» (ص. 10).
- «قال أسامة بحدة ونفاذ صبر:
- الصورة واضحة، ألا ترى؟
- قال الآخر وهو يهش الذباب عن وجهه:
- للصورة أكثر من بعد واحد» (ص. 28).

3 - عباد الشمس:

- [عن سعدية] «خامة ممتازة، مادة قابلة للتشكيل» (ص. 29).
- «خط يقرر خط المصائر. والخط عمودي جدا. اكسره إذن. اجعل عمودك وترا مثلثا، فتصبح حافته منحني» (ص. 62).
- «أنا لا أنكر أهمية باب "حل لمشكلك سيدتي" فقد أثار هذا الباب من التساؤلات والتجاوب ما لم يثره أي باب آخر. ولكن، كم مشكلة تعرض في هذا الباب؟ مساحة الزاوية كلها لا تزيد عن صفحتين من كامل المجلة. فما مساحة الباب؟ نصف صفحة، أي أقل من نصف قدم مربع» (ص. 144).
- «كان يجيل عينيه مرتفعا بهما نحو أعالي الصفصاف ثم ينزل بهما نحو قعر الجدول الجفاف» (ص. 224).

4 - مذكرات امرأة غير واقعية

- «تشوش الصورة والنظار والخلفية المنظور منها وإليها، احتزت في ممكن الخطأ واصله..» (ص. 34).
- «ماتت حرارة الألوان في نفسي» (ص. 58).
- «واتهمتها بأنها عديمة العواطف من جديد، وأنها تسيّر بين خطين متوازيين ولا ترى الأبعاد الأخرى» (ص. 108).
- «الأطر تحدتنا، وإننا في سبيل الإطار نضيع الحس» (ص. 120).

5 - باب الساحة

- «اندفعت الدموع إلى عيني سَمَر واختلطت الأبعاد عليها» (ص. 125).

من الواضح جداً أن وعي ولا وعي التعبير مسكونان بقوة التشخيص الهندسي والتصويري. فالسارد، والشخصيات الكاتبة الصَّوت، لهم نزوع فضائي. إن كل شيء، كل فرد موجود في المكان كأنه المكان ذاته. ذلك أن اللغة تقف قاصرة عن استيعاب قوة المشاعر والمواقف والرؤى، فلا تجد بُدّاً من أن تستعير سياق التمثّل، أي في النهاية كان لابد من الفضاء للتعبير عن الزمن وعن الفعل الروائي.. وعن كل شيء.

إنه بفضل الفضاء إذن تتمكن الكاتبة من أن تتعلق بالأشياء وأن تمسك بالمسافات الداخلية للشخصيات. هذا الفضاء الذي ليس «بمجرد فعل سيكولوجي - بتعبير جورج ماتوري⁹ - وإنما هو مرتبط بمجتمع معين»، هو هنا المجتمع العربي الفلسطيني بالذات في مختلف أبعاده وشروطه التاريخية والظرفية.

نعرف أن اللغات الإنسانية، عبر مختلف العصور كانت دائماً ممتلئة بمعجم فضائي، وليس من الأكيد أن كاتباً يمكنه التخلص من هذا الجاهز تماماً. لكن سحر خليفة في استعمالاتها له تختار بعناية ما يصدر منه داخل تجربتها الذاتية ونزوعها الجمالي الواضح، معماراً وتصويراً. من هنا نراء استعاراتها الفضائية، ومن هنا إسهام المعجم المعبر عن الفضاء في «الدينامية الفضائية»¹⁰ لكتابتها الروائية.

يكاد الفضاء يقدم نفسه بمثابة لغة مستقلة. فأكثر من استثمار فضائية التعبير الصحفي (الباب، الزاوية، المساحة...)، والخضوع لهيمنة التقاطب في اللغة المتداولة (الأعلى/الأسفل، السطح/العمق...)، هناك خصوصية التعبير الشخصي عند سَحَر: إضاءة الأعماق، الوجه المنحوت كوجوه التماثيل، الأمكنة الكامنة في الصدور، اللوحات المتعالية، أبعاد الصورة، نساء - خامات قابلات للتشكيل، خطوط المصائر، أعمدة الوجود وحافاته المنحنية، المتوازيات، الأبعاد، الصور، الأطر...

ومرة أخرى تغدو الكتابة تشكيلاً، حيث يؤثر الفضاء في اللغة، يُطَوِّعُهَا لتجاري امتداداته ولتحفظ الفوارق التي له عن الزمن. يجترح الفضاء، داخل الجسد اللغوي، مفرداته الخاصة مثلما تظل اللغة تحدده أيضاً. بمعنى أن الفضاء يُمنَح لنا مع اللغة ودخلها.

⁹ - Ibid., p. 22.

¹⁰ - Ibid., p. 34.

من هنا يمكننا إدراك أن كل فضاء هو فضاء لغة بالضرورة. وينبغي، كي يفهم بعمق معنى فضاء اليومي كجوهر للكتابة الروائية لسحر خليفة، أن ننسبه إلى أن التعلق بهذه اللغة الفضائية هو انتصار معين للفضاء، نوعٌ من تعزيز «القوى المَكْنَة للزمن»¹¹.

II الأشياء والأمكنة

لم تنته بعد من فضاء اليومي، بل إننا في صلبه بالذات. ذلك أن اليومي هو هذه البانوراما اليومية المنتشرة عبر امتداد النظر. إنه هذا الركام من الصور التي لم نختر أن نراها، بل نفتح الرواية تلو الرواية في هذا المَن فتتدفق علينا. لكن لنحذر، فهي مصفاة ومؤطرة وتقودها لغة مخدومة. صور تقول الحكيم كله، تشي بأسرار الباطن كما تكشف الملامح والأشياء والأفعال والمقاصد والأمكنة. صور تأتي إليك كما لو لتُلهيك عن الحكاية التي تبحث عنها وتمنحك حكاية أخرى. ومن ثم تقود النظر وتحول التأويل عن سكونه الجاهزة إلى معنى غير المعنى، وتملأ النفس بإيقاع آخر.

هكذا يغدو القارئ شاهدا طارئا على متالية من الصور الفضائية لم يختارها. لكن له حرية أن يراها كما يريد أن يراها، أن يجدد معناها في مغامرة نظر لها معرفتها وفتنتها. الأمر يتعلق بالأشياء والأمكنة التي نقرأها عبر ثنايا النصوص الروائية كما لو كنا نراها صورا معلقة على جدران. تلك التي نغمض العين ونراها كما لو كانت وضعتها الكاتبة تحت الجفون القارئة.

إن المسألة أعمق من مجرد تحليل خطاب روائي. إنها مسألة نظر. مسألة عين خاصة يحتاجها - فيما نعتقد - كل عمل نقدي. ذلك أننا لا نفهم كيف تلاحق القراءة الفعل الروائي من خلال اللغات خلف المحكي، متجاوزة الصور والتفاصيل التي يقضي الكاتب (ة) عمرا في جمعها وتمثلها. وهي تفاصيل قد لا تعني شيئا ذا بال بالنسبة للمحكي، وقد لا يكون لها من معنى إلا في حد ذاتها.

أفكر مثلا في هذا الشَّعْف بالأشياء في كتابة سحر:

• «أقمت أمام إحدى الشجيرات الشوكية تراقب الضوء. استدارت بوجه غارق في نشوة كالخلم.

11 - L'espace proustien, op. cit., p. 22.

- انظر.

- نظرت.

- أنظر للداخل. أترى ثمارها، لونها أحمر بلون الدم... بلون الحرية. يا إلهي.

أتراها؟ وهذا هل رأيته؟

وأطلقت تنهدات مشحونة بالعواطف الدفينة:

- هذه الأشياء تثرنني. انظر إلى خيوطه.

ونظر. عش عنكبوت تتلألأ خيوطه من خلال أشعة الضوء. واستدارت إليه

ووجهها يقطر إحساسا يبلغ في حدته رهاقة العاشقين.

- أترى؟

ابتسم ملاطفاً.

- آء هذا لم أرهء معك حقء قوة ملاحظتك غريبة.

ولمعت الفكرة في رأسه. الحريةء وخيوط العنكبوت.

هشت:

- «لأني أعشق الأشياء» *«عباد الشمس»* (ص. 15).

• «ولي مع الأشياء حكاية. لا حد فاصل بين الإنسان والحيوان والنبات

والجماد. كلها أشياء في نظري. والناس أشياء؟ أستغفر اللهء بل الأشياء

ناس. أفصد الأشياء عوالمء والناس عوالم. عالم الناس وعالم القطة وعالم

التفاحة وعالم القصة وعالم الأغنيةء كلها عوالم. أتعامل مع الأشياء بعاطفة

تبلغ حد المراهقةء وإعالمها تبادلني نفس الشعورء إلا الناسء أراهم

فيرهقوني» *«ملكرات امرأة غير واقعية»* (ص. 9).

• «أشياء بسيطة ولكنها عوالم» *«ملكرات امرأة غير واقعية»* (ص. 73).

إن قوة الملاحظة لا تخلو من «غربة» فعلا لأن الشخصيات تلهو بالنظر إلى الأشياءء

فيما يشبه ترجية للوقت. تماما كما تفعل أحداث العشاق: تتحدث عن أشياء وأشياء فيما

يبدو أن الشيء الأساس لا يتم الحديث عنه. لكن هذا الشيء مع ذلك موجود هناك في

منطقة الصمت الأكثر نطقاء في منطقة الغياب الأكثر حضورا.

ينبغي أمام كل هذه الشرذرات أن يتوقف القارئ على أهمية الغيابء أهمية الدور

الذي يلعبه المسكوت عنه. فما لا يُنْقالُ لا يعني أنه غير موجود. لتذكر الأهمية التي يوليها

امبرتو إيكو للغيابء وخاصة القيمة التي للغياب البنيوي من حيث «إن شيئا ما ليس هناء

ولأن شيئا آخر يظهر محله»¹²، مما يستدعي صيغا ممكنة لا شتغال الفكر وإنصاتا خاصا للنص. ومن ثم «يذكرنا هايدغر بأن الإنصات للنص كتجَلُّ للكائن لا يعني أن نفهم ما يقوله النص ولكن ما لا يقوله»¹³.

هكذا يمكن للأشياء الصغيرة أن تصبح عوالم، تضيء ما لا يُضَاء عادة في قراءتنا العربية المشبعة بالجاهز. الأشياء التي يفتح الانتباه إليها أعين القراءة النقدية على ما يشكل بعضها من شعرية الكتابة الروائية. وفي الظن أنه لولا قوة هذه التفاصيل الفضائية، وأمام هشاشة المتن الحكائي المركزي، لما كانت لكتابة سحر خليفة من قيمة.

في «باب الساحة» مثلا يصبح الجدار كالمرآة، جدارا يوقظ الذكرى ويوقد النظر أيضا: «نظر إلى الحائط وشعاع الضوء يتأرجح، وتذكر أياما أولى...» (ص. 175)، «وارسم الضوء على الحائط والتقط تفاصيل الأشياء...» (ص. 191)، «نظر إلى الحائط وشعاع الضوء، وأوراق الظل، وخيوط الشمس تتراجع» (ص. 192). كأن المكان شخص آخر يُحيي في الشخصية الروائية (حسام) فتنة التذكر.

وهنا، كما لدى مارسيل بروست، تتحد الشخصيات بالأمكنة، بالجدران والنوافذ والشرفات والغرف والبيوت والأسوار... وحتى بالأشجار والزهور والفواكه والحيوانات الأليفة. لقد انتبه جورج بولي في كتابة بروست إلى أن المكان يرتقي بالكائن فيه إلى المستوى الذي يجعله يندمج فيه، مثلما يُسرُّ الكائن إلى المكان الذي يوجد فيه بشيء من وحدته الخاصة، وهو نوع من تقابل التبادلات بين الأشخاص والأمكنة¹⁴. «إن الأمكنة تلعب في خيال الناس دورا لا يختلف عن ذلك الذي يلعبه الأشخاص. إن فتنتها وسحرها يصبحان فتنة وسحرا إنسانيين. إنها تحمل إسما يؤنسها ويُفرِّدها، تعرض نفسها وتتوارى، تخفي أسرارها، تحت على الرغبات، ترفع حُجُب الجمال»¹⁵. وأكثر من ذلك يؤكد بولي: «إن الأمكنة أشخاص»¹⁶، أي يصبح المكان، بمعنى ما، شريكا حقيقيا للشخصية في الفعل الروائي.

إن في تقديم سحر لأمكنتها روحٌ مختلفة. لا يتعلق الأمر بعملية وصف، بل بمحرص

12 - Umberto ECO, *La structure absente*, op. cit., p. 368.

13 - *Ibid.*, p. 371.

14 - G. POULET, *L'espace proustien*, op. cit., p. 43.

15 - *Ibid.*, p. 47.

16 - *Ibid.*, p. 47.

على جعل المكان أكثر قربا من القاريء كما لو كان يسكنه. إنه وعي بأهمية «التنظيم الخاص للفضاء»، ذاك الذي يتحدث عنه باختين، حيث يتحد الإحساس بالوعي، ويكون من المفيد «عقد موازنات بين الهندسة المعمارية والرسم»¹⁷، بين ما يبدو أنه وظيفي - معماريا وروائيا - وما هو جمالي كليا.

وفي أغلب الشذرات المعمارية لا نعثر على ما سَتَحُمُّله الكاتبة خطابا معينا في السيرة الحكاية أو السردية. وذلك كما لو كانت الكتابة متجهة فقط نحو تحويل المعالم الخارجية للأبنية إلى مشاعر وأمزجة للتخاطب بين الكتابة والقراءة. إن الواجهات والمقاطع والمساقط الأفقية والقرميد الأحمر لا تحضر إلا لتشكيل إيقاع جمالي مجرد ولتعميق الإحساس بقوة الفضاء المرئي وما يحيل عليه من ذاكرة أو بشر أو أشياء.

هناك مثال مضيء في «الإحساس بالعمارة»¹⁸ يمكنه أن يسعفنا في هذا السياق لفهم خطاب التفاصيل الفضائية: «لنتصور أنه بينما كان أحدهم يمشي مطأطأ الرأس، تلقى انطبعا عن رؤيته سروالا من الجينز الأزرق. وإشارة جيدة كهذه تكفي. فيعتقد هذا الرجل أنه رأى رجلا مع أن كل الذي رآه كان ميزة بدت مسدلة على جانب الساق. ومن هذه الملاحظة الصغيرة يستنتج أن رجلا مرَّ به على الرصيف. ويعزو ذلك ببساطة إلى أنه حيثما بدت تلك الميزة، فلا بد أن يكون هناك جينز، وحيثما كان هناك جينز فلا بد أن يكون هناك رجل في داخله. وعادة ما تنتهي ملاحظته عند هذا الحد. فهناك أشياء عديدة تبقى العين في حالة عمل في شارع مزدحم بحيث لا يتمكن المرء من إعمال ذهنه في المشاة من حوله. لكنه لسبب ما قد يود رجُلنا هذا أن يأخذ نظرة عن قرب لهذا الشخص، فيلاحظه بشكل أكثر تفصيلا. لقد كان مصيبا بشأن سروال الجينز، ولكن المرتدي كان فتاة شابة وليس رجلا. وإذا كان هذا المشاهد شخصا فضوليا فإنه سيسأل نفسه: «كيف تبدو يا ترى؟» وسيلاحظ عن قرب أكثر، مضيفا التفصيل تلو التفصيل، حتى يأخذ صورة أكثر أو أقل صوابا عن الفتاة».

هذا معناه أن الوقوف عند التفاصيل والتقاطها، الواحد تلو الآخر، يشكلان أداة أساسية لتكوين المشاهد المرئية والإمساك بفعاليتها الجمالية والشعرية في الكتابة الروائية. «وبشكل موضوعي، ليست هناك فكرة صحيحة عن مظهر الشيء، ولكن هناك فقط عدد

17 - م. باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، م. س.، ص. 149.

18 - ستين أ. راسموين، الإحساس بالعمارة، ترجمة عماد الكيالي، م. س.، ص. 41.

كبير من الانطباعات الذاتية عنه. وهذا صحيح بالنسبة للأعمال الفنية كما هو بالنسبة للنواحي الأخرى. فمن المستحيل القول على سبيل المثال بأن مفهوم الرسم هذا أو ذاك هو الصحيح، وفيما إذا كان يعطي انطبعا للمشاهد أم لا، وما هو ذلك الانطباع؟ والذي يعتمد على العمل الفني فحسب، بل على حساسية وذكاء وثقافة وبيئة المشاهد أيضا. كما يعتمد على مزاجه في تلك اللحظة»¹⁹.

هكذا تتنامى التفاصيل المعمارية لدى سحر. كل تفصيل لا يقول إلا ذاته: «البنية الكبيرة بقرميدها الهرمي الأحمر» (لم نعهد جوارى لكم، ص. 5)، «.. بعض أعمدة رخامية تتناثر هنا وهناك» (لم نعهد...، نفس الصفحة)، «فالتقوا بهم أمام بواباتهم الحجرية القديمة» (لم نعهد جوارى لكم، ص. 164)، «وصعدت الجماعة الدرجات الحجرية المتأكلة..» (لم نعهد...، ص. 165)، «.. أعمدة رخامية. سقف معقود. ساحة سماوية مبلطة بالحجارة الضخمة. بركة تحيط بها أشجار الليمون وأصص الفل والجميل. وزخارف عربية على الجدران» (الصبار، ص. 31)، «ورأيت دارنا، دار العائلة بقرميدها الأحمر المنصوب على الأيام..» (ملذكات امرأة غير واقعية، ص. 120)...

أعظم من ذلك أن التفاصيل المعمارية تشكل علامات للإحالة على واقع في العالم الخارجي. وبالتالي، فإنها تنتمي إلى ملفوظ الروايات مثلما تنتمي إلى الفضاء المرجعي، بحيث يندو هذا الاندماج «يشتغل أساسا كإرساء مرجعي»²⁰ يخلينا على تماسك النص الروائي الكلي لسحر خليفة، على تحاطب وحداثته فيما يشكل مطوِّلة روائية على نحو ما أشرنا إليه آنفا. ومن ثم يصعب أيُّ تلقُّ للنص الروائي يتم فيه الفصل بين الفضاء الروائي والفضاء المرجعي تماما كما يحذرنا بير زبما من «تبني منظور يكون فيه المجتمع «خارج» الخطاب: خارج الدلالة وتركيب الجملة»²¹.

وعموما فإن المرجع الفضائي لكتابة سحر خليفة ظل مرجعا حَضَرِيَا بامتياز،

19 - المرجع نفسه، ص. 42.

20 - انظر: فيليب هامون، سيمولوجية الشخصيات الروائية، ترجمة سعيد بنكراد، مرجع سابق، ص. 24.

21 - بير زبما، النقد الاجتماعي...، ترجمة عابدة لطفي، م. س.، ص. 190.

تذكرنا إشارة زبما - هنا - إلى حضور المجتمع «داخل» تركيب الجملة بإشارة مماثلة لرولان بارت إلى «الدور الإيديولوجي للجملة». (انظر: S/Z، م. س.، ص. 270)...

وحظيت فيه مدينة نابلس بأن جعلتها الكاتبة محور كل التلاقيات والمنظورات، حتى عندما تستحضر مدنا أخرى (تل أبيب، أريحا مثلاً) إنما تستحضرها عبر صوت الراوي العالم بكل شيء الذي يخيل إلي أنه «مقيم» في نابلس لا يرحلها.

III - نابلس: معنى المدينة

تكتسب مدينة نابلس في كتابة سحر خليفة، بوصفها مدينة إقليمية صغيرة ذات طبيعة ريفية، قيمة مركزية. إنها تشكل مثال الفضاء الحضري المفتوح على قيم الأرض الزراعية ورمزيتها من جهة، كما تتيح من جهة أخرى إمكانيات رصد «أشكال التغير الاجتماعي على مستوى شامل، وبخاصة في حركة تبادل السكان واختلاف أساليب العمل بين القرية والمدينة (أو المدينة الريفية كما في حالة نابلس)، وأثر الاحتلال الإسرائيلي في توجيه هذا التبادل بحيث يحقق بعض أغراضه من خلاله»²².

تنبغي الإشارة منذ البداية إلى أن مدينة سحر مدينة مهزومة، فليست لها نفس قوة الوطء التي يمكن أن تكون للمدن الكبرى في العالم: «والمدينة هادئة رغم ما يعبرها من هجوع الهزيمة» (مذكرات امرأة غير واقعية، ص. 120). لكنها مع ذلك ليست آلة تدور في حلقة مفرغة. إنها تلم شذرات فضاءاتها الطبيعية والمادية لتنسج ظلالاً للشخصيات والأفعال، ولتملأ الفضاء الروائي بعلامات واستعارات غنية. في الرواية ذات الجزأين «الصبار» و«عباد الشمس» نثر على مدينة تُحوّل المادة والأشياء والإيماءات إلى رموز تغذي متخيل الكتابة.

إن فضاء اليومي أساساً هو فضاء مدينة: دفع حركات وتجارب صغيرة، منطلق اتجاهات ورجوعات، تجليات قلق وانشغال وذاكرة. إن نابلس بالخصوص تصبح على لسان الراوي (ة) «مثل كائن يظهر نفس الجوهر العاطفي في إيماءات يده، في مشيته وفي نبرة صوته»²³. تتقاطع مشاهد الأزقة والساحات والمقاهي والحوانيت والمنازل والوجوه والروائح والأصوات لتشكل فضاء خصوصياً وإيقاعاً خاصاً هو نفسه جوهر المدينة، جوهر العلاقة اليومية مع المدينة، وإن شئنا معنى المدينة.

22 - د. محمد حسن عبد الله، *الريف في الرواية العربية*، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد 143، نوفمبر 1989، ص. 284.

23 - انظر حديث ميرلوبونتي عن باريس:

La phénoménologie de la perception, op. cit., p. 325.

وليست نابلس هنا «ديكوراً لحياة» الشخصيات، بل «قاعدها الثابتة»²⁴، بحيث يمكن القول إنه بفضل سحر خليفة أصبحت فضاءات هذه المدينة الفلسطينية نصاً، كما أصبح الفضاء نصاً في الرواية الواقعية للقرن التاسع عشر في أوروبا وما قبله²⁵. تقرأ المدينة فتتيح لك قراءة الإنسان. ليس ثمة وصف لهزيمة في حرب داخل الكتابة، لكن المدينة وحدها تملأ الذات القارئة بأنفاس الهزيمة: دكاينها مغلقة، ليلها بارد رطب ينخر الرتتين، ربيعها ما زال شتاء، طرقاتها مهجورة ملوثة بالوحل، ناسها نيام «وسيارات الدورية لا تنفك تذكر بالعين البصيرة واليد القصيرة» (الصبار، ص. 58). مدينة «لا تنسى الفضاءات». لم تعد تطبخ كل يوم، غدت دورها خزقا، وما عادت طبقتها البورجوازية «وجاهة» (عباد الشمس، ص. 21)

• «عجبية أنت أيتها المدينة! عجبية كصندوق عجب. الصورة تلو الصورة، تلو الصورة، ونحن أطفال صغار نجلس على حافة مقعد خشبي، ننظر من خلال فتحة الصندوق والدنيا (...). عجبية أنت أيتها المدينة. الصبر والصبار والصابون وطيبة القلب والسخام والرخام وتناقضات العالم كله» (عباد الشمس، ص. 21)

• «سكنا المدن لكن شروش الصحراء مازالت ممتدة تهدد ببنّي هلال والموحدين والأندلس. البيعة وتغير البيعة وما يعليه التغير من تغير في طبيعة العلاقات بين الأفراد، بعضهم يبعث، وبأنفسهم» (عباد الشمس، ص. 124)

• «من الجبل تبدو نابلس كأنون نار، والمصاييح تأتلق كحبات الدَّق..» (باب الساحة، ص. 14).

• «من أين لهذه المدينة كل هذا السُنى! وامتداد الأفق الغربي يبلغ ضباب البحر..» (باب الساحة، ص. 55).

ثمة وعي حاد بفضاء المدينة، إحساس جريح بقوة التناقض والانهدام الباطني. نَفْسُ القبول المخلوط بالرفض لفضاء يشبه القَدَر. إن «المدينة هي أولاً وعي بفضاء مغلق و«أنا»

24 - Jean YVES TADIE, Le récit poétique, op. cit., p. 72

25 - Ibid., p. 73.

جماعية مجسّدة في هذا الفضاء»²⁶. ومن ثم هذا الحرص على الانتماء إلى المدينة وهذا السعي الصامت نحو الانفلات منها، في نفس الوقت.

تحدث أمور كثيرة في المدينة.. كما لو أن لا شيء يحدث. تحدث عدة تغييرات.. كما لو أن لا شيء يتغير. كأن ما يتغير لا يطرح السؤال، ربما لأن التغيير لم يحدث في النفوس وفي العلاقات. هكذا على الأقل تبدو المدينة كما تقدمها اللغة، ذلك لأننا لا نعيش المدينة إلا كلغة.

وليست المدينة مع ذلك كتلة إسمنتية صماء، بل يخترقها دفق إنساني حي. كما يجعل منها شرط وجود. إنها في الفضاء الروائي الذي شيدته سحر خليفة تشكل أحد المكونات الدلالية والتعبيرية والإيحائية. يتداخل فيها الواقعي بالمتخيل، الفيزيقي بالميتافيزيقي، العيش بالملحوم به، أي تتداخل التجربة الملموسة بالمعنى الذي تشيده الكتابة. ومن ثم نقول بأن الحقل الدلالي للرواية تصوغه لنا أشياء المدينة أساسا. ومعناه أن مدينة سحر، ربما ككل المدن الروائية، مهياة لكل قراءة سيميائية تتعامل معها كنسق من العلامات، كما هو الشأن بالنسبة لنسق الموضة أو الطبخ أو غيرهما. النسق بما هو نسيج يتداخل فيه الخطاب، الممارسة الاجتماعية ومجموع المعطيات الحسية المتجانسة²⁷.

إن نابلس ليست مدينة محايدة، فهي مختَرَقَة بكل علامات السلطة والهيمنة الإيديولوجية. وهي تنكّبتُ رواثيا، وهي تُقرأ كذلك، إنما تقدم نفسها وفق مقتضيات استراتيجية ذات أبعاد سوسيولوجية وثقافية ولسانية. وإذا كانت الكاتبة - في ظني - قد زاحمت الشخصيات وتحكمت فيها أكثر مما كان ينبغي، فإنها لم تستطع أن تفعل ذلك تماما مع الفضاءات، وخاصة مع الفضاء الحضري. ذلك أن الكاتبة حين كانت تجعل الشخصيات تتواصل، تتلاقى، تشتري، تبيع، تجلس في مقهى، تركب الحافلة، تمشي في طريق أو ساحة... كانت تنتج المدينة أو بالأحرى كانت تتيح للمدينة أن تولد كفضاء وخطاب. بهذا المعنى، فإن المدينة ليست فحسب هي التي تحدث عنها الكتابة بالإسم، ولكنها أيضا تلك التي ينبغي أن نعيد تركيبها من خلال تجميع شذراتها وأجزائها وامكتنتها الواقعية والمتخيلة. وذلك لنعثر على خطاب المجتمع الفلسطيني القائم داخل اللغة وخارجها.

26 - Jean DUVIGNAUD, *Lieux et non lieux*, ed. Gallilée, Paris, 1977, p. 16.

27 - Voir: Raymond LEDRUT, *L'espace en question*, Ed. Anhropos, Paris, 1976, p. 188.

لقد تساءل باحث فرنسي²⁸ عما إذا لم تكن المدينة خطاباً للمجتمع، لكنه يؤكد أن المدينة إذا كانت لغة فإنه لن تتكلمها إلا الجماعة وليس الأفراد. وهكذا فإذا كان الطابع الحضري (L'urbain) نسقا من العلامات، فإن المدينة هي «خطاب» المجتمع باستعماله لهذا النسق. ومن ثم، فالمدينة التي تمنح نفسها للخطاب أو للنص هي مدينة ناطقة ينبغي الإنصات إليها. ما الذي تقوله عبر شتات وشتايا أصوات المنازل والمقاهي والطرق والمساحات والسجون والبشر والحيوان؟

لا نريد أن نفرق في قراءة تختزل الفضاء في الأمكنة. لكننا نهتم بالأمكنة التي لم تجعل منها ترسبات التاريخ الأدبي أشكالا جاهزة. كما نفضل الاستئناس، إلى حد ما، بسيمياء الفضاء التي تفتح العين على «المكان المتميز، داخل النص، [وهو] ينشأ في مواجهة ما ليس هو، كالحظة الانتشاء بالنسبة لياقي الدعومة الزمنية»²⁹. ذلك أن الأمكنة الأثرية تُوجدُ صورا أثرية ومصطفاة، على نحو ما يوضحه جان إيف تادي، «صور الضوء التي تأتي لتضيء الفضاء المعتم للمعرفة»³⁰.



إن الطريق مثلا في كتابة سحر تكاد لا تفضي إلى أية أمكنة كما لو كانت طريقا في الغياب. والشارع يبدو مع شخصياته أقل رحمة. عاجز عن أن يمدد شبكة صلاتها وعلاقتها كأنه لا يصلح إلا أن يعيشه المرء بصمت وصبر في الرواح والإياب، حيث لا شيء يتغير، وحيث «الدوار ما زال مكانه. وساعة الدوار ما زالت تمشي ببطء» (الصبار، ص 176). شخصيات الطريق والشارع مقطوعة من كل الجهات كما لو كانت في جزيرة ضائعة مطلقا، مثل الشخصيات البروستية، «في عزلة الفضاء»³¹: في «لم نعد جوارحي لكم» لا يُصبح للكلمات أي معنى في طريق ضائعة (ص. 8)، في «الصبار» تمتد الخطى على الرصيف دون إحساس بأن شيئا قد تغير (ص. 176)، في «عباد الشمس» يصبح الضرب في الطريق كالضرب في الغيم: نوع من «قراءة الفنجان» (ص. 234)، في «ملذكات امرأة غير واقعية» لمة هروب مستحيل للبطلة عفاف من المكان إلى اللامكان،

28 - *Ibid.*, p. 196.

29 - Jean YVES TADIE, Le récit poétique, *op. cit.*, p. 68.

30 - *Ibid.*, p. 70.

31 - G. POULET, L'espace proustien, *op. cit.*, p. 22.

الشوارع ليست إلا لإثارة الجراح وإحياء الصور، والطرق لا معنى لها إلا كفضاءات للبكاء (ص. 104 - ص. 123). فضاءات أزمة.. حقا.

أما «باب الساحة» كمكان، فقبل أن تكرر له سحر خليفة رواية كاملة تحمل اسمه بدأت حكايتها معه في «عباد الشمس». محكي آخر، مواز، ينبغي الإنتباه إليه: إن باب الساحة «ميدان حجري قديم» (عباد الشمس، ص. 22)، وهنا حيث تصطف الطاولات للجلوس العام، للنظر العمودي، ولإيقاف السيارات قبل التسلل إلى الأزقة الحجرية لقضاء أغراض ماثلة... يأمل المرء أن يُصَلَّبَ كي يتغلب على جبوطاته: «علقيني يا بلد من شَعْرِي في باب الساحة» (عباد الشمس، ص. 30).

كان سحر خليفة تربى أمكتتها الأثيرة في الظل قبل أن يأتي زمن القطف. وها هي في روايتها «باب الساحة» تقدم لنا سجلا متكاملا عن تفاصيل الساحة الحجرية، حاراتها، درجاتها، معمارها، زوايها...، وقد غدت مكانا يفرّشه الجند المحتل ومسلخا «يلقى فيه العملاء على الكلابات مثل الغنم. وسموها الساحة الحمراء» (باب الساحة، ص. 39).

وهكذا يمكن أن نجتمع أشلاء الأمكنة لنصوغ محكيات موازية يتصادى فيها الفضاء والزمن. وكل مكان يولد في سيرورة الكتابة قد نثر له على ذاكرة خصوصية، فضلا عما يمكن أن يجلبنا عليه من عناصر الذاكرة الجماعية. يستدعي المكان الزمن. يصبح سندا وإطارا محدّدين لمنظور الشخصيات إلى ماضيها وإلى حاضرها.

IV - السجن: رومانسية الفضاء

إن فضاء السجن في كتابة سحر هو أحد الفضاءات المهيمنة. مكوّن آخر يُلجِمُ وعي الكاتبة الموزّع عبر رواياتها الخمس: المطولة. فلا تخلو رواية واحدة من تجليات هذا الفضاء ورمزيته وعنفه وثقافته. وباستثناء «مذكرات امرأة غير واقعية» التي تقدم لنا نموذجاً لسجن رمزي تعيشه امرأة بالذات، فإن الروايات الأخرى تقدم السجن كمؤسسة للعقاب والمراقبة والتدمير، لكنه بهذه الصورة وقّف على الرجل وحده ولا صلة للمرأة به إلا كحبيبة متخيّلة أو باكية أو زائرة. هذا بدون أن ننسى إشارة واحدة في «لم نعد جوارى لكم» تقول فيها شخصية نسائية عن أخرى: «إنها تبدو كمن تعيش في «زنزانة» نفسية، «فرغم حريتها السطحية إلا أنني أعتقد أنها مكبلة من الداخل» (ص. 48).

فكرة الكبل الداخلي هذه هي جوهر السجن الرمزي، وهي التي توطر فضاء هذا السجن على امتداد رواية «مذكرات امرأة غير واقعية». إن البطلة عفاف، وهي مغمورة

بمؤنولوجها الطويل، تبدو مسكونة بهذا السجن الداخلي الذي تنسجه أسباب عدة:

- «حين أكون معه أحس بروحي ترفرف بأجنحتها كطائر حبيس، وأحس بوجوده قضبان سجن» (ص. 18).
- «في ذاك اليوم وأنا أقرأ عن ظروف المرأة والزينة والسجن وكيف أنها لن تكون حرة حتى ولو أفلتت من كل قيد لأنها في الداخل ليست حرة...» (ص. 30)
- «أي سجن هذا؟ أية حياة هذه؟ لا أهل لا زوج لا أطفال لا معارف لا اصدقاء» (ص. 59)
- «الزواج، والحرمان، والعقم، والسجن، في قلعة كل شيء صامت فيها إلا صوت الغسالة ومواءات عنبر» (ص. 109).

إن السجن بهذا المعنى يبقى مجرد فضاء ذاتي يعبر عن حساسية مفرطة تجاه الواقع، وتجاه الآخر (الرجل). يتداخل الميعش والتخييل في صوغ هذا السجن الكامن. وذلك لأن عناصره المادية تظل عاتقة بالفضاء الذهني للكاتب. ونحن مدعوون إلى أن نقبل هذا الفضاء كحقيقة لأنه يتحقق داخل أدبية النص الروائي ولقوته الاحتمالية، نظرا لمعرفتنا بالوضع الاعتباري للمرأة في المجتمعات الشرقية. بتعبير آخر، «كيف لا يمكننا أن نفكر في وجود الغابة ونحن نمشي بين الأشجار التي تمنعنا من أن نراها؟ فالغابة هي بالدرجة الأولى حقيقة تصويرية ولكنها في الوقت ذاته حقيقة ملموسة يكتشفها الخيال ويغوص في أعماق تفاصيلها»³².

أما السجن كفضاء روائي ينبثق من الحقائق المرجعية الوقحة، فإنه يحظى في كتابة سحر خليفة بكل ظروف التخفيف، أقصد أنه يُقدّم كفضاء رومانسي محمّل بروح إنسانية وجمالية وبغنائية واضحة.

إن الكاتبة التي تميزت بقدرة على امتلاك الفضاءات واحتوائها والتحكم فيها، نجدها أمام فضاء السجن خاضعة لتسيات تاريخ قراءاتها الأدبية. ذلك أن سحر لا تخرج عن التعامل السائد مع فضاء السجن في الآداب الإنسانية.

ونحن نقرأ مظاهر الفضاء العقابي في روايات سحر نعر على امتدادات للسجن

32 - Ricardo GULLON, On space in the Novel, op. cit., p. 13.

كمكان للحلم، البطولة والرجولة. السجن كفضاء مُؤسَّطَر كما في روايات وأشعار فيكتور هيجو، باسكال، بودلير، فيرلين³³...

لنُعد تركيب صور السجن الرومانسي كما التقطناها في روايات سحر، كي نمسك بمحكيات موازية أساسية لإضاءة الكتابة:

في «لم نعد جوارى لكم» يدخله عبد الرحمان الميثلوني، وهو رسام ومثقف عميق ومناضل، فتتخلّى حبيته عقب صدور الحكم بسجنه سبع سنوات نافذة: «تركته وراء القضبان وتزوجت ثريا مغتربا طارت معه إلى أمريكا.. ولابد أنها كانت في بحر السعادة حين كان هو في أعماق الشقاء!» (ص. 22). وحين بلغه خبر زواجها «بكى لا خوفا من الشرطة، ولا من آلات التعذيب الكهربائية، بل وحشة ووحدة وشوقا!» (ص. 37). ومع ذلك ظل في حاجة إليها «لم أجد حتى طيفها يقف معي، يساندني، يواسيني..» (ص. 43). ورغم أنه كان يدرك أنه يفارقها وأنه يمكن أن يخرج، بل واعتبر دائما أن الأمر في العمق «ليس شيئا غريبا»: «حكايتنا قد تتكرر كل يوم: رجل يُسجن ويترك وراءه امرأة بانتظاره.. وقد تنتظره هي، وقد لا تنتظره، ولكنها في الغالب لا تنتظر. وهذا ما حدث: رجلٌ سُجن وامرأة لم تنتظر. وما من غربة في ذلك، كان شيئا عاديا» (ص. 81). وبعدئذ، يلتقي السجين العائد إلى حريته بحبيته ويعيدان العلاقة من جديد، سامية يرجّها الندم وعبد الرحمان يصفح. وعندما يؤكد لها بأن التزامة يمكن أن يقوده في اية لحظة إلى السجن من جديد تقول له سامية: «ليتك تسجن، لا تنتظرتك!» (ص. 86). لكنه، عندما سيققادونه مرة أخرى إلى سجن «الجفر» دفاعا عن الأغلبية غير المبالية» ستفاديه سامية، وهذه المرة دون عودة، حيث باعت المكتبة التي تملكها وسافرت إلى أمريكا» (ص. 179).

أما السجن في «الصبار» فيبدأ محكيه باستعادة المرجع الرومانسي أولا، حيث يستغرب «أبو صابر» كيف أن الجياع أسقطوا سجن الباستيل، تلك القلعة العسكرية الباذخة؟ كيف يخلق الجوع القوة هناك ويجعل من السجناء هنا مجرد هياكل عظمية ضعيفة النفس وضعيفة الجسد» (ص. 50). «ما أنت شائِفٌ اللي في السجون. الواحد يدخل عريض وطول ويخرج قدھا الفسيخة ما أنت عارف..» (ص. 65).

بعد ذلك تتألى صور السجن الرومانسي: «لا بأس. السجن للرجال. ولا يعرف

33 - Voir, Victor BROMBERT, *La prison romantique*, Ed. José Corti, Paris, 1975.

المرء متى يجيء دوره» (ص. 55)، اللقب الجديد للسجين (أبو العز) يملأه بإحساس النضج والشهامة: «أبو العز؟ شيء جميل. لقد أصبحت واحدا منهم. ما أروع أن تكون أبا لشيء ما، ترعاه وتربيته وتحافظ عليه. وأبو العز. اسم جميل. أعمل من كل ما قيل وما سيقال» (ص. 96)، السجن كمدرسة للتكوين وللتأطير والتجربة: «وفتحت مدرسة الشعب أبوابها. والتّم الإخوان والرفاق في جماعات صغيرة» (ص. 103).

ولتبرير ركام التفاصيل حول فضاء السجن تقدم سحر كل ذلك من خلال عين جديدة. مندهشة لسجين مرافق متحفز لالتقاط كل شيء (ص. 102). وهكذا يصف لنا «باسل» كل المدارات الجميلة لتجربة مغرية: السجن فضاء للغناء، للقراءة، للصدقة، للتعلم، لترويض الحواس على الخبز واستزاق السمع، للبطولة (صص: 103، 111، 122، 125...). «ولتحذر إسرائيل من فعلتها. فعلى نفسها حنّت براقش. أصبحت سجونها مزارع رؤوس بدلا من أن تكون مدافن كتيوشا» (ص. 122).

في «عباد الشمس»، يتم تطبيع السجن تقريبا: «أي والله صحيح. سجون كثيرة يا خال، ونقول السجن وأنه سجن واحد» (ص. 41) - «ماذا تقول؟ ابدا يا صالح تسأل، ابدا ترد السؤال إلي. بعيدا عنك أحس بغربة. لكني أعرف ما ستقول «خارج السجن تحس بغربة». احترنا يا صالح أين السجن!» (ص. 61). وستكرّر الرؤية التي كانت مندهشة: «كبر الأطفال وكبر السجن» (ص. 62). ومع ذلك لم يغير السجن سجينه، نفس الروح، نفس الضحك: يا أبو العز ما زلت تضحك. علمني كيف يموت المرء وعلى الشفة بسمه وفي العينين شعلة» (ص. 152). أما خريجو السجون فالقلوب مفتوحة لهم جميعا بدون استثناء «فهم شموعنا وتاج وأسنا والنجوم المضيفة في سماننا...» (ص. 183). ويختتم منظور «عباد الشمس» للسجن بالتأكيد على أن «السجن مدرسة، أكبر مدرسة. الواحد منا لا يعرف حقيقة نفسه إلا إذا اختبرها. والسجن يجعلك تكشف أشياء كثيرة عن نفسك وعن الناس والبلد والحياة كلها من فوق لتحت» (ص. 218).

أما «باب الساحة» فتقدم، ضمن نفس الرؤية الرومانسية، سجنا على الأقل له أهمية كسر الخوف في النفس (ص. 54)، وحتى وهو مكان للعذاب، حيث ينبغي أن يتذكر السجين كل شيء إلا جسده (ص. 63)، فإن كل العذاب يهون مادام الأمر يتعلق بالجسد وحده وليس بالروح التي تظل طليقة: «جسمك الآن في معتقل، أما الروح فلا تُقبض، كقبض الريح» (ص. 77).

إن فضاء السجن لا يُقدّم أبدا كفضيحة أو كعار أو هزيمة، بل تقدمه سحر خليفة

كأفق للحلم والحب والتسامح. ثمة تمييز للبعد الرمزي والاستعاري للسجن، حتى أننا نجد «الضحايا أنفسهم واعين بالاستعارة»³⁴. ويقدر ما يسبق السجن الاستعاري ويعلن عن سجن «واقعي» للشخصيات، بقدر ما يصبح «الواقعي» بدوره استعارة³⁵.

تُشعرُ الكاتبة فضاء سجنها. مكانٌ للألم، نعم. لكنه مكان للحلم والحرية الروحية والعتور على الذات. في فضاءات الرجولة هذه تنتصر الذات على الزمن وعلى القضياب.

أي سجن هذا الذي - رغم كل شيء - يظل أكثر رحمة من غيره! ثم أين السجن وسط ركام من السجون المقنعة؟ وما معنى السجن في الجوهر عندما يصبح المجتمع بكامله سجنًا: «بجتمع السجن» (عباد الشمس، ص. 42)؟ ولم الخوف من فضاء ليس في الورا، بل أصبح بقوة الواقع أفقا للانتظار وتوقعا مستمرا (لم نعد جوارى لكم، ص. 86)؟ أية عزلة للذات هذه وليست إلا جزءا من عزلة العالم؟

إن السجن للجسد فقط: «سجن الجسد، حيث تكون روحنا غائصة»، يندمج في «ميتافيزيقا المصادرة»³⁶. ومن ثم لا ينجح السجن في تدمير الفلسطيني، بل بالعكس يعمق تجربته ومعرفته ويقوي صلابته. ينقلب السجن إلى مدرسة تشكل عنصر تخريب ذاتي للمحتل / للسَّجَّان. ذلك لأن السجين موجود داخل السجن وخارجه. «إنه هنا وليس هنا في نفس الآن»³⁷. كما أن القيم أيضا تنقلب، فالفضاء المقيت وهو يصبح فضاء للشرف، يجعل السقوط المرئي انتصارا عافيا³⁸.

هكذا تتأسس إيديولوجيا مضادة لإيديولوجيا العقاب. إنها تتكون داخل اللغة الروائية كي تنتصر على «واقع». تصوغ الرؤية الرومانسية فضاء مجردا، أقل احتمالا ولكنه واضح و«يمكن تحديد شكله ومعناه من خلال اللفظ الذي يخلقه»³⁹، وبالتالي، بقدرما يوحى انغلاق الفضاء بحضور عدواني، بقدرما تأتي الكاتبة بعناصر رؤية منفتحة للتخفيف من وطأة العنف.

تأتي الرؤية الرومانسية كي تجابه قهر النظام وتنتصر للحرية. لكن أعظم من ذلك -

34 - *Ibid.*, p. 12.

35 - *Ibid.*, p. 64.

36 - *Ibid.*, p. 25.

37 - *Ibid.*, p. 24.

38 - *Ibid.*, p. 19.

39 - Ricardo GULLON, On Space in the Novel, *op. cit.*, p. 16.

بالنسبة لسيروورة البناء الروائي في تجربة سحر - أن السجن بهذا المعنى يصبح محددًا لتطور الأحداث ولدينامية الشخصيات. ومن ثم يكتسي مأساويُّ السجن قوة تحريك النص الروائي كما في «الصبّار» بالنسبة لباسل أو في «باب الساحة» بالنسبة لحسام. ففي التوتر القائم بين ثقل الطوق والتوق للحرية، بين ضوابط المصادرة القائمة وإرادة الانطلاق والتجاوز والتغيير... تتولد أسئلة الوجود والهوية والانتماء والفعل، وتنشط حركية النص وتحولاته.

عموماً، في تشييد معنى فضاء السجن داخل الكتابة الروائية آثرتُ سحر خليفة شكلاً رومانسياً. ذلك أنها استحضرت الحركتين المتوازيتين في كل كتابة روائية رومانسية: الأولى حركة نحو «داخل» مّا (بحث عن الأناء، الحاجة إلى المعرفة، اشتغال الذاكرة)، والأخرى نحو «خارج» معين (الابتهاج بالخلاص الروحي، اندفاع الخيال...)»⁴⁰. ولعلها كانت موفقة على الأقل في معالجتها للإشكالية الفضائية - الزمنية، من خلال جعل السجن كرونولوجياً عتبة يفضي بالشخصيات إلى مستوى الوعي والقلق والمبادرة.

كما تأتي رومانسية الفضاء، من خلال فضاء السجن، لتعميق شعرية المحكي. إن المشاهد التي تقدم لنا من خلال العيون الجديدة المندمجة تكاد تُحوّل الفضاء الذي تنسجه اللغة إلى مجرد فضاء مرئي. ولكنه متعدد في نفس الوقت: الشخصيات تستعيد فضاءاتها الكامنة، والقراءة تبحث عن الفضاء الذي توقعته - فيما تقرأ - فلا تعثر عليه.

وهكذا، يُستعاد اليومي في هذه العزلة المحروسة كفضاء بعيد جميل (الصبّار، ص. 113)، وتأخذ الفضاءات المقروءة السجناء بعيداً خارج جدرانهم المغلقة (أبو صابر الذي بدأ عادة القراءة برواية «البؤساء» / (الصبّار، ص. 50)، وباسل تستولي عليه فضاءات نجيب محفوظ / (الصبّار، ص. 111). وهذا طبعاً بدون أن ننسى الوظيفة التي لعبتها رسالة الأهل التي توصل بها الفلاح السجين في استحضار الفضاء الخارجي، سواء بالنسبة للفلاح نفسه أو لمن قرأها له (الصبّار، ص. 107). وقبل ذلك، لا حظنا كيف أن عبد الرحمان الميثلوني، الشخصية المركزية في رواية «لم نعد جوارى لكم»، يستحضر الفضاء الخارجي من خلال تأمل رمزية ودلالة وجوده في السجن، تأمل معنى التضحية: «... ألم تُسجن من أجلهم؟ ألم تعذب من أجلهم؟» (ص. 85) - «ومن أجل هؤلاء انتهى بي المطاف إلى هنا [السجن]...» (ص. 180). التضحية التي ليست إلا حضوراً في الفضاء المستعاد الذي

40 - Victor BROMBERT, *La prison romantique, op. cit.*, p. 16.

يُسْتَحْضَرُ لتحويل هذا الفضاء المر إلى فضاء رومانسي، يتم فيه إبراز (mettre en relief) الذات والوقوف في مقدمة المشهد، في فضاء النظر. ذلك لأن «البطل» لا قيمة لبطلته إلا في أعين الآخرين وباعتراهم (حالة عبد الرحمان الميثلوني هي نفس حالة الصغير باسل) على هذا المستوى: الشخصية في الفضاء ليست ملك نفسها، بل هي رهينة لنظرة الآخرين.

إن الرؤية الرومانسية تسكن اللغة التي تتلقى بها وفيها فضاء السجن، لكن بدون أن تجعل منها «لغة للآلهة». على العكس إنها رؤية تتعايش مع كل ما يجعل «الواقعي يتحدث عن نفسه»⁴¹. رومانسية إرادية تعثرُ فيها الشخصيات على طراز من الخلاص، وفي نفس الآن تحاول أن ترفضها عبر الانتباه لتفاصيل الواقع: «لماذا توجعنا الأغاني الجريحة؟ شعب رومانسي النزعة؟ لكننا لم نعد كذلك...» (الصبار، ص. 136). لكنها في العمق تظل رومانسية مقيمة رغم تلمل لحظات الوعي وبعض تجليات الواقع: «رومانسية كنتُ وما زلتُ» (ملذكرات امرأة غير واقعية، ص. 17)، «أحبيته بشغافية فتاة صغيرة وعمق امرأة كبيرة ورومانسية فنانة هاوية» (ملذكرات امرأة غير واقعية، ص. 22).

هكذا يأتي السجن الرومانسي كفضاء ذهني ولغوي أساسا ليفجر أي تماسك للإسمنت الإيديولوجي. ليؤسس للإيديولوجيا الشخصية - كما نفضل أن نسميها - حيث تفتح الكتابة الأدبية - وغالبا دون برجة مسبقة - إلى ما يُصَيِّرُها أدبية، حيث لا تناقض بين الرغبات، المقاصد والرهانات وبين مجرى الكتابة في أبعادها الخاصة وكيميائها المعقدة.

ذلك ما انتبه إليه محمد برادة عندما رفض كل انتقاد «يفغل خصوصية الكتابة وعلاقتها بالإيديولوجيا. ذلك أن العمل الأدبي غير مطالب بتأكيد أطروحات إيديولوجية تبدو صحيحة على المستوى النظري، بل إن العمل الأدبي، باستيحائه للمعيش ولل تجربة المجزأة، الملتبسة، كثيرا ما يعارض الإيديولوجيا الجاهزة، المتناسكة، المملوكة لأجوبة على جميع الأسئلة، ليشخص لنا وعيا داخليا لم يتبلور بعد ولا يعتمد على مفاهيم وحجج منطقية»⁴².

41 - Iouri LOTMAN, La structure du texte artistique, *op. cit.*, p. 31.

42 - انظر محمد برادة، «باب الساحة؛ مساءلة الانتفاضة والإيديولوجيا»، مجلة ببادر، م. م.، ص.

الفصل السادس

فضاء الهوية

I - نواة هوية:

من الواضح أن فضاء الهوية الذي نريد الإمساك بعناصره التكوينية في كتابة سحر خليفة هو أولا فضاء هوية سردية، حتى ونحن ندرك أن الكتابة غير منشغلة أساسا بأية إشكالية سردية. لكنها مع ذلك تطرح - على هذا المستوى - جوانب متعددة للتأمل في مقدمتها/المحتمل (Le vraisemblable) الذي يطرح بالنسبة إلينا هنا العلاقة الممكنة لفضاء النص بفضاء الواقع، وما إذا كان هذا الفضاء المكتوب مستجيبا لقوانينه الخاصة أم تحكمته فيه علاقته بالمرجع. بهذا المعنى، نعتبر أن الكتابة تمنحنا هوية سردية نمطية على امتداد متنها الروائي مما يضعف في الغالب من إمكانيات القراءة وإعادة خلق هوية النص الخاصة بالقارئ¹.

إن المحكي في روايات سحر هو الذي يفتح للقراءات النقدية إمكانيات أكثر لتحليل البنيات الفضائية، لخرق «ضوابط» الفضاء المرجعي، وبالتالي لتحفيز التمثل الفضائي. والكتابة التي تمتلك حقيقتها مسبقا تحاول أن تجعل من المحكي - بما له وما عليه - تعبيرا استعاريا عن رغبات معاقة على نحو ما سنوضحه فيما بعد.

هناك تشابه كبير بين فضاء النص وفضاء الواقع، لكن الكتابة لا تعيد إنتاج الظاهرة الواقعية كاملة، بل «تعيد إنتاج الخصائص التي تميزها أكثر والتي تعكس روحها

1 - يرى هولاند أن «العمل الأدبي الجامد، ليس عملا مجرد ذاته، بل فرصة لشخص ما كي يقوم بعمل»، و«العمل» الذي تقدم له النصوص الفرصة إنما هو قيام القارئ بإعادة خلق الهوية الخاصة به: «نحن نستخدم العمل الأدبي لرمز إلى أنفسنا وأخيرا نعيد استنساخها، فنأخذ النتائج إلى داخلنا ونجعله جزءا من ثروتنا النفسية الخاصة - فالهوية تعيد خلقها». انظر: وليم راي، المعنى الأدبي، مرجع سابق، ص. 78.

الحية...2» عن طريق اللغة. ومن ثم لا يكفي أن ننتبه إلى كون التشابه أو التماثل بين الكتابة والمرجع المادي يتم بواسطة اللغة أو دأخلها، بل ينبغي أن ننتبه إلى نوعية البنية اللغوية التي تنجز هذه المهمة المتعددة، مهمة النقل والتمثل والتحويل. وفي هذا السياق يمكننا أن نتفهم مواخذة بير زما على كل من إدغار موران ولوسيان غولدمان اللذين اعتبر أنهما لم يطرحا السؤال الأساسي حول معرفة أي بنى لغوية تربط العالم التخيلي (الأدبي) بالعالم الاجتماعي والنفسي³.

طبعاً لا نريد أن نستهلك النص الروائي نظرياً لاقتناعنا بأن «الوعي النقدي هو إحساس بمقاومة النظر، وهو ردود فعل تنشأ من المقاومة بين النص (موضع النص) من جهة، والتجارب العلمية والتفسيرات التي تتوجه بها نحو النص من ناحية أخرى» كما أكد ذلك إدوارد سعيد في حوار له⁴. بمعنى أن نسهل انفتاح النص على واقعه التاريخي والاجتماعي والسياسي.

من هنا نعتبر أن رواية سحر خليفة هي رواية واقعية، لا بالمعنى المبثذل لمفهوم الواقعية، كاستنساخ أو كظل للواقع، بل كبناء دلالي وسردي يجعل وقعَ (effet) الواقع المادي المعيش - الواقع الفلسطيني هنا - وَقَّ الخطاب الروائي نفسه. لذلك لاحظ الناقد الفلسطيني فخري صالح أن ثمة شعرية تفاصيل في رواية سحرَ «تجسد في مسارها وبنيتها لغة الواقع في تحولها إلى «لغة روائية» تستعيد الحياة «كما هي» وتعيدنا إلى هذه الحياة الواقعية»⁵، وبالتالي، فإن لغة الواقع والتفاصيل تتحول «إلى لغة شعرية وترجع شعري يتماسك داخل النص ليقبله إلى نقيضه، أي أنه يقارب المتخيل ويكسر حدة الواقع ويفتحه على المستقبل»⁶.

تضعنا هذه التجربة الروائية في مواجهة الوقائع والأحداث والأحاسيس والفضاءات

2 - انظر أفنيز زيس Avenir ZISS في دراسته «الصورة الفنية»، ترجمة عبد الكريم الأمrani، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، ليوم 13 أكتوبر 1985، العدد 99.

3 - بير زما، النقد الاجتماعي، ترجمة عابدة لطفي، مرجع ملهكور، ص. 277.

4 - نشر هذا الحوار بمجلة المجلد، العدد الرابع، خريف 1994 (بيروت - عمان).

5 - فخري صالح، في الرواية الفلسطينية، دار الكتاب الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، 1985، ص.

79.

6 - المرجع السابق، نفس الصفحة.

الملموسة، لكن ليس بقياسات الواقع ولا كتصوير ملموس، وإنما كتعبير جمالي إبداعي يحقق للكتابة امتلاء واقعي ويجعل الفضاء بالخصوص بعدا أساسيا من أبعاد الهوية، هوية الكتابة وهوية الكاتبة من جهة، وهوية القراءة من جهة أخرى. أليس *المعنى متعدد الهوية* كما أوضح ذلك صاحب «المعنى الأدبي»⁷ وكيف يكون هناك فضاء هوية بدون أن يكون متعددا، متحركا، ديناميا يبدأ من هوية الكتابة بما هي عملية تهجين للصور وتركيبها وفق مستلزمات كيمياء الإبداع المعقدة؟

ثمة إمكانيتان للإمساك بواقعية الكتابة الروائية لدى سحر خليفة ينبغي أن يكون حولهما اختيار: هناك أولا رمزية الخطاب أو تصويريته (La figurabilité du discours)، أي أن يقوم الخطاب الروائي بنوع من النمذجة لواقع معين يجعله في النهاية معارضا له، وبالتالي يقلل من احتمالية واقع النص ويضعفها. كما أن هناك *تمثل الواقع* كاختيار ثان، وهو ما نميل إليه لعدة اعتبارات منها: أن هذا التمثل (Représentation) «يبقي الباب مفتوحا أمام حدسنا للواقع القائم كأداة للتقييم والتحليل»⁸، ولأن ثمة مسبقا نظريا يقوم عليه تحليل ف. أيزر بصفة عامة، وهو اعتقاده بأن الأدب لا ينبغي أن يعتبر معارضا للواقع، بل هو بالأحرى «وسيلة لكي يقال لنا شيء عن الواقع»⁹، وأيضا لكون الإبقاء على ارتباط النص بشيء خارج عنه - بالنسبة لدراستنا - يكسب الفضاء فاعلية أساسية في قراءة وامتحان وعي الكتابة في علاقتها بوجودها الخاص والعام.

إن كل أنواع التمييز إذن بين الكتابة الأدبية وامتداداتها غير الأدبية في الواقع إنما تحد من الاتساع الدلالي ومن توطيد علاقة الكتابة بالعالم. هل ثمة إمكانية أخرى للاعتقاد بأن ما صانَ الفلسطيني، إحساسا ووعيا وروحا مُقاومة، ليس شيئا آخر غير هذا الإحساس بالفضاء كجرح وكذاكرة مستعادة، الإحساس بالفضاء أيضا كعلائق متعددة (بالأرض، بالأشياء، بالموضوعات، بالعلامات، بالرموز...)، متجذرة في الجسد (هل لهذا التحذر تلتهم الكاتبة أصوات شخصياتها غالبا؟).

نتحدث هكذا عن الفضاء الفلسطيني لأن سحر خليفة لا تدع القارئ على عطشه،

7 - وليم راي، المعنى الأدبي، مرجع مذکور، ص. 103.

8 - Denis BERTRAND, L'espace et le sens, op. cit., p. 16.

9 - انظر عرض ابراهيم الخطيب لكتاب «القارئ المفترض» لأيزر، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الانحداد الاشتراكي، ليوم 23 فبراير 1986، مرجع مذکور.

فهي تراكم كل الحركات والتفاصيل الطبوغرافية والإشارات الكافية إلى الفضاء المذكور بكل مكوناته دونما تعقيد مثل أي كاتب واقعي يقترح علينا فضاءه الأثير ويقنعنا به¹⁰. إنها تقدم فضاءً تسميه حتى لا تغمرنا صوره وأخيلته واستذكاراته مثلما تغمرنا التجريدات. كأنها تسعى سعياً كي تموضع فكراً في الفضاء الذي يليق به، في الفضاءات المتعددة التي تضيء هذا الفكر وتوصله إلى حيث ينبغي أن يصل. وقد رأينا وسنرى أن الفضاء الفلسطيني يتحدد كما هو، بخصائصه ومميزاته. ويتحدد أيضاً **بهرية الفاعلين** فيه (مثلما هو فاعل فيهم) من حيث الجنس، اللغة، الوضع الاعتباري، السن. كما يتحدد هذا الفضاء بما ليس هو، أي بالفضاء الصهيوني، بنقيضه المطلق.

هكذا، يمكن القول بأن فضاء سحر خليفة بكل أبعاده الجمالية والثقافية والرمزية والدلالية لا يرفض أن تستعمله خيارات إيديولوجية معينة. استعمالاً لا يأتي فقط من سلطة خارجة عنه، سلطة المرجع بالذات، بل لأن هذا الفضاء نفسه كما صاغته الكتابة مهياً لمثل هذا الاستعمال. ولا ينبغي هنا أن ننسى أن النص بكل مكوناته، وضمنها الفضاء، لا يمكنه ألا يكون في الوقت نفسه **إيديولوجياً وتقدياً** - على نحو ما يوضح ذلك بير ماسري¹¹: «في حين تبدو دائماً الإيديولوجيا في حد ذاتها حافلة، سخية، إلا أنها عند تواجدها في الرواية، تبدأ في إظهار نواقصها».

إن من مظاهر السخاء الإيديولوجي ما تلاحظه كل قراءة أولى لهذا المتن الروائي في سعي الكتابة إلى التعبير عن مظاهر وتحليات هويتها. بل وفي جعل فضاء الهوية سناً ضرورياً للاقتناع بالأسطورة المسبقة وتعيين مكانة لها في الفضاء الذهني للقراءة والتلقي. وما يجعل مقصداً إيديولوجياً مقروءاً أو قابلاً للابتلاع، على الأقل في هذا المتن، هو استعمال اللغة (شعرية، كلاسيكية، عامية، أو كرطانية عبرية...)، ترتيب عناصر المحكي، توظيف تقاطعات الواقع بالمتخيل، تأنيث الفضاء المحكي بالتفاصيل الواقعية: «في الأرض المحتلة، حيث يكون الصراع محتدماً على الأرض تحضر لغة التفاصيل وتصبح هي المكون الأساسي لعمل روائي «وقائعي» يهتم بـ «الحديث» في حصوله وتحققه على أرض الواقع، أي أن الرواية تعتمد إلى رسم التفاصيل العينية «المطابقة» للواقع والدائرة في فلكه»¹².

10 - Jean WEISGERBER, L'espace romanesque, *op. cit.*, p. 73.

11 - عن بير زعما، النقد الاجتماعي، م. م.، ص. 142.

12 - فخري صالح، في الرواية الفلسطينية، م. م.، ص. 77-78.

وتردد حدة البعد الإيديولوجي للفضاء عندما يتعلق الأمر بفضاء ليس إلا صوراً لوطن يمكن تحديده، أي أنه غير متعال، وله وجود في الخريطة وفي الذاكرة. وطن من خصوصيته تنخلق خصوصيات متعددة للكتابة الروائية، خاصة ما يتعلق بالسند الأساس فيه: وهو الأرض.

إن الشخصية الفلسطينية تدرك حدسياً، وبكيفية شبه غريزية، بأن الأرض هي الوجود ذاته، هي البساط الذي يتحقق فيه الوعي والذات والتاريخ. ومن ثم، فالهواء الضروري للوجود لا يمكنه أن «يشكل عنصر التاريخ أو وعاءه إذا لم يستقر أو يستريح على الأرض. الأرض الثقيلة، الصارمة، والصلبة. الأرض التي نشغلها، ونغدشها، والتي عليها نكتب. والعنصر الذي ليس بالأقل كونية، الذي ننقش عليه المعنى ليدوم»¹³. شخصية تدرك فضاء وجودها تماماً كما تدرك زمن وجودها، لكنه إدراك يتأثر في أكثر من موقع داخل المتن الروائي بعثرات الانتماء المتعدد، بالتباسات وتناقضات صلة الفضاء بالزمن. ومن ثم هذا الترنح الفكري الذي يميز عدداً من شخصيات سحر خليفة، بين الأزمنة والفضاءات.

الوطن هنا هو فضاء الهوية بامتياز.

هو منطلق ومنتهى الكينونة، من أبسط مكان أو مشهد أو صورة أو علاقة فيه إلى امتداداته كشذرات وصور استعادة وتذكر وكحاجة وفقدان في الشتات والمنافي وأوطان الغربة.

- «ولا أدري كيف توصلت إلى معرفة أن فلسطين هي بلدي، وأن فلسطين ضاعت وأنا غمر بماتم كبير...» *هذه كرات امرأة غير واقعية*، ص. (142)

- «طرودني من بغداد وبيروت وعمّان وهنا وهناك، بكيتُ لا أنكر، لكنني هنا لن أبكي. أنت تعرف وأنا أعرف هذا بيتي» *عباد الشمس*، ص. (225).

- «وقالت: «ألم تشتق لهذه البلاد؟». قال ساخراً: «كنتُ أسألك نفس السؤال!». وتفاادت هي سخريته، وقالت بإيمان: «هذا مكاني». فقال

مؤكدًا: «ومكاني أنا أيضاً، فما من شيء في الوجود يهمني قدر ما أهتم بهذه الأرض وبمن عليها. وقد أسجَنُ قريبا بتهمة هذا الاهتمام!» (كم نعهد جوارى لكم، ص. 86).

- «غوصي يا بلدي.. ولكن لا! لن تغوص البلد. سيظل فيها أناس يؤمنون بالمستحيل. إرادة الإنسان أقوى من المستحيل. وفلسطين في القلب يا نيرودا. في يؤبى العين في لب الحياة. وهؤلاء الناس. بجهلهم. بحزنهم. بخبزهم الموصوم بدمعة عيرية ما زالوا أهلي» (الصبار، ص. 63).

- «ليقذف بي أي قاذف في هذي الأرض إلى ما شاءت له قريحته من مناطق مجهولة الموقع والتاريخ. فأنا هنا. وقد عدتُ لهذي الصخرة. لهذي الحفرة..» (الصبار، ص. 137).

وبقدر ما تتضح درجة الانتماء إلى فضاء الهوية تتحول إلى إدراك هذا الفضاء أساسا كعلائق حية، حيث يتشابك الإنسان بفضائه: «كانت المرأة صورة، وما زالت، كرمز الأرض، أو أن الأرض هي المرأة..» (باب الساحة، ص. 56) وبدون أناس، بدون علائق معهم لا معنى للفضاء، للأمكنة وللأشياء: «لكن الناس هم المعبود، هم القِبلة، وهم اللازمة لكل صلاة. فبدونهم ما طعم الأرض؟ ما طعم الروح وما معنى الوطن؟» (باب الساحة، نفسه). وهو نفس الإحساس الذي نلتقطه في جانب آخر من نفس الرواية: «لا تقول لي الوطن ولا التاريخ، يعني مينُ الوطن غير أنت وأنا؟ احنا يا ها الناس؟» (نفسه، ص. 174).

هذا الإدراك العميق لمعنى الوطن هو الذي يُحوّل الأحاسيس إلى وعي، ويجعل من الوعي بالفضاء مادة حياة للفعل والدينامية والانتماء للتاريخ، أي للزمن. ومن هنا هذا الجنوح الفلسطيني في أفعال وخطاب الشخصيات الروائية إلى الذاكرة. ذلك لأن الذاكرة ليست فحسب ماضيا تتم استعادته للسيطرة على الحاضر، بل الذاكرة كنظام من الاعتقاد كذلك.

ما معنى الوطن بدون ناس، أي بدون علاقة معهم؟ لذلك تتعلق الشخصية بالوطن مادام ممتلكا بالآخرين الذين يزرعون الحياة في الأشياء والمعالِم: «أحب البلد. لم يبق فيها إلا الطبيعة والعشب البري وظلال الكينا. تموج وأموج معها فوق السطح وألتهم المعالم» (ملكرات امرأة غير واقعية، ص. 72). أما حين يخلو الوطن من أهله فإنه يصبح مجرد خريطة فارغة لا تبعث على الحلم، أي على الحياة والتجدد: «تصور الوضع حين تخلو البلد

من الناس، تصوّر. لكن المطمئن أننا شعب غصّاب. هل قرأت الدراسة التي قام بها أحدهم؟ يسميه الغزو العربي من الداخل» (عباد الشمس، ص. 152).

وينبغي هنا أن نرصد ضرورة الوعي بالفضاء كسندٍ للهوية لدى الشخصية الروائية الفلسطينية في كتابة سحر. فليس ثمة فضاء ثابتاً لأن الوعي ليس ثابتاً، لأن الذاكرة ليست ثابتة، لأن وعي الذات الكتابة ليس ساكناً أو جامداً. ولذلك فكل شيء في ضرورة. إن سحر خليفة التي بدأت كتابتها بوعي شابة مشتتة بالحماس قدمت لنا نوعاً من الفضاء مطبوع بالروح الرومانسية (Romantisation)، حيث الزّج «بالفكر في خضمّ الحماسات الشعبية والنزاعات السياسية، وإعادة إثبات الذات»¹⁴. لكنها أمام ركام المستجدات في الفكر والممارسة أضحت تقدم نموذجاً آخر للفضاء وللإحساس به؛ نموذج يتخلّى عن كل نزوع رومانسي ويلوذ بما يمكن أن نسميه تشكُّرُ الفضاء (Fragmentation de l'espace). من هنا تبدأ علاقة توتر الكتابة بفضائها المرجعي.

صحيح أن سحر خليفة منذ البداية كانت لا ترى أن هناك هوية فلسطينية مكتملة وسليمة بدون أن تكون المرأة بعداً من أبعادها، فلا ثورة بدون تثير العلاقة بين الرجل والمرأة الفلسطينيين، ولا تحرير بدون تحرير المرأة من كل استبداد جنسياسي... كما أن سحر في المقابل لم تكن ترى أن هناك هوية إسرائيلية يمكن أن تتشكل في فضاء ليس فضاءها الطبيعي. فالفضاء الذي يُحدّد (Ce qui définit) الفلسطيني هو نفسه الذي يشكل حاجة الإسرائيلي (Ce qui manque)، على نحو ما هو واضح في روايات سحر الأولى: «لم نعد جوارح لكم»، «الصبار»، «عباد الشمس». ومن ثمّ فالانتصار العسكري أو الرقابي لا يمكنه أن يضمن إحساساً بامتلاك فضاء. كما أن الهزيمة كيفما كانت لا تعني في أية لحظة إحساساً معيناً بالحاجة (Le manque) إلى فضاء.

وعلى سبيل الاستئناس يمكننا أن نستشهد، في توضيح هذه العلاقة المعقدة بالفضاء، بالشريط السينمائي «الذاكرة المحصنة» للمخرج الفلسطيني ميشال خليفة¹⁵. ففي هذا العمل الفني تتمسك المرأة المسنة «فرح حاطوم» برأيها في رفض الأمر الواقع، فقد سلبها الاستيطان الصهيوني أرضها وظلت تحتفظ بأوراق الملكية وترفض كل مقترح بيع أو

14 - محمد علال سينا، في تقديمه لكتاب ديريدا بالعربية، الكتابة والاختلاف، م. س.، ص. 20.

15 - الذاكرة المحصنة، سيناريو وإخراج: ميشال خليفة، إنتاج سنة 1981، تلعب فيه سحر خليفة دوراً تسجيلياً تمثل فيه وعي المرأة الفلسطينية الحاد تجاه نفسها وتجاه الرجل.

تعويض للأرض بأخرى. لقد قيل إن السلطات الصهيونية لن تتخلى لها عن الأرض وإنها لن تعترف بأي قانون ولو كان قانون الأمم المتحدة نفسه، والأفضل أن تقبل تعويضا عن الأرض مقابل التنازل عن أوراق ملكية الأرض التي تعرضت للمصادرة. لكنها ترفض بقوة رغم الإلحاح المُخجَل لابنها الذي لم يدرك معنى الرابطة الجوهرية بين الأرض والذاكرة¹⁶. وأن تتمسك فرح حاطوم بحجة ملكيتها للأرض بالرغم من فقدان الأرض نفسها، أن ترفض رفضا مطلقا أية مساومة، وهو «منطق يستعصي فهمه على مستوى معين - كما لاحظ إدوارد سعيد - ولكنه يرضيها تماما على مستوى آخر»¹⁷. كل ذلك معناه أن العلاقة بين الفلسطيني والفضاء تظل قائمة على المستوى الرمزي حتى وإن غدت مستحيلة على مستوى الواقع، أي علاقة ممكنة دائما طالما ظلت قوة الحجة قائمة:

«والتجربة المخورية في الفيلم هي إبراز علاقة السيدة العجوز بالأرض. ويتم ذلك في مشهدين مترابطين. نراها في نقاش مع أولادها البالغين، كلاهما يحاول إقناعها ببيع أرض تملكها وإن كان الإسرائيليون «استعادوا ملكيتها». وحجة الملكية ما زالت معها، يرغم أنها تعرف تماما أنها مجرد قطعة من الورق. ويخبرها ولداها أن الاستشارة القانونية أفتتتهما بأنه في استطاعتهما أن تبيع الأرض لمستأجريها الحاليين، برغم أن الإسرائيليين انتزعوا ملكيتها. ومن الواضح أن هناك من يريد أن يضيف شرعية على سلب أرضها بمنحها مبلغا من المال في مقابل حجة نهائية بالملكية.

أما هي فترفض رفضا باتا. امرأة ضخمة، عريضة الوجه. تجلس كالصخر إلى مائدة المطبخ، غير متأثرة بمنطق رغد العيش وراحة البال الذي يحاولون إقناعها به. فتقول: كلا وكلا وكلا: أريد أن أحتفظ بالأرض. فيحييان: ولكنك لا تملكيتها بالفعل: خذي المال وعيشي في مجبوحة، وتحبب هي ساهمة وتأثر: الأرض ليست معي الآن، ولكن من يدري ما قد يحدث؟

16 - انظر تحليلا لهذا الشريط الجميل في دراسة بعنوان «جدل الإنسان والوطن»، ضمن كتاب محمد نور الدين أفابة، *الخطاب السينمائي بين الكتابة والتأويل*، منشورات عكاظ، الطبعة الأولى، 1988، صص. 119-129. وانظر أيضا دراسة إدوارد سعيد، «تجربة الاستلاب»، ضمن مجلة *الكروسل*، العدد 8 - 1983، صص. 14-32.

17 - إدوارد سعيد، م. س.، ص. 15.

نحن كنا هنا من قبل، ثم جاء اليهود، وسيأتي غيرهم من بعدهم. الأرض لي. أنا ساموت يوما. أما الأرض فستبقى هنا بغض النظر عما يأتي ومن يذهب»¹⁸.

أما المشهد الآخر، فتظهر فيه فرح حاطوم وهي تزور أرضها لأول مرة في حياتها، الأرض التي ورثتها عن زوجها بينما كان الإسرائيليون يصادرونها. وهي زيارة لتجديد الذاكرة وإعطاء نفس آخر للعلاقة الرمزية بين الفلسطيني وفضائه المفقود. بمعنى أن هذه الانتظارية المستدعية التي تجسدها هذه المرأة الفلسطينية هي نفسها التي ميزت شخصيات سحر خليفة في وعيها الأول بإشكالية الفضاء. الانتظارية التي استلزمته ظروف العجز العام والتناقض بين الواقع القائم والرغبة المفتوحة. وهي حالة استلاب قصوى تبدأ بصورة هذا العجز وتنتهي إلى صور اللامعنى وهشاشة الانتماء¹⁹. لكن سحر ترصد بين هذا وذاك أصواتا تعلقو وتدعو إلى المقاومة: «هذه الأرض لكم. استرجعوها بقرار من هيئة الأمم. استرجعوها بأبيات الشعر وأغاني العودة. وصلوا لله مليون ركعة بدون ميرر. فلن ينصر الله إلا اليد المشدودة على الزناد» (الصَّبَّار، ص. 150). ومن ثم تتصاعد مع تصاعد الوعي في الكتابة مشاهد المجابهة والمقاومة والفداء (في ثنائية الصبار وعباد الشمس، وفي باب الساحة كذلك التي تتضمن في نفس الآن مظاهر اللامعنى).

إن هذا المسار المعقد في كتابة سحر وفي وعيها: من الالتزام إلى مساءلة الالتزام، من المجابهة من أجل فلسطين إلى المجابهة الذاتية، من حقن الانتماء الجماعي إلى حقن الانتماء للذات... يفرضه ضعف التجربة وتضخم الإيديولوجي حيث «تغيب، إذن، الممارسة لتحل محلها الإيديولوجيا، وتتمحي التجربة لتتيح المجال لتعملق الكتابة النظرية وافتراشها لمساحة الفعل الروائي في زمن تحققه»²⁰. ومن ثم سنرى كيف أن سحر ستركز أكثر على سلطة القمع الجنسي التي تقهر المرأة الفلسطينية. وذلك على حساب الإمساك بباقي عناصر التركيب الاجتماعي والسياسي المعقد للمجتمع الفلسطيني.

18 - إدوارد سعيد، المرجع السابق، نفس الصفحة.

- لمزيد من توضيح هذا الاستلاب، انظر أيضا: الدكتور بسام خليل فرنجية، الاغتراب في الرواية الفلسطينية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، (بدون تاريخ، بدون رقم الطبعة).

19 - فحيري صالح، في الرواية الفلسطينية، م. م، ص. 105.

20 - انظر إدوارد سعيد، المرجع السابق، ص. 17.

سيادة الإيديولوجي في هذا المتن لا تجعل جملة من العلاقات تتجذر في المجرى الروائي، لكن في نفس الوقت قد لا يمكن فهم مستويات الفضاء كما تشييدها كتابة سحر إلا في سياق نظام إيديولوجي واضح المعالم. ذلك لأن الكتابة اختارت منذ البداية أن تفتح نصوصها الروائية على بعض المطلقَات الخارجية. ومن ثم، لا ينبغي أن نقسو على الكتابة لأنها اختارت هذا المنحى أو هذا المضمون، بل ينبغي أن يتجه النقد إلى مستوى البناء السردى الذي لا يتأمل نفسه في لحظات انبثائه.

إن الكتابة السردية التي لا تنبئ لسيورتها، لا تسخر، لا تنكّبتُ بالفضاء وهي تكتبه (التفضية)، لا تكسر خطيّتها الزمنية، لا يمكنها أن تتخلص من السطوة الإيديولوجية. ولذلك توجد دائما عناصر سردية (وأحيانا حكاية) على أهبة عرقلة أي تشييد دلالي. ثمة باستمرار ما ينفلت ليشكل عقبات سيميائية أمام كل قراءة تغيا الإحاطة بمكونات النص، وهي عقبات لن نعر عليها ولا تصادفنا عندما نمسك بالنص من جانب ثراء التفاصيل. لعل التفاصيل وحدها في كتابة سحر خليفة ما ظل خارج المنزع التحكمي للكتابة.

ويدور لي أن سطوة الإيديولوجي التي انتبه إليها نقاد سحر في أكثر من مناسبة وسياق تغدو مكونا من مكونات هذه الكتابة ذاتها حتى ليصعبُ تصور روايات سحر بدون هذا المكون المتقد.

أريد أن أقول إن هذه السطوة لا ينبغي أن تجعلنا نقلل من أهمية باقي العناصر الفنية والجمالية لهذه التجربة الروائية. إن الإيديولوجيا كمكون من مكونات هذه الكتابة، نلقاها ونقرؤها كمعطى ليس بإمكاننا إلا أن نضعه في الاعتبار. ولم لا ندفع بفرضية في هذا الإطار تحتاج إلى اختبار ليس هذا سياقه، وهي أن ما يبدو لنا إيديولوجيا - من وجهة نظر القراءة النقدية - قد يكون التقاطا لحقيقة مضموعة أو مفروضة؟

لكن المشكل الذي يظل مطروحا، بغض النظر عن مدى تحقق أية فرضية من هذا القبيل هو ضعف احتمالية ابعاد ومستويات أساسية من المتن الروائي. ذلك لأن سحر خليفة في نظرنا لم تعثر بعد على صيغة لتجاوز الحجاب الإيديولوجي الذي يضرب كل تمثيل ذهني للواقع الاجتماعي، مما يجعل من قيادة النص قيادة تحكمية سواء في توجيه الأحداث أو تحديد سلوك الشخصيات أو إدراك الأشياء.

وفي تجربة روائية فلسطينية، من الصعب أن نتصور أن الانتقال من الواقع إلى تمثيل الواقع، ومن المعيش إلى الفكرة هو مجرد مقتضى من مقتضيات الكتابة الأدبية. فإن تكون

الكاتب الفلسطينية أو الشخصية فلسطينية يصبح هذا الانتقال قابلاً للتعبير عن فضاء هوية مأزومة. ذلك لأن «فقدان فلسطين، كما لفلسطين نفسها، بعدين: بعد مجاله الواقع، والآخر مجاله الإيديولوجيا والخيال والإسقاط والفن والدين. في البعد الأول فلسطين أرض كان يعيش فيها الفلسطينيون العرب، أرض فقدوها، أرض يحكمها الآن آخرون، أرض سلبت من الفلسطينيين ويعيشون فيها الآن حالة من استعماروا من الداخل. أما في البعد الثاني، فلسطين هي مكان يكتب عنه، يحلم به ويخطط من أجله. وهو إذن كمجال عام ملك لكل من يدعي به حقاً. وإن كان لفلسطين بالنسبة للفلسطينيين وجود داخلي راسخ، لذلك بسبب شعورهم منذ مولدهم بمولد تاريخهم فيها. أما فلسطين الأخرى فلها وجود تاريخي كحقيقة خارجية (...) قليل هي الأمكنة التي تتمتع بتشابك هذين البعدين الذي يفرض نفسه»²¹. ومن ثم لا يمكننا إلا أن نقدر هذه الحالة لكاتبه تعيش وتكتب في فضاء هو لها و«ليس لها» في نفس الوقت. هذا فضلاً عن كونها امرأة في مجتمع شرقي. فكيف يمكنها أن توفر لشخصيات رواياتها نظاماً من الفعل وعمليات التكيف مع فضاء مُصادَر، أي كيف تحتفظ لهذه الكائنات الروائية بهوية غير معطوبة؟

إن سحر خليفة تجعل من هويتها الفردية نواة هوية (Noyau identitaire) لشخصيات كتابتها. ولذلك فهي تتكلم عن نفسها فيما هي تتكلم عن الآخرين، وتمتد في خطابها الروائي بوضوح كبير. ونحن نعلم أن الكتابة دائماً تعتبر امتداداً وجودياً لكتابتها: «الكتابة فعل متعدد الامتدادات والإيحاءات، تكشف الحضاري والثقافي والاجتماعي والإيديولوجي والنفسي. غير أنها مهما تعددت فإنها لا تخرج عن مساحة الجسد الكاتب مهما كانت غايات هذا الجسد المعلنة أو الخفية»²². معناه أن سحر تورط هوية شخصياتها في شروط وسياق هويتها وإيقاعها الوجودي. معناه أيضاً أن شخصيات هذا المتن الروائي يطبعها توتر الفضاء السائد (في النص وفي المرجع) ويؤثر في صوغ هويتها، سواء تعلق الأمر بالانجراف الذوات والتمسك بثوابت الهوية أو باهتزاز الاقتناعات وتضخم تجليات الشك والارتباب.

21 - إدوار سعيد، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

22 - محمد نور الدين أنانية، الهوية والاختلاف، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، طبعة 1988، ص.

II - من الهوية الجماعية إلى الأنا المتمردة

في صيرورة الهوية كما كتبها سحر خليفة باتجاه تفتتها ثمة لغة تنفلت، لا تخضع لنيات الخطاب²³. ففي ذروة الاندفاع الشعبي الفلسطيني إبان الانتفاضة كما تجسدها «باب الساحة» كرواية ناضجة نثر مثلاً على صوت «نزهة» يصرخ في الاتجاه المعاكس لتيار الاقتناع:

- «أخ تفو عليك يا فلسطين. أنا بدي أخوي ومش فلسطين» (ص. 210).

- «يلعن أبوك يا فلسطين. يلعن اللي نفضك يا فلسطين، يلعن تراك وأرضك وسماك ويلعن كل من قال أنا من فلسطين. أخذت الأم وأخذت الأب وأخذت الأخ والأرض والعرض وما خلّيت حاجة يا فلسطين. إش اللي باقي يا فلسطين؟ لا باقي حي ولا باقي حبيب، ولا باقي صاحب ولا باقي قريب، كله رايح، كله مدعوس، كله شقيان ومتشلوح، كله مشلح..» (صص. 210-211).

- «التفتت نزهة، ونظرت بعينها الوارمتين مباشرة:

- قولي له، قولي له، فلسطينك زي الفولة، ويتاكل ويتبلع وما

يتشبع» (ص. 219).

- «مش عشان الفولة، عشان أحمد» (ص. 222)

إن نزهة بهذا الوعي الذي يكشف عن هشاشة الهوية الجماعية تخرج عن هيمنة الخطاب السائد في الساحة الفلسطينية والذي يلقي بظلاله على كتابة سحر، لكنه وعي يمتص أساساً خياراً إيديولوجياً للذات الكاتبة يتم تصريفه عبر هذه الشخصية التي هيأت لها سيرورة المحكي كل المقدمات الضرورية لإعلان هذا الوعي الشقي. ففي غمرة هذا البوح المعلن نكتشف عمق الاهتزاز الذي يمكن أن يصيب هوية شعب من خلال الأعطاب التي يمكن أن تلحق بهويات أفرادها.

هذا يطرح عدة عناصر للفهم، أولها أن الكاتبة تود أن تؤكد أن الهويات ليست ثابتة. ومن ثم يمكن أن نسجل كيف تهتز هوية المعنى، هوية اللغة... وكل هوية يوطرها

السائد والجاهز. كما يمكن اعتبار سحر خليفة في رؤيتها لإشكالية الهوية الفلسطينية مشدودة إلى نوع من الهوية لا يتحدد بخصائصه الذاتية، بل الهوية هي ما لا تتحدد إلا من خلال علاقتها مع غيرها ومع تبدلات الواقع: «ما يميز الهوية بهذا المعنى هو التفتح وليس الانغلاق، الخروج وليس الدخول. الهوية نتيجة ونهاية. وليست مبدأ وأصلًا. إنها ليست شجرة أنساب، وسلسلة التوالدات وإنما بناء وتركيب»²⁴.

وطبعًا ليست «نزهة»، كوعي وكصوت، نشازًا في هذا الخطاب، بل يكاد هذا النشاز يصبح قاعدة في المسار الروائي لسحر خليفة. ففي رواية «لم نعد جوارى لكم» تحتد درجة الاغتراب، حيث «يصبح الشاب الثوري مائعًا! كيف؟ ولماذا؟ ما الذي حدث؟ ما رأى هناك؟ ما الذي غير اتجاهاته؟ وتلك النقمة على البورجوازية المدللة ضاعت، فقد أصبح هو نفسه مدللًا. وذكريات السجن والمعتقل، كل ذلك ضاع». ضاع! (ص. 160). هذا التحليل في قيم الانتماء الجماعي يأتي من إحساس بالحاجة إلى واقع بديل لا يستطيع تحقيقه إلا عبر الانسلاخ عن «ثوابت الهوية» والمضي إلى أقصى درجات الاغتراب: «والحقيقة أنه بات يحس أنه في مكان غير مكانه، وفي بلد غير بلده، وأنه غريب في جو قاحل كئيب» (ص. 129).

كما تقدم رواية «العصار» على هذا المستوى نموذجًا واضحًا لهذا التصدع في جدار الهوية، وبدءًا من مظاهر التدجين التي طرأت على مستوى الوعي والسلوك، وصولًا إلى الشك في كل شيء، وبالطبع مرورًا بهشاشة الفهم والتحليل والتآكل الذاتي وانهييار قيم الصمود أمام زحف آليات التدجين الصهيونية:

«هز أبو محمد رقبته الغليظة موافقا وعقب:

- وأنا حاليًا أدخن «العال».

تساءل أسامة بفزع:

- سحائر إسرائيلية؟!

- وآكل أرزا إسرائيليًا وطحينا إسرائيليًا وسكرًا إسرائيليًا. البضائع

تفقد جنسيتها بمجرد وصولها إيلات. ونحن ندفع ثمن البضائع مرتين. مرة

24 - عبد السلام بنعبد العالي، *ثقافة العيون وثقافة الأذن*، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى

للجنسية الأصلية ومرة للجنسية الجديدة.

- وتدفعون؟؟!

ضرب السائق المقود بانفعال:

- ندفع الملعونة وأختها.

حملق أسامة في المرأة الصغيرة المعلقة أمام السائق. أخذ يتملأ في عيني الرجل البليدين بمحلق... ماذا حدث لهؤلاء الناس؟ أهذا ما فعله بهم

الاحتلال؟ أين روح المقاومة؟ أين الصمود؟

وصاح فجأة كمن يتقيًا:

- وأين الصمود؟

قهقهه السائق بسخرية:

- للذين قبضوا منه. «(ص. 22).

في هذه الرواية ينخرط الفلسطيني في دواليب الاحتلال، وتبدأ طاحونة الحو وتفتت عناصر الهوية الجماعية. «ولكن لا بأس. الليرة الإسرائيلية خير من المجموع» (ص. 50). تنقلص مساحة الوعي العام وينتشر التدبير الذاتي. تصبح سلطة الأمر الواقع هي التي تشيع صيغ الهوية القابلة للتكيف. تتورط هوية الفرد في جدل علاقة غير متوازنة مع معطيات الواقع. يمثل الفلسطيني لعجزه ومخاوفه فيتخلى عن صموده ويستسلم لأوامر حياته الداخلية وحدها ولاكراهات علائق اجتماعية متعارضة مع ذاكرته ورغباته وتكوينه النفسي والثقافي والاجتماعي. «في الصباح رأس الواحد منا يزيم قنطارين. والصحة كالأجر. كل يوم بيومه. والخوف كل الخوف ليس من اليهود. الخوف من المرض والعاهات والبطالة. سكان المدينة لا يعرفون معنى هذه الكلمة. «فلان هبط». كلمة هبط تطن في الأذن كالطبل. وتعني ما هو أكثر من الموت. أكثر من الاحتلال. هبط... يا خوي لأهبطُ وياكلني الدود ولأمينُ يسألُ عني ولا عن الأولاد. قطاطيم لحم مينُ يريهم» (ص. 76). وهكذا تتكاثر صور هذا التعارض بين الفرد والانتساب الجماعي في الرواية. يعمُ الشك فضاء التواصل الفلسطيني. ولا تعثر على شخصية متحمسة «للثواب» حتى تسوق إليها المحكيات الصغيرة الطارئة شخصياتٍ تسخر أو تنقد أو تقدم حجج الارتياب: «بس يا ابني وآخرتها؟ والكلام ماذا يفيد؟ 25 سنة واحنا نتاجر بالكلام. تجارة خاسرة مية في المية. تجارة الفسنيخ أحسن منها» (ص. 65)، وبورجوازية الثورة التي تمتص دم الأشقاء وعرق جبينهم تصلح

كبؤرة للغضب وكذريعة لانهيار القيم الجماعية: «عمارة خمس طوابق لواحد من الناس اللي فوق. ولما طلبت منه أجرة مثل باقي الخلق قال لي: عيب. قال ايش الشغل عنده بنص القيمة خدمة وطنية. قلت له الدنيا غلا والمصروف كثير. قال خدمة وطنية. قلت له الإيد اللي في الميه مش مثل الإيد اللي في النار. قال خدمة وطنية. قلت له طيب ليش الخدمة الوطنية عليّ وبس؟ قال: ولازم على غيرك كمان. قلت له: وأنت؟ قال لي عيب ها لجيكي» (ص. 76).

وهكذا ترك التجربة الانفعالية الوجودية آثارها السلبية على الفرد الفلسطيني وبنيتة النفسية. ومن ثم تتدخل في نمط وعيه وشكل تلقيه للعالم والعلائق. وكما راينا من قبل قيمة التفاصيل المرئية في تكون معرفة معينة بالفضاء الوجودي، يمكننا أيضا أن نسجل هنا كيف تلعب اللحظات والجزئيات الاجتماعية دورا في تشييد نموذج آخر للهوية قائم على التنافر الإيديولوجي بين الفرد وفضاء تواصله الجماعي، وأساسا بين الفرد وثقافته السياسية والاجتماعية.

«هز أسامة رأسه وغمتم:

- الكلام مع السكارى عبت! أنت سكران. ادخل البوابة واصعد إلى غرفتك فوراً ونَمْ. أنت سكران.
وقف عادل وواصل هذيانه:

- أينا ليس كذلك؟ بعضنا بنشوة الصمود. وبعضنا بأجساد القتال. ونحن بمَقْص الكلاوي. مقص الكلاوي مزعج. أصعب من آلام المخاض. لكن آلام المخاض تعقبها ولادة» (ص. 60).

أما «عباد الشمس» فتأتي لتضع جملة من طقوس الهوية موضع مساءلة. تتراجع السلطة الرمزية للطقوس²⁵، وتفقد أية قدرة على تعيين الموصفات اللائقة بالانتماء إلى

25 - انظر حديث ميشيل فوكو في كتابه *نظام الخطاب*، م. م.، ص. 27، حيث يقول: «الطقوس تعين الموصفات التي يجب أن يمتلكها الأفراد الذين يتكلمون (والذين يمكن أن يحتلوا هذا الموقع أو ذلك، ويمكن أن يصوغوا هذا النوع أو ذلك من المنطوقات، ضمن لعبة الحوار والتساؤل والسرد)، إن الطقوس تعين الحركات والسلوكات والظروف، وبمجموع العلامات التي يجب أن ترافق الخطاب. إنها تعين أخيرا الفعلية المفترضة أو المفروضة للأقوال، ومفعولها على أولئك الذين تتوجه إليهم، وحدود قيمتها الإرغامية».

الجماعة، بل وتفقد رقابتها على جل العلامات التي ينبغي أن تكون مرافقة للخطاب الطقوسي السائد أو متجاوبة معه. ومن ثم، فإن صورة الشهيد لن تظهر إلا بمظهر شاحب في ظل شحوب كل شيء، وسيفقد الموت السياسي طابع التقديس وما يشحنه روحيا (Spiritualisation) ويغلو جزءا من ذاكرة هشة توقف الحسرة أكثر مما تبعث على الاعتزاز: «وقفت تحت صورة مكبرة لزهدي وهمست: «رَحْ أبني لسأولاد بيت، وتشهد علي روحك يا زهدي». وتأملت العينين السوداوين والشاربين الكثيفين وأحست بالغبرة، فما عاد للصورة مفعولها السابق، وما عاد للذكريات طعمها الحاد ونكهتها المتحددة. وبالرغم من الاعتقاد السائد بأن روح الشهيد تظل على اتصال بالعالم ترأف بالمحبين وذوي القربى، إلا أن الزمن يُهَيِّئُ كلَّ شيء، كما فعل بألوان الكتابات والستاثر. والفرق أن وجوه الكتابات تجدد، أما وجه زهدي، فيا حسرة» (ص. 33). كما أن فعل الشهادة نفسه أصبح عرضة للتداول. فأبو معروف (إحدى شخصيات الرواية) غير مقتنع بأن يستشهد ابنه معروف. ذلك أنه يراهن على أن يتخرج مهندسا ويحسن وضعه الاجتماعي (صص. 50-51). أما الثورة فقد غدت فضاء لا اغتصاب «روح الشباب». فقد حجبت فوهات البنادق عن العين أسراب البنات، و«ضاعت البراءة خلف القضبان واختبأت في ذكريات الطفولة. ولا شيء سوى الصفعات ونعيق السجان» (ص. 59). كما ترهلت الرؤية واتسعت فضاءات الخواء: «غرباء نحن، ولا فائدة ترجى. نفلسف الأشياء حتى التزل. نلوك أحزان الفرد وأحزان الجماعة. ونظل في الداخل ذبابا في عش عنكب. نمد أيدينا ترتد خواء، ورغم الظلمة مطالبون بالنور والرؤية وادعاء البصيرة» (ص. 111).

إن **تعالى الفضاء الذي لا يعدو كونه مجرد لغة** بالنسبة لأي كاتب، على نحو ما أكد ذلك **جان إيف تاديمي** في «المحكى الشعري» لا تنزل به هنا إلى مستواه الدنيوي المبتذل إلا اللغة نفسها، وهي في الرواية لغة تختارها وتستعملها الكاتبة بمكر من يعرف مقاصده مسبقا. هل هي صدفة أن أضعف حضور فضائي في كتابة سحر خليفة هو الفضاء المقدس؟ وهل من قبيل الصدفة كذلك أن تنزاح الحقيقة عن كل فعل طقوسي جماعي لتصبح حقيقة فرد؟ هذا الفرد الذي يبحث عن نفسه فيما هو يبحث عما ليس هو، أي عن **الفلسطيني**! ولا تخلو رواية **سَحَر** «**مذكرات امرأة غير واقعية**» من هذا العطب الجوهرى في فضاء الهوية: «واكتشفت أنني مشوشة الهوية، وقد كانت مشوشة أصلا» (ص. 6)، تقول الشخصية المركزية في الرواية (عفاف)، لتعود في صفحة أخرى إلى ما أصبح هماً ثقيلا: «وحكت لي صاحبي عن إيرلندا حتى كبرتُ بإيرلندا. وقلتُ لها: يكفيني هم فلسطين،

حتى همّ فلسطين زهقته» (ص. 95).

إن هذا الكفر بإيرلندا وبفلسطين هو كفر بالعالم أساسا. وقد سبق للكاتبة في «عباد الشمس» أن أعلنت هذا الكفر بخريطة العالم في إشارة يتبدّى فيها سؤال الجغرافيا مصدرا للألم والمرارة: «وأرى العالم خريطة معلقة على جدار صف صغير في قرية منسية. وأراجع الدرس وأقول: اسمعوا يا أولاد، القرن العشرون هو قرن ميمون. هذه أوروربا وهذه آسيا وهذه إفريقيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأقصى والأدنى. ونحن في الشرق الأوسط. هل تغيّر شيء؟ وترتفع الصغيرة بحماس. انتهى الدرس» (ص. 225).

هكذا تضيق العلاقة بالعالم الخارجي عند لحظات تدهور معالم (Repères) الهوية الجماعية، تضيق المسافة ليصبح إدراك العالم مجرد إدراك للذات الفردية ويتحول الفرد نفسه إلى موضوع لأناه، وتصبح «الأننا» وعيا بالذات²⁶. ومن ثم لا يعود الانتماء الجماعي يشكل أية قيمة تُذكر أمام التقدير العالي لعزلة الذات وللشعور بالاختلاف والتباين في دائرة ما يطلق عليه إريكسون ERIKSON «الهوية السلبية»²⁷: «قالت نوال: ما هذا السخف؟ أنت تهزين من مواجهة الواقع، اين الثورة؟ قلتُ: لم أدعها على الإطلاق، أنسيت؟» (ملحركات امرأة غير واقعية، ص. 106). وإذا تذكرنا في هذا السياق - على سبيل الاستئناس - ظهور سحر خليفة في شريط «الذاكرة الخصية»، وتذكرنا أيضا أنها تسخر من نفسها كمناضلة، وهي سخرية انتقادية واضحة أدركنا حالة الاستلاب (الاغتراب) الذي تعانيه الشخصيات الروائية في كتابة سحر. فالكاتبة نفسها مُستَلَبَة - كما لاحظ ذلك إدوارد سعيد - «لأن عملها ككاتبة وكامرأة وطنية يندرج في بنية السلطة الإسرائيلية المهيمنة على الضفة الغربية، وهذه السلطة تجهض عمل سحر. وسحر تعبر عن التفرغ عن

26 - أليكس ميكشيلي، الهوية، ترجمة د. علي وصفة، دار الوسيم، دمشق، الطبعة الأولى، 1993، ص.

71.

27 - انظر المرجع السابق، ص. 83، حيث يتم التأكيد على أن «الهوية السلبية» هي «عندما يعي الفرد هويته التي تشتت على وحدته، وانتماءاته، وتبايناته، وقيمه، يكون قد كوّن تصورا، أكثر أو أقل وضوحا، عن هوية أخرى سلبية. وذلك بناء على سمات ومواصفات نوعية يرفضها ويتجنبها. وتقتضي مثل هذه الهوية السلبية بالضرورة وجود هوية إيجابية مرافقة لها. وهي بدورها تسهم، كما هو حال التعارضات الأخرى الخاصة بالهويات الفردية الأخرى، في بناء الوعي الخاص بالهوية. فالوجود الخاص، كما لاحظنا ذلك في واقع الأمر، يولد على أساس التعارض مع كيانات وجودية أخرى. ومن هنا بالذات يترك الشعور بالتباين أثره على الشعور بالوجود».

التحقق السياسي، وبالطبع عن التحقق الجنسي أيضا، فقد حُرمت من الإثنين: الأول لأنها فلسطينية، والثاني لأنها امرأة عربية»²⁸.

استلاب مُضَاعَفٌ، لأن ثمة عملية إخضاع الشخصية الروائية للخطاب الروائي، وإخضاع هذا الخطاب للذات الكاتبة، أي للكاتبة المتمردة على كل أشكال السلطة والتي تشكل هي نفسها مصدرا آخر للسلطة. ذلك لأن من يلوذ بفضاء «الأنا» وفي تصوره أنه يفلت من ملاحقة الشعور بالانتماء للآخرين ينسى أن «الأنا» هي «الوسيلة التي ينعكس فيها المجتمع في داخل كل فرد منا والتي يمارس عبرها رقابته على أفعالنا»²⁹.

28 - إدوارد سعيد، تجربة الاستلاب، م. م.، ص. 16.

29 - انظر: أليكس ميكشيللي، الهوية، م. م.، ص. 70.

الفصل السابع

الفضاء الأنثوي

I - عتبات قراءة أنثى في سحر خليفة

دأبت عدة كتابات نقدية مهتمة ومواكبة لما سمي حتى الآن **بالكتابة النسائية العربية** على الانتباه لأنثى سحر خليفة باحتفاء كبير. وذلك من زاوية نظر متضامنة مع نموذج «البطلة» الذي تقترحه الكاتبة الفلسطينية تلك «البطلة» التي تعلن ثورتها الخاصة في

1 - «**الكتابة النسائية**» أو «**الأدب النسائي**» مصطلح ما زال يثير عدة اعتراضات وتحفظات. وقد توقفت عنده بعق الناقدّة العربية خالدة سعيد في كتابها: **المرأة، التحرر، الإبداع**، دار النشر الفنك، الدار البيضاء (المغرب) - الطبعة الأولى، 1991، ص ص. 85-88. وهي ترى أن هذا المصطلح «شديد العمومية وشديد الغموض. وهو من هذه التسميات الكثيرة التي تشيع بلا تدقيق، ولا يتفق اثنان على مضمونها، ولا يتفقان على معيار النظر فيها (...)». وإذا كانت عملية التسمية ترمي أساساً إلى التعريف والتصنيف وربما إلى التقويم فإن هذه التسمية، على العكس، تبدأ بتغييب الدقة وتشوش التصنيف وتستبعد التقويم، هذه التسمية تتضمن حكماً بالهامشية مقابل مركزية مفترضة» (ص. 85). ومثلما هناك عدد وافر من الباحثين والنقاد العرب يمضي في أفق هذا الاختيار الذي نتبناه بدورنا، نجد آخرين وأخرى يتبنون على العكس هذا المصطلح ويتداولونه بكيفية حاسمة: أنظر عرضاً جيداً لمختلف التصورات والاجتهادات في دراسة رشيدة بنمسعود «استراتيجية الكتابة النسائية»، مجلة **عالم الفكر**، المجلد 21، العدد 1، يوليو - أغسطس - سبتمبر 1991، ص ص. 119-130، وكذا دراسة بثينة شعبان «الرواية النسائية العربية» - مجلة **مواقف**، عدد 70-71، شتاء 1993، ص ص. 211-233. كما يمكن الاستئناس أيضاً بمقالة أساسية لمنى أبو سنة، «إشكالية الإبداع في الأدب النسائي»، مجلة **إبداع** (القاهرة) - العدد 1، يناير 1993، ص ص. 22-25، وكذا دراسة اعتدال عثمان، «الخطاب الأدبي النسائي بين سلطة الواقع وسلطة التخيل» ضمن **نفس المجلة**، نفس العدد، ص ص. 13-21.

قلب «مورة منتكسة مغدورة من داخلها»²، وتقدم «مشروعاً لشخصية نسائية إنسانية جديدة لم تألفها الرواية التي كتبتها المرأة من قبل»³. ولا تجدد هذه الدراسة غضاضة في التعبير عن هذا الاحتفاء بالقول: «وتتضم رواية سحر خليفة «عباد الشمس»⁴ مشهداً نادراً تخلع فيه الفتاة الفلسطينية حزام العفة الجنسية، وتلبس للشرف ثوبه النضالي الوطني والشمولي الأصيل. فحين يمسك الجندي الإسرائيلي بفتاة فلسطينية تتظاهر مع رفاقها الطلبة ضد الاحتلال في الضفة، وحين يعجز هذا الجندي عن كسر عنفوانها بالضرب، يتكئ على عقدة الخوف الكلاسيكية العربية على العرض: «ما بتخافي من الضرب عرافيت، أنا بعرف على إيش بتخافي».. لكن الفتاة الجديدة تشق مريولها المدرسي عن الصدر، وتجيّب الجندي/«قصّك على هذا. ولا على هذا بخاف»، حيث يعلق د. عفيف فراج بالقول: «هذه المرأة الجديدة، التي تخاطر بالجسد الطبيعي من أجل الوصول إلى تحرر عام تلتقي ذاتها الحرة في إطاره، هي البديل للنمط الشوفيّ الأحادي البعد الذي تقدّمه نوال السعداوي...»⁵.

وفي كتابها «الرواية النسوية في بلاد الشام...»⁶، تختفي إيمان القاضي بالروايات الفلسطينية أو ذات الموضوع الفلسطيني التي أظهرت «مفهومياً ناضجاً لحرية المرأة»، وإن كانت تسجل أننا لا نلتقي بنماذج كثيرة بهذا المعنى نظراً ليمنة صورة المرأة النمطية (البيت، الزوج، الأولاد...). ومن ثم تسوق بعض الأسماء الروائية النسائية التي تعتبر رؤيتها للمرأة نموذجية وفي مقدمتهن تدرج إسم سحر خليفة. ورغم أن هذه الباحثة السورية تنتبه إلى كون الشخصيات «جاهزة لم تتغير تغيراً كبيراً...»⁷، وتعتمد الكاتبة إلى إلصاق كلامها على شفاه بعض شخصياتها إلى درجة أن هناك بعض الشخصيات غير مثقفة وتكلم لغة

2 - د. عفيف فراج، «صورة البطلة في أدب المرأة. جدلية الجسد الطبيعي والعقل الاجتماعي»، ضمن مجلة الفكر العربي المعاصر، عدد 34 - ربيع 1985، ص. 150.

3 - المرجع السابق، الصفحة نفسها.

4 - في هذا الاستشهاد تسمى هذه القراءة الاحتفائية الرواية بـ «دوار الشمس» خطأ، عوض «عباد الشمس» (هل هو خطأ مطبعي فقط؟).

5 - م.س.، الصفحة نفسها.

6 - إيمان القاضي، الرواية النسوية في بلاد الشام: السمات النفسية والفنية (1950-1985)، دار الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى، 1992.

7 - م.س.، ص. 283.

وخطاباً ليسا لها...⁸، فإنها مع ذلك تنوّه بالنموذج النسوي الذي تسعى سحر خليفة إلى تكريسّه والانتصار له. ونراها تعود في خاتمة دراستها لتسجل أنه «على الرغم من الملاحظات السابقة بشأن الروايات ذات البنية التقليدية فإن هناك بعض الأعمال المتفوقة التي تدل على نضج كتاباتها وموهبتهم، وقدرتهن على الخلق والإبداع، ومشاركتهن النشطة في إثراء الفن الروائي العربي، وتأتي في مقدمتهن سحر خليفة»⁹.

وفي نفس السياق نقرأ في شهادة للروائية الفلسطينية الأخرى ليانة بدر «حول الكتابة النسائية الفلسطينية»¹⁰ أن «سحر خليفة عبرت في رواياتها عن المفاصل الرئيسية في صراع الشعب ضد الاحتلال. وتحكي خليفة في رواياتها صراع النساء ضد القهر الاجتماعي المتمثل في الأعراف القديمة التي تميز بين الذكر والأنثى، وتجعل من المرأة أضحية على مذبح القيم التقليدية التي تعاملها بدونية وتغيز. وقد التفتت سحر إلى مجتمع الاحتلال كي تشير إلى أنه من الضروري العمل على إلغاء هذا التفوق الوهمي بينهما رجوعاً إلى النضال العظيم الذي تقوم به نساء الأرض المحتلة وسط هذه الظروف القاسية».

أما د. فيحاء قاسم عبد الهادي، الباحثة الفلسطينية، فهي ترى أننا نقرأ ونعي المرأة وتطورها من خلال ما كتبه المرأة الفلسطينية، وفي تقديمها لكتابة سحر خليفة، خاصة روايتها «عباد الشمس» يتبدى تقريرها لنماذج الشخصية النسائية التي تشيدها الكاتبة لالتقاط عناصر التناقض التي يمتلئ بها الواقع الفلسطيني. وتقف هذه الناقدة عند نموذج «سعدية» في الرواية، أحد نماذج الشخصيات في كتابة سحر خليفة، لتحفسي على الخصوص بمسار تطورهما على مستوى الوعي والتجربة «فمن إنسانة جاهلة بسيطة تعتمد على الزوج وتنتظره إلى إنسانة عاملة مكافحة. تتطور من إنسانة ترتعد أمام أي مشكلة إلى إنسانة قادرة على الوقوف أمام الصعاب ومجابهتها. ومن إنسانة لا تمتلك غير أن تقول «منشان الله» مستحجة حين تواجه المحتلين إلى إنسانة تقاوم المحتلين بالحجارة وتضربهم غير عابئة بشيء. إن سعدية هنا ليست علامة إيديولوجية أو شخصية مبشرة، بل إنها نموذج إنسانة عادية تعيد صياغته الشروط فيصبح لا عادياً حتى عندما يترأى أنه عادي منذ

8 - نفسه، ص. 285.

9 - نفسه، ص. 403.

10 - ليانة بدر، «حول الكتابة النسائية الفلسطينية»، ضمن جريدة *الفصل العربي* ليوم 4 مارس 1991.

البداية حتى النهاية»¹¹.

وضمن سياق احتفاء الدكتور علي الراعي بنماذج مختارة من الرواية العربية، يقف الناقد المصري المعروف عند «الصبار» و«عباد الشمس» في كتابه النقدي «الرواية في الوطن العربي»¹². وبعد أن يقدم المتن الحكائي الممتد على طول الروايتين معاً، يحاول أن يبدى وجهة نظر تجاه كتابة سحر خليفة، وعلى الخصوص حول نظرتها للوضع الاعتباري للمرأة الفلسطينية كما تقدمه من خلال نماذج نسائية متعددة (سعدية، خضرة، نوار، رفيف).

إن النموذج النسائي الذي تكتبه سحر في «الثانية» هو نموذج المرأة التي «تحررت تحرراً فعلياً، أملاه الواقع ولم تحدد مساره النظريات»¹³، وباستعراض د. علي الراعي للعناصر الحكائية للروايتين، نجد يختار بعناية مواقف نسائية تجسّد مدى تعاطفه مع هذا النموذج، إن «نوار» ترفض الاستمرار في الانتظار الرومانسي لرجل مناضل يقضي العمر في المعتقل، ترفض أن تظل «معلقة بحباله» في حين أن الشباب ينصرم و«السنة القادمة غير السنة الراجعة»، ولم يعد ممكناً أن تقف طويلاً في طوابير النساء الواقفات بانتظار زيارة السجناء «أترى ما رأي؟ لا تسلي: من يدافع عن البلد؟». كما أن «رفيف» ترفض تقنين حرركاتها وتأبى أن يصهرها التاريخ كرقم من الأرقام «أرفض أن أود في معبد أو بطن الحوت».

يضيف د. الراعي ضمن عرض الوقائع المختارة: «ولرفيف شكوى جهيرة الصوت من الرجال ومجتمع الرجال. تقول لنفسها: لن تحمل مأساة الشعب وهؤلاء هم القادة: عادل وأمثلة. أنا نصف الشعب. أنا المرأة. أنا النموذج الذي يمارس عليه عادل تطبيق النظرية. عاجز هو عن رؤية واقع المرأة ومتطلباته. ماذا يقدمه للمرأة؟ ما حلّ بالمرأة الجزائرية بعد الاستقلال. ناضلت وحملت السلاح وتعذبت في سجون فرنسا ثم أعادوها إلى قاعدة الحريم وغطاء الرأس، وخرجوا هم إلى النور. ماذا أعجب عادل في؟ يشتهي ويطالبني

11 - د. فحاء قاسم عبد الهادي، «تطور وعي المرأة الفلسطينية من العفوية إلى التنظيم»، ضمن مجلة أصوات معاصرة (المغرب)، العدد 3/2، 1992. ص. 102.

12 - الدكتور علي الراعي، الرواية في الوطن العربي (نماذج مختارة)، دار المستقبل العربي، بيروت/القاهرة، 1991.

13 - م.س.، ص. 252.

بشيء آخر. يحمل عبء حركة التاريخ وحمل عبئه هو. ويطالبني بالذكاء والثقافة والعمل المستمر. ويطالبني بأن لا تهون قواي وألا أتعثّر. يطالبني أن أكون رجلاً وأن أكون امرأة وأن أكون حمارة. أن أرى ما أرى وأظن حمارة. أعد العصي ولا أترنج. ويطالبني أن أكون وقوداً للثورة البردانة. ووقوداً لبروده هو. رفيف ترى أن تحرر الشعب لا يتم إلا من خلال تحرير المرأة. والمساحة التي تفرد لها سحر خليفة لهذه القضية تشي بأنها قضيتها هي في المحل الأول»¹⁴. ثم يحتفي الراعي بنموذج «سعدية» التي تنطقها التجربة ويجعلها الواقع الملموس تعيد بناء وعيها بالأشياء والبشر والعلائق وتحتاز - بعد طول امتثال - إلى خط المواجهة باتجاه تحررها الفعلي. وبعد أن يقدم المؤلف سرداً لحكاية «سعدية»، يشيد بقدرة سحر خليفة وبأن لها «براعة ملحوظة في تصوير الناس العاديين من كل المعتقدات والمناصب وتظهر براعتها بصفة خاصة في تصوير النساء العاملات وغير العاملات». يسجل في نهاية قراءته أنه لولا بعض الزوائد ولولا ضعف عملية التشذيب وقلة التركيز «لما وجد النقد شيئاً يقوله في ثنائية سحر خليفة سوى المدح الخالص»¹⁵.

غالب هلسا في قراءة انطباعية تحليلية لرواية «الصبار»¹⁶ يعتبر أن سحر أبانت عن رؤية نافذة للواقع الفلسطيني، هذه الرؤية «التي ألغت المقدس لصالح الواقعي، أصبحت بعد أكثر من عشر سنوات من كتابة الرواية نبوءة». كما لاحظ «أن شخوص هذه الرواية لا تكرر نماذج سابقة وثابتة، ولكنها تعيد بناء الإنسان المناضل من خصائصه الواقعية، ومن ظروفه المحددة».

«إن تجاوز النماذج الأدبية، التي ترسخت في وجدان الإنسان العربي، هذه النماذج التي تستمد حياتها من حماس شعبي لا يفتر، ومن إعلام رسمي يدعمها.. إن هذا التجاوز بالذات هو ما يميّز رواية سحر خليفة»¹⁷.

أما الروائي والناقد الفلسطيني فاروق وادي فيرى أن الكاتبة تخرج «من تلقائيتها حينما تصر على «تمذجة» شخصياتها الروائية، أي خلق الشخصية النموذج التي تشكل

14 - نفسه، ص. 249.

15 - نفسه، ص. 252.

16 - غالب هلسا، «الصبار: رواية الواقع الفلسطيني» ضمن مجلة مواقف، العدد 72 - صيف 1983.

17 - المرجع نفسه، ص ص. 82 - 83.

معادلاً لفكرة أعدت سلفاً، فتصوغ الشخصية حسب مواصفات الفكرة»¹⁸. وفي نفس القراءة، يدي وادي انتقاداً للدرجة الوعى بمسألة المرأة.

إن «هذا الوعى يسقط فنياً حين يعجز عن إيجاد معادلة وشكله الروائى». ويضيف ملاحظة أخرى قائلاً: «في رواية سحر خليفة تغيب قوة الحدث المحورى والمتنامى، وتحل مكانه الشخصيات والأفكار، وأحياناً الشخصيات - الأفكار. ولذلك، فإن البحث في الرواية هو بحث في الشخصية والفكرة، والشخصية - الفكرة. تطمح سحر خليفة في «عباد الشمس» إلى المزاوجة بين هموم الوطن تحت الاحتلال وهموم المرأة تحت ذات الشرط... «قضية المرأة جزء أساسي من قضية الوطن» (ص. 17)، مثلما تطمح إلى تعرية الموقف الانفصامي للمثقفين بين القناعة السياسية والإيديولوجية بعموميتها وبين الموقف والممارسة من قضية محددة هي المرأة»¹⁹.

فاروق وادي يسوق ملاحظة تتصل ببنية الكتابة، إذ يرى أن سحر تبدي قدرة على رسم الأجواء الحارة في المكان الشعبي، وتصل - برأيه - إلى ذروة امتلاك اللغة الشعبية عندما يتعلق الأمر برصد وتقديم تحركات وتعبيرات الشخصية الأنثوية. «مقابل ذلك، تخفق سحر عندما تقحمنا عنوة في أجواء المثقفين الباردة، فتتهجر إلى المقال السياسي والفكري عادم الحرارة الفنية. وعندئذ يشهد البناء الروائي تهاوياً ملحوظاً لا تشفع له صحة الطروحات السياسية والفكرية الناضجة، والعاجزة في الوقت نفسه عن إيجاد معادها وشكلها الفني»²⁰.

من جهة أخرى أبدى الناقد المصري فاروق عبد القادر - وهو ناقد مواكب لأعمال سحر خليفة ومتعاطف جداً مع تجربتها الأدبية - تبرماً من هذا النزوع الأنثوي المبالغ فيه، والذي يصل حد كيل الهجاء للرجل.

يكتب ف. عبد القادر في قراءة له حول «باب الساحة» ضمن كتابه «من أوراق الرفض والقبول»²¹ بأنه سبق أن كتب عن الأعمال السابقة لسحر خليفة (لم نعد حواراً

18 - فاروق وادي، «سحر خليفة وثلاثة هموم للكتابة الروائية» ضمن مجلة الطريق اللبنانية، العدد

3-4، ص. ص. 182-183.

19 - المرجع نفسه، ص. 184.

20 - نفسه، ص. 186.

21 - فاروق عبد القادر، من أوراق الرفض والقبول - وجوه وأعمال، دار شرقيات للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.

لكم، الصبار، عباد الشمس، مذكرات امرأة غير واقعية) - وهي قراءة لم نطلع عليها - وفي نهاية كتابته النقدية تلك، كتب: «رغم السخرية تظل حقيقة صادقة ومتماسكة وصافية كالبللور: نعم. ثورة المرأة الفلسطينية جزء من الثورة الفلسطينية، فقط: دون أولويات زائفة تضع الجزء قبل الكل، ودون أن ينفي الكل الجزء، أو لا يوجد إلا بعده. ثمة علاقة جدلية ضرورية: لا يمكن تثوير المرأة إلا في رحم وضع ثوري، ولا يمكن تحقق الثورة بكل شروطها إلا في حضور امرأة ثورية...»²².

وهكذا، بينما انتظر فاروق عبد القادر - بتعبيره في نفس القراءة القديمة - أن يظهر عمل جديد للكاتبه متطوعاً لأن ينهي إقامتها الطويلة «على هذا المقعد بين المُقْعَدَيْن»، جاء الجواب في «باب الساحة»، حيث قدمت الروائية الفلسطينية «وجهاً جديداً من وجوه مدينتنا القديمة: وجه نابلس التي تعيش الانتفاضة»²³، لكن وضعية البين بين تعود للظهور من جديد كانشغال مركزي في كتابة سحر: «المرأة في قلب «باب الساحة». المرأة قلب أعمال سحر خليفة، ولكن: أية امرأة هي التي تطالعتنا بها الآن؟ الشخصيات النسائية في الرواية: نزهة وزكية وسمر هي التي تشغل القدر الأكبر من الاهتمام والتفصيل. وكلهن واقعات تحت قهر الرجل، بدرجة أو بأخرى، وبشكل أو آخر...»²⁴.

ويستعرض فاروق عبد القادر المشاهد النسائية في «باب الساحة» ليصل إلى مشهد «سَمَر» التي جاء منع التحول في بيت «نزهة» (المشبووه) دون أن تتمكن من العودة إلى البيت، وإحساسها بالهانة حين كانت تتساقط على جسدها ضربات الأخ الأكبر: «وانطلق الأذان فجأة فأحسست بالموت، فلا الاحتلال ولا الجيش ولا كل عفاريت الأرض، أقدر على سحقها مما سَحَقْتُ». من ثم، يعلن الناقد المصري عن موقفه إزاء نظرة سحر للرجل:

«في هذا المشهد تبلغ هجائية سحر خليفة للرجل قمتهما. لم تتخل سحر عن هذه الهجائية أبداً، حتى الصيغة الجديدة للرجل المثلث لا تنجو منها!

«نعم، هي هجائية للرجل: الحاضر والغائب، المناضل والمتخلي،

22 - المرجع نفسه، ص. 259.

23 - المرجع نفسه، الصفحة ذاتها.

24 - نفسه، الصفحة نفسها.

الشاب والشيخ، الأب والزوج والأخ: هذا أحمد يصدر حكماً بالإعدام على أخته التي رعته ويترص بها، حتى تفر منه، وهذا حسام نفسه: يقسو في معاملة نزهة التي تقدم له مأوى واهتماماً غير مشوب، وقسوته - قبل أن يلجأ لبيتها وبعد أن لجأ - لا منطق لها، تبدو حجج نزهة في مواجهته ناصعة بيّنة، ويبدو موقفه القاسي جامداً وتقليدياً وغير مرر.

«وفي هذه المحاجية يشغل «السياسي» أو «المناضل» مكانه اللائق. وهنا حكاية مزودة عن المناضل الذي يتخلى عن رفيقته في النضال، ويتزوج من سواها، ويقطع ما بينه وبينها، أو يقيها عشيقاً في أفضل الأحوال، مرتين تتردد هذه الحكاية في «باب الساحة» (...).

«إنما هذه المحاجية دَفَعَ سَحَرٌ لأن تكتب أضعف فصول روايتها «اعتقال مركب»، ص ص. 153 - 168)، وهو الفصل الذي تأتي فيه أم حسام إلى بيت نزهة، هاربة من زوجها لائذة بزكية.

هذا الفصل كله خارج السياق الروائي وما يقدمه عن قسوة «الوجيه» الذي يلعب أدواراً ثلاثة متماثلة: أباً لحسام، وأخاً لزكية، وزوجاً لهذه السيدة الأبقية، سبق أن عرفناه في صياغات موجزة من قبل، فهو لا يضيف شيئاً سوى إحكام حلقة الاتهام حول الرجل في أدواره الثلاثة تلك. حتى لا يستطيع الفكاك!

«هجاء الرجل يكمله - بالضرورة - مديح المرأة:

.. النسوة الثلاث يضعن خطة هدم الجدار الإسمنتي وينفذنها، دون تلكؤ، وزكية تحمي الشاب وتؤمن الطرق «للملثمين» في الليل لأنها «لا تخشى»، وسمر تقف أمام أخيها الذي أوسعها ضرباً، تحميه من مرور الدورية، ونزهة هي التي تحرق العلم الإسرائيلي في النهاية.

«ولستُ - شخصياً - أعارض كيل المديح للمرأة، رفيقة وشريكة في النضال والمصير، ما أعارضه هو افتقاد الإنصاف. بعبارة أخرى: أكان لا بد كي تبرز سحر خليفة دور المرأة أن تبخس دور الرجل؟ كل الرجال الذين عرفناهم في «باب الساحة» - سواء كان حضورهم حياً أو من خلال مستدعيات الآخرين - جديرون بالنقد والولم لما فعلوه أو لما يمكن أن يفعلوه، وليس ثمة رجل واحد ناجٍ في عالم سحر خليفة. فلماذا أين يمكن أن

يؤدي بها - وبأعمالها هذا العداء «الشوفيني» للرجل؟»²⁵.

في القراءة الأولى لفاروق عبد القادر اختار عنواناً لمقالاته سؤالاً: *تحرير المرأة أم تحرير فلسطين؟* وبعد أن عاد ليكتب عن التجربة نفسها من خلال «باب الساحة»، وتأكد مما سماه «ميزان الإنصاف الذي مال في يد سحر خليفة، وبدأت في عملها زيادات ونسوءات لا ضرورة لها»، اختار سؤالاً آخر للقراءة الجديدة: *قهر الرجال أم قهر الاحتلال؟*

ناقد ينحاز إلى التجربة، لكنه لا يخفي انزعاجه من إغراقها في نزعة نسوية فوضوية. وذلك ما نستشعره من قراءات الناقد الفلسطيني فخري صالح الرائدة لأعمال سحر خليفة. عموماً يمكننا أن نلاحظ أن فخري يضيء هذه الأعمال الروائية، فهو بقدر ما ينم عن تقدير للتجربة لا ييدي تجاهها - في الوقت نفسه - أية رحمة. يبدو قاسياً، لكن بدون تجاوز، وييدي ممسكاً بآليات القراءة النقدية من حيث لا يفصل بين الشكل والدلالة، لكنه لا يحجب عثرات النص ولا يجد لها أعذاراً أو ذرائع. هكذا نفهم أن لغة الكتابة في الغالب هي لغة تفسر الفكر الكامن، فحيث «يعجز السرد الروائي عن تجسيد هدفه من داخله يلجأ الكاتب إلى التفسير مختلفاً وراء صوت الراوي يوجهه وينطقه بما يريد»²⁶، وحيث «تعجز الشخصية يتدفق الترجيع الشعري وتلجأ الشخصية إلى المتخيل تستعيز به عن المشهد الواقعي، فتنتفي اللغة الشعرية نفسها لينتصب الفعل الواقعي مكانها...»²⁷ (مثال سحر في رواية «الصبار»). ومن ثم، يرى فخري صالح أن الاعتماد على الاسترجاع واللغة الشعرية قد يثير سؤال الكتابة الروائية العربية التي تنتجها المرأة. لماذا؟ لأن «الترجيع صفة أساسية للكتابة الروائية التي تنتجها المرأة العربية، وهو سؤال يجيب عليه الظرف التاريخي للمرأة العربية وتضيق ظاهرة القمع المزدوج الذي تعرض له»²⁸.

وما يأخذ فخري على الحضور النسائي الطاغى في هذه التجربة أن العلاقة القائمة بين المرأة بوصفها جزءاً أساسياً من قضية الوطن (عباد الشمس، ص. 17). تظهر في الخطاب الإيديولوجي في حين أنها لا تظهر في الخطاب الروائي «لأنها لا تتجذر في الكتابة الروائية ولا تظهر في المشهد الروائي، بمعنى أن كل ما نشهده في الرواية تأكيداً لتمحور

25 - نفسه، ص. 262 - 263.

26 - فخري صالح، في الرواية الفلسطينية، مرجع مذكور، ص. 91.

27 - المرجع نفسه، ص. 90.

28 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

الكتابة الروائية حول المرأة هو خطاب الإيديولوجيا التي تحملها «رفيف» ولا تمارسها»²⁹. ومن ثم، تفتقد هذه الشخصية البوصلة الضرورية لفهم طبيعة الحدود الفاصلة أو المتقاطعة بين «جحيم التجربة الذاتية» والفضاء الإيديولوجي والسياسي الضاغط. وهكذا ستتتصر قيمة الممارسة على قيمة النظرية (نموذج سعديّة أمام نموذج ولحيف)، وسيتم العثور على إمكانيات لممارسة الحرية، لكن في غياب الوعي (نموذج خضرة) «حيث تبدو الحرية حرية العبودية أو حرية الاستلاب في تمرداها، حرية بلا هدف وبلا نتيجة»³⁰.

وفي قراءة فخري صالح لرواية سحر خليفة «باب الساحة» نعثر على أفق التحليل نفسه، حيث الفضاء الأنثوي واضح كسندٍ لعبور الأطروحة التي تقولب الشخصيات وتتحكم في المادة السردية باتجاه خدمة فكر جاهز. ولأن نية الكتابة تنقصُ تثبيت الرؤية الإيديولوجية للكتابة فقد حركت الشخصيات النسوية الثلاث (أم الشباب، نزهة وسمر) بما يليق بدينامية قدر روائي في حين أن الشخصية الذكورية الوحيدة التي تحضر فعلياً في النص (حسام) يتم حصرها وإعاقة ردود فعلها في الوقت المناسب. «إن حسام نفسه يبدو أداة لفحص خطاب نزهة، أو بالأحرى مثيراً ومحفزاً لثورتها الصاخبة على المجتمع. إنه أيضاً غير فاعل من الناحية الوظيفية في النص الروائي، فهو هامشي - ثانوي على صعيد الشخصيات الروائية. وكما يبدو فإن المشروع الإيديولوجي لسحر خليفة لا يكتمل إلا بالسكوت عن ردود فعل حسام تجاه خطاب نزهة..»³¹.

ولعل أهم ما ميّز قراءة الناقدة خالدة سعيد لرواية سحر خليفة «مذكرات امرأة غير واقعية» هو كشفها لبنية «التضاد وتساكن التناقضات»: التناقض في شخصية البطلة (عفاف) - التضاد في تقديم صورة الزوج والرجل إجمالاً - التضاد البنائي بين النصف الأول من الرواية والنصف الثاني - التضاد في طبيعة القصص الواردة في الرواية³². وهكذا، فمثلاً تظهر أغلب الشخصيات النسوية النموذجية في روايات سحر «تبدو لنا البطلة في مجمل الرواية مشروعة»، ورغم أنها ليست مروضة أو خاضعة، أي امرأة «غير واقعية»

29 - نفسه، ص. 100.

30 - نفسه، الصفحة ذاتها.

31 - فخري صالح، «باب الساحة» لسحر خليفة: الانقضاة بعين هامشية»، ضمن جريدة

القدس العربي، العدد 1212، الجمعة 9 أبريل 1993، ص. 6.

32 - خالدة سعيد، المرأة التحرر، الإبداع، م.م، ص. 98.

كما ينعته أهل - تلاحظ خالدة سعيد - فإنها «ليست متحررة عُميقاً»:

«تعي وجود الخطأ في أساس حياتها، وفيما هي تبحث عن العلة وتتوخى التحرر ترتكب مزيداً من الأخطاء. تأمل في التحرر من الزوج، لكن لتزوج غيره. وهذا ال- «غيره» مجهول واحتمال. مع ذلك فهذا المجهول هو الشرط الذي رأته لتحررها. حفاظاً على إمكانية التحرر تحاول الإجهاض فتفقد الجنين وتصاب بالعمق. فتضاف إلى مصائبها مصيبة جديدة، وإلى عوامل تنازلها عامل جديد. هي نفسها ترى العمق نقیصة جوهرية، إنها في الوعي تدور على نفسها مثل قطتها عنبر التي تدور وراء ذيلها. في هذا الوعي تزداد براعة في الصمت وتزداد تفوقاً. وهي المتمردة تختار العزلة دفاعاً عن نفسها أمام اتهامات الزوج. تتضاءل قدرتها على رؤية الآخر، وتنكفيء على ذاتها فتلغي ذات الآخر. غير أنها تداوي العزلة بمراقبة الملابس المنشورة على سطوح الجيران، وتتخيل الناس فيها. هذه البطلة تتأرجح «بين يَتَيْنِ». وهي تعرف ذلك كما يبدو في النص المثبت هنا، لكنها لا تعرف كل شيء. تعرف أن الخطأ موجود ولا تعرف أنها مبرجة على هذا الخطأ. بطل ناقص هي، بطل يحمل علةً يجعلها، علة موروثية وليس مسؤولاً عنها. وهذا ما يمنحها. في آن واحد، مأساويتها وديناميكيته كشخصية روائية كاشفة»³³.

هذا، وبينما تحاول «المرأة غير الواقعية» أن تكتشف الواقع، وفي غمرة دفع حوارها الداخلي الطويل في الرواية، ترى خالدة سعيد «هذه العباب من المرات، أفكار كثيرة ومواقف تدعو للنقاش ولا تخلو من مغالطات. صورة عن الضياع والتمزق واختلال المقاييس والصور وراء الصمت»³⁴. وحتى عندما يتعلق الأمر بحكي داخل حكي، تلاحظ خالدة سعيد أن سحر تختار حكايات معينة كي تخدم الجاهز: «العبرة هنا قائمة قبل الحكاية. الحكاية منسوجة بدءاً من العبرة، وفق سياق مرسوم يُفسر الأسباب على الخضوع للنتائج. الحكاية أقوى من المنطق، فوق الصمت. منطقها استثنائي ونتيجتها قاعدة»³⁵.

33 - م.س.، ص. 98-99.

34 - نفسها، ص. 100.

35 - نفسها، ص. 102.

II - قراءة أخرى: فضاء المفارقة:

فضلنا هنا أن نستأنس ببعض القراءات النقدية والشهادات لرصد كيف يتم تداول وتلقي «المشروع» الذي تقترحه سحر خليفة في كتابتها الروائية، وخاصة الجانب المتعلق منه بحقل النساء ومعجابه اليقين الذكوري وإزعاجه. وذلك حتى تتمكن من فهم أسس هذا التوجه، وكيف يشيد فضاءه الخاص من داخل التجربة الفلسطينية، ومن باب الانحياز لثقافة هامشية تسبح ضد التيار السائد، وانسجاماً مع فضاء فكري نظري ونقدي منتشر في العالم. في أمريكا وفرنسا بالخصوص.

وواضح أن سحر تتطلع لأن تكتب كتابة نسائية، نسائية جداً إلى درجة استفزاز آليات التلقي الذكورية، إذا صح التعبير، بل ولا تغطي مجموع آليات التلقي النسوية. إنها تريد أن تكتب بطريقة أخرى، بلهجة أخرى، بمشاعر أخرى بحثاً عن فضاء أكثر رحابة وأكثر تحوراً وانفلاتاً من ضغط وإكراه وعنف لغة الرجل. وحسب فرانسواز كولان، فإن لغة المرأة هي حرية القدرة على أن تتكلم المرأة كما تريد، وبكل الطرائق الممكنة، وأن تظل اللغة قريبة من الجسد الأنثوي ولا تبعد عنه مطلقاً. أن تقول هذا الجسد المتعدد. لكن هذه الباحثة الفرنسية تلاحظ أيضاً أن اللغة المكتوبة أو الشفوية وحدها لا تكفي للتعبير، بل هناك إمكانات أخرى كالإيماءات، والاتصال، والحركة، والرسم، والرقص، والموسيقى، والأغاني، والصوت. ومن ثم، أن تتمكن المرأة من لغة التعبير والكتابة معناه أن عليها أن تستثمرها إلى أبعد حد ممكن. ذلك لأن هذه اللغة - في سياق محكوم بمنطق الرجل وهيمته - تظل امتيازاً واستثناء فقط³⁶.

في نفس الإطار، تؤكد الناقدة الفرنسية الشهيرة في حقل الدراسات النسائية هيلين سكيوسوس Hélène Cixous على مبدأ الاختلاف بين الكتابة الأنثوية والكتابة الذكورية: «لقد ظلت النساء اللواتي يكتبن، في غالبتهن، إلى حد الآن لا يعترن أنهن يكتبن باختيارهن نساء، وإنما باعتبارهن نساء يمارسن الكتابة ككتابة»³⁷. كما تلاحظ أن هذا الوعي ناتج عن كون هؤلاء الكتاتبات لم يدركن الفواصل القائمة والممكنة بين المرأة والرجل في الكتابة، ويتعاملن مع الموضوع كما لو أن هذه الفواصل غير موجودة. والأمر

36 - Françoise Colin, in Maria YAGUELLO, *les mots et les femmes*, (Essais), Ed. Payot, Paris, 1987, p. 66.

37 - Ibid., p. 66.

في نظرها شبيه بتجاهل الانحياز في الحقل السياسي. فعندما يقول المرء: «أنا لا أمارس السياسة»، معناه أن الجميع يعلم أنها أفضل طريقة للتعبير عن كونه يقول: «أنا أمارس سياسة الآخر». وهكذا الأمر بالنسبة للكتابة كذلك - تقول هيلين سيكسوس - فأغلب الكاتبات هكذا: **يكتبن كتابة الآخر، كتابة الرجل، حينما لا يكتبن كتابتهن أو يتكفرن لها بسلاجة**³⁸. بمعنى آخر، على الكاتبة أن تجعل كتابتها تشتغل على فضاء الرجل، بوعي واختيار ووفق استراتيجيّة، وإلا سيشتغل عليها هذا الفضاء.

وتبدو سحر خليفة منذورة لهذا الاختيار، في الكتابة الروائية، (وفي الواقع أيضاً على نحو ما شاهدناها عليه في الشريط السينمائي «**للمأكرة المحصنة**» لميشيل خليفي). لكن الظاهر أنها تكتب كتابة أنثوية دون توفّر ثقافة نسائية في المجتمع الذي تكتبه. ومن ثم، فإن ما تفتقده - ما تشعر أن النساء يفتقدنه في الواقع - تحاول أن تشيده في الكتابة. ومن هنا هذه **القسرية في إخضاع الأسباب للنتائج** كما أشارت إلى ذلك خالدة سيعد³⁹. من هنا أيضاً تقوم الفكرة الجاهزة بليّ ذراع الواقع، ويتحول مشروع الكتابة الروائية إلى **كتابة إيديولوجية** أقل حرصاً على الجانب الجمالي، وأكثر اندفاعاً نحو بناء مشروطات الاستيعاب الإيديولوجي داخل اللغة الأدبية التي ينبغي أن يكون أفقها هو أن تتحرر من الإيديولوجيا الكامنة أصلاً في طيات اللغة.

إن كتابة سحر خليفة كتابة مُصارعة.

إنها كتابة تَنكِّبُ وهي تستحضر خصمَها، تكتب وهي تصارع أفكاره وطروحاته وأنماطه الثقافية السائدة، تكتب وهي تسعى لتدمير ذخيرته الرمزية والتخلص من شبابه

38 - *Ibid.*, p. 68.

وتعقيباً على رأي هيلين سيكسوس، تبدي مارينا ياكيلو مؤلفة الكتاب المشار إليه «**الكلمات والنساء**» تحفظها من هذه المقاربة، إذ تعتبر أن من الصعب بالنسبة لكتابة شخصية خاضعة للإشكالات المعقدة للتواصل والتعبير والكتابة أن تزعم أنها تكتب بمنطق «المرأة» أو منطق «الرجل». وعندما تزعم امرأة أنها ستكتب باعتبارها امرأة أو يزعم رجل أنه سيكتب باعتباره رجلاً معناه انتفاء الكتابة. وعندما يتعلق الأمر على الخصوص بالمرأة، يصعب الوضع أكثر لأن الثقافة الأنثوية لا تزال جد هشة، ويحتاج الأمر إلى بناء نماذج وأنماط ثقافية نسائية في المجتمع، وعلى أرضية الواقع»، المرجع السابق، الصفحة نفسها.

39 - كما مرّ معنا في عرض وجهة نظر الناقدة العربية خالدة سيعد، ضمن قراءتها لسحر خليفة:

المرأة التحرر، الإبداع، م.س.، ص. 102.

الإيديولوجية الملقاة على هامات النساء في المجتمع. ولذلك فهي كتابة تستعمل اللغة، وتقسر الكتابة، وتقود قبيلة الكلمات باتجاه نسج شبكة إيديولوجية مضادة تقتضيها طبيعة الصراع مع الرجل وطبيعة المهام التي أوكلتها لنفسها حركة نسوية هامشية (مهمشة)، حركة أقلية اجتماعية وثقافية بالأساس، داخل فضاء سوسيوثقافي هائج ومندفع.

ورغم أن سحر خليفة تبدو في «الوطن الذي اختارته لنفسها»⁴⁰، فإنها لا تكرر كل جهدها الإبداعي والجمالي لهذا الاختيار. ذلك أن الشكل الروائي يظل بعيداً عن أن يمارس أي إغراء خاص، فضلاً عن أننا لا نثر على أية روح أنثوية هاجعة فيه. يمكن أن نقول إنه شكل فقير من الناحية الفكرية والجمالية، ولا يسعف على المعنى بالنسبة لكل قراءة ترى أن «كل شكل هو فضائي»⁴¹، كما سبقت الإشارة.

لو أن الشكل الروائي، خاصة منه ما يتعلق بمعمارية النص الروائي وصيغة ترتيب السيرة الحكاية (مشكلة الزمن في الكتابة)، شكّل إضافة أو امتداداً (Ralonge) لخطاب الكتابة لأصبح مخزناً حقيقياً للأفكار والمشاعر والنزوعات⁴²، ولأتاح للخطاب الأنثوي إمكانية أكبر للعبور والإقناع والتواصل.

إن القضية، قضية المرأة في روايات سحر خليفة، تبدو أكبر من الشكل الذي يحملها إلى حقل التداول، من مجرد بذرة إلى أرض الإخصاب. وبما أن «فعالية الخطاب تتوقف على بنيته»، كما لاحظ بيير زعما⁴³، فإن غمطية البناء الروائي عند سحر خليفة هي التي تظل - في نظرنا على الأقل - سبباً لرفض الطرح النسائي للكتابة الفلسطينية واعتباره منفعلاً أو عنيفاً أو هجائياً أو، في أحسن الأحوال، إيديولوجياً.

وعندما لا تعبر الكتابة اهتماماً كبيراً للشكل المعماري فهي تتخلى في الواقع عن بعض أسلحتها. ولعل رهاناً إيديولوجياً يصل حد العدمية كرهان الأنثوي في كتابة سحر كان يحتاج إلى تكامل كل عناصر الكتابة الروائية، شكلاً و«محتوى». لا يمكن لعنصر أن يتخلى عن آخر، ولا يمكن لعنصر أن يعيش ويشغل لحسابه الخاص. وقد لاحظنا من خلال

40 - التعبير استعمله نيقولا بردياتف في كتابه *رؤية دوستوفسكي للعالم*، ترجمة فواد كامل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد الطبعة الأولى، 1986، ص. 7.

41 - جاك ديريدا، الكتابة والاختلاف، م.م.، ص. 154.

42 - Jean WEISGERBER, *L'espace romanesque*, op. cit., p. 227.

43 - بيير زعما، النقد الاجتماعي، م.م.، ص. 103.

بعض القراءات النقدية، حتى تلك المُحتفية بكتابة سَحَر والمتعاطفة مع خطها ورهاناتها، كيف يتعثر التواصل بين الإرسال والتلقي، ويؤدي النقاد تيرماً من إصرار الكاتبة على أن تجمع في ذاتها المتكلم والمستمع في نفس الآن.

والواقع أن الفضاء الأنثوي الذي يتم رصدٌ جيدٌ للعديد من مظاهره وتفاصيله وعناصره التكوينية، تتعامل معه الكاتبة كما لو كان نابهاً من عمق الذات أو متخيلاً فقط، وليس امتداداً لفضاء خارجي حسي. ومن ثم، هذه المفارقة: **كتابة تليدُ فضاءً وتغالبه في نفس الآن**. لماذا؟ لأن هناك عتمة إيديولوجية لا تسمح للأنثوي بأن يغدو مصدرًا لكل ضوء في كتابة كفاحية لم تصقل مشروعيها واختارت طريقاً «**ببرق ملامحها**»، لكن بدون إعداد «**عملة المسير**» بتعبير خالدة سعيد⁴⁴.

إن ذات الخطاب الإيديولوجي تتصرف في هذه التجربة الروائية بأقل تلقائية، ما يجعل النص موزعاً بين «أداء الرسالة» والنهوض بمطالبات إستيقا الكتابة (التي كلما تقوّت كلما فجرّت الغلالة الإيديولوجية الخائفة)، وموزعاً كذلك بين نوعين من الأنثا: «**أنا مبدعة**» و«**أنا اجتماعية**» يتعثر صهرهما في بوتقة واحدة لثقل «الأسطورة الشخصية»⁴⁵ التي تلهي الكتابة عن استكمال بناء مشروعيها العام، وتضعف من حواريتها بالمعنى الباختيي للحوارية من حيث هي إقرار بوجود وعي متعدد داخل النص الروائي.

ولعل ما يجعل الفضاء الأنثوي في أعمال سحر - على أهميته وشاعته - أقل اشتغالاً لفائدة نمو العمل الروائي هو أن ليس هناك تبادل حي بين هذا الفضاء وباقي الفضاءات الأخرى التي تدخل معه في علائق توتر متعددة، وما دامت آليات الكتابة لا تتيح إمكانيات أكثر لاشتغال الانكسار (Réfraction)، فإننا في الغالب لا نعثر إلا على تجليات لمركزية إيديولوجية⁴⁶.

44 - خالدة سعيدة، المرأة، التحرر، الإبداع، مرجع مذكور ص. 103.

45 - Charles MAURON, «Des métaphores obsédantes au mythe personnel», in Gérard GENETTE, *Figures I, op. cit.*, p. 136

46 - انظر ميخائيل باختين، **الخطاب الروائي**، ترجمة عماد برادة، مرجع مذكور ص. 130. وبخصوص مفهوم الانكسار الذي بلوره باختين يمكننا أن نقرأ عنه في معجم المصطلحات الذي هيأه الأستاذ برادة: «يرى باختين أن من السمات الأساسية للكتّاب الروائي، التحدث عن نفسه في لغة الآخرين، والتحدث عن الآخرين من خلال لغة الخاصة به، ومن ثم، فإن الروائي يلجأ إلى عدة وسائل لتكسير لغته وحرفها حتى لا تبدو مباشرة أو أحادية...»، م.س.، ص. 29.

وهكذا، فإن الأثنوي لا يرقى هنا إلى المستوى الذي يجعله ممكناً واقعياً (لا ممكناً فحسب) أو قابلاً للتصديق عند اختبار الواقع. هل لأن السؤال القديم: *ماذا تريد المرأة؟* الذي لم يجب عنه فرويد وتركه لاكان LACAN مفتوحاً⁴⁷، نعثر عليه بدون إجابة في كتابة سَحَر كذلك أم لأن هناك تضخيماً للذاتى والفردى على حساب ما هو جماعي واجتماعي عام؟

إن النماذج النسائية في روايات سَحَر تختزل إشكاليات مجتمعية في حالاتها الذاتية الفردية، ومن ثم كلما حاولنا فهم هذه الذاتية عثرنا على «نمط خطابي» آخر لا يخلص الكتابة من استبدادية الجماعي، بل يُظهر أيديولوجيا أخرى إلى السطح، ليست في النهاية غير هذا الخطاب الأثنوي الذي لا يعرف ماذا يريد في الحقيقة بالرغم من مصداقيته كخطاب ونبيل مقاصده.

نقرأ الشخصية النسائية فلا نعثر على استقرار الوضع الاعتباري ولا على وضوح في الخيارات: في «لم نعد جوارى لكم» المرأة «سامية» نخون طقس الصداقة والحب (عبد الرحمن المناضل السجين) وتندم ثم تعود فتخون مجدداً وترحل. وفي «الصبار» نجد أن «نوار» تحب صالح، المناضل الذي دخل بدوره إلى السجن جزاء كفاحه، وبعد أن تعاهد نفسها على ألا تتزوج إلا هو، تضطر إلى التخلي عن هذا العهد ويضئها الانتظار فتتخلى. أما في «عياد الشمس»، فيُعَلو صوت «رفيف» مطالباً بتحرير الأرض عن طريق تحرير المرأة أولاً لتصل بأفكارها إلى أفق مسدود، خصوصاً بعد أن تجد نفسها أمام امتحان قاس وهي تحاول أن تتواصل مع «سعدية» التي تعيش مرحلة عبور من لحظة إلى أخرى بعد استشهاد زوجها زهدي وخروجها إلى العالم الخارجي. هذا فضلاً عن «خضرة» الشخصية الأخرى في الرواية التي لم تستطع أن توازي بين تحررها وإكراهات واقعها. أما «عفاف» في «مذكرات امرأة غير واقعية»، فتظل مشروعة ناقصاً «بعمي وجود الخطأ في أساس حياتها، وفيما هي تبحث عن العلة وتتوخى التحرر ترتكب مزيداً من الأخطاء. تأمل في التحرر من الزوج، لكن لتتزوج غيره. وهذا ال- «غيره» مجهول واحتمال. مع ذلك فهذا المجهول والشرط الذي ارتأته لتحررها (...) وهي المتمردة تختار العزلة دفاعاً عن نفسها (...)

47 - انظر الفصل الخاص بالنقد النسائي (الفصل السادس) في كتاب رامان سلدن، *النظرية الأدبية المعاصرة*، ترجمة وتقديم جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1991، ص. 234.

تعرف أن الخطأ موجود ولا تعرف أنها مبرجة على هذا الخطأ...»⁴⁸. وتظل «نزهة» في رواية «باب الساحة» أبرز مثال - كما سبقت الإشارة - على البطلة الروائية التي لا تبحث عن الحقيقة، بل هي تحدها وتعرفها مسبقاً، ثم تسعى لتعريفها أمام اندهاش الآخرين. حقيقة الانتساب الجماعي الذي لا يقيم اعتباراً للفرد وكرامته وطمأنينته! هكذا، يصبح الفضاء الأنثوي في العمق فضاء متاهة غير معلنة، فضاء ضائعاً بامتياز تستشعر فيه الشخصية النسائية أن ما تبحث عنه بنوع من اليقين لا تستطيع أن تعرف ما هو، وما لا تراه أبداً هو الذي تكتشف أنها تعرفه أكثر⁴⁹. فضاء استلاب بامتياز، لكن هل هو استلاب واقع ترصده الكاتبة أم استلاب كتابة؟

III - جسد أنثوي بدون هوية جنسية

ربما خضعت قراءتنا للفضاء الأنثوي في أعمال الكاتبة الفلسطينية لتعميم معين، وهو تعميم مقصود ما دامت الغاية أساساً لم تكن هي أن نجعل من هذه القراءة نوعاً من التصريح النقدي الذي أصبح يطبع جل الدراسات النقدية (الأكاديمية وغيرها)، حتى أصبحت كلها متشابهة رغم اختلاف التون الروائية المقروءة، وخاصة لما يتعلق الأمر بكتابة أدبية تنجزها كاتبات.

وما دامت غايتنا هي أن نعبّر عن الوعي الأدبي إلى الوعي بالواقع وبالتجربة الإنسانية، كما سبق أن أوضحنا، وأن نراقب مدى اشتغال الفكر في الوعي معاً، فإننا لم نهتم كثيراً بكل تفاصيل الكتابة الروائية التي تظل - بصرف النظر عن أهميتها - ثانوية اعتباراً لرهانات الدراسة.

من هنا نود أن نتجه لتحليلات أحد أهم العناصر التكوينية للفضاء الأنثوي في هذا المعن، وهو جسد الأنثى باعتباره محور هذا الفضاء، لأن الجسد هو المنطلق لإدراك الفضاء، كما نعلم. ف «انطلاقاً من الجسد ندرك الفضاء ونعيشه، ونعيد إنتاجه»⁵⁰. وعلى هذا المستوى، تبدو كتابة سحر سخية جداً وهي تنظم العلائق بين الجسد الأنثوي والفضاء،

48 - خالدة سعيد، المرأة، التحرر، الإبداع، م.م.، ص. 899.

49 - انظر:

- Claude RÉGY, *Espaces perdus*, Ed. Plon (Carnet), Paris, 1991, p. 162.

50 - Henri LEFEBVRE, *La production de l'espace*, op. cit., p. 188.

حيث نعر على جسدٍ ينكَّبُ في الغالب. جسدٌ مُفكَّرٌ فيه بعناية ويُرادُّ له ألا يمضي في طريقه أعزل وحيداً، بعيداً عن أفكار الكاتبة وتوجيهاتها.

إننا نرى الأشياء ونقتحم الفضاءات مسلحين بعيون نساء انكبتن، لا بعيون نساء يعشن قبل الكتابة. ومن ثم، فإن أقوى الشخصيات النسائية هن اللواتي جئن إلى النص من دفء الحياة وحرارة التجربة كما هو الشأن بالنسبة لسعدية في «عباد الشمس» والسيدة زكية أم الشباب في «باب المساحة» مثلاً. إن هاتين الشخصيتين تبدوان كما لو كانتا قد خرجتا من جسدٍ لهما للتو وقامتا تمشيان. كما لو أنهما لم تأتيا من الليلة السابقة للنص، من العشية الماضية للكتابة الروائية، وإنما نهضتا من جرح الواقع ومعاناته وذاكرته.

لذلك، يمكن القول إن أغلب الشخصيات النسائية لها «حاجة للخارج»⁵¹ لأنها شخصيات مكتوبة على المقاس، من داخل الفكرة لا من حرارة الواقع. ومن ثم يمكننا أن نطرح السؤال: هل يمكن أن تستقيم كتابة نسائية بدون رمزية جنسية مثلاً؟ هل يمكن استثمار الجسد الأنثوي في الكتابة الروائية دون إحساس بالحاجة إلى تشغيل ورمزية. الأسفل الجسدي (Le bas corporel)، خصوصاً وأن القارئ المعاصر أصبح يعجب برمزية الجنس أكثر مما يعجب بالأخلاق التي يدافع عنها الكاتب، على نحو ما يؤكد لنا ذلك تودوروف.

إن هوية الكتابة النسائية «هوية جنسية»⁵²، وهي وحدها التي تجعل تشييد الفضاء الأنثوي ممكناً، وتجعله يتكلم، يُبدي لطفه أو يكشف عن عدائه. ولذلك لا يكفي هذا الفضاء، لكي يحقق دينامية في النص، بمجرد ظهور شخصيات نسائية، أو نساء هن طرح نسواني، أو نساء يرقصن ويغنين. فبدون بُعد جنسي يصعب أن يعلن الجسد عن هويته كما هي وكما ينبغي أن تُكتب.

وحتى عندما تفسح الكاتبة للجسد الأنثوي أن يعبر عن علاقته بالآخر، فإن هذا الجسد لا يظهر في صورة إغراء وافتتان. إنه يظهر كجسد مدنس برذيلة الخيانة: إيفيت في علاقتها غير الشرعية مع *ماروتي*، من وراء ظهر زوجها شكري في رواية «لم نعد حواراً

51 - Jean Claude MATHIEU, «Les cinq sensations de J. P. Richard», in Territoires de l'imaginaire, *op. cit.*, p. 241.

52 - انظر رمان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، م.م.، ص. 222.

لكم»⁵³، سامية في علاقتها بعبد الرحمن، في نفس الرواية، التي تعترف: أنا التي خنته» (ص. 142). ولما تسألها إيفيت: «ولكن لم خنته؟ ألم تُحييه؟» تتمم بشروود وترد: «بل عبّثته!». وتعود إيفيت تسألها بدّهشة: «لماذا خنته إذن؟ كيف استطعت ذلك وقد أحبيته؟» (ص. 142). كما يظهر هذا الجسد في لحظة إعاقة نابعة من خارجه (الحديث عن العذراء والبغى وما بينهما في «لم نعد جوارى لكم» (ص. 144)، مشكلة الخشني في «مذكرات امرأة غير واقعية»: «لرغبتي في الحصول على مزيد من الاحترام رفضتُ سِمَتِي الأصلية وبُتُّ «خنته»: لا هي ذكر ولا هي أنثى (ص. 6)، «فقدت هويتي وأصبحتُ «خنتة» (ص 8 59)».

وما دامت الرؤية النسوانية هي التي توظف حركة الجسد الأنثوي في مجرى هذه التجربة الروائية، فإن المرأة ككائن مختلف، يوجد في موقع مجابهة دائمة مع الرجل، تحاول أن تعطي لجسدها صورة غير الصورة التي له في الواقع، مما يجعلها «مفضل إبراز التمثل الذي تحمله عن جسدها بدل جسدها الملوس»⁵⁴، بل وتفقد إحساسها بجسدها باعتباره قيمة في حد ذاته، ما دامت في توتر ولا تملك صورة عن هذا الجسد في ظل غياب نظرة الرجل إليه.

لذلك، ربما كانت خيانة المرأة للرجل في روايات سَحَر تعبيراً عن حالة الانجذاب إلى الممنوع واللامسؤولية، أي إعلاناً عن تحدّي سلطة الرجل. والحالة هذه، فالنص الروائي يقدم لنا نموذجاً للمرأة التي بدلاً من أن تعري جسدها من إرغاماته، تدمر هذا الجسد. وبدلاً من أن تعيد ولادته، تأخذه إلى العدم وتفنيه⁵⁵. وهكذا، فإن *الإيديولوجيا الجنيسوية* التي تكون في الغالب لا واعية في الكتابة النسائية تحضر في كتابة سحر خليفة بكامل الوعي والإصرار، لكنها بدلاً من أن تتلبّس اللغة وتزرع حيويتها في السيرة السرديّة أو المتن الحكائي، لا تحضر إلا لإعاقة الرغبة الأنثوية.

إن سحر التي تنطلق من مرارة واضحة في كتابتها، لا تضع جسدها في ما تكتبه.

53 - لم نعد جوارى لكم، م.م.، ص. 93. وللإشارة، فإن سَحَر تبرع في التقاط لحظتين في نفس الآن، وهما الزوج خارج المطبخ، وإيفيت والعشيق داخل المطبخ، وهو مشهد يذكر ببعض اللحظات القوية في رواية «*هلام بولاري*» لغوستاف فلوير.

54 - محمد نور الدين أناية، الهوية والاختلاف، م.م.، ص. 41.

55 - حول هذا النموذج النسائي يمكن العودة إلى:

Luce IRIGARY, *Je, tu, elle*, Ed. Privat, Paris, 1990, p. 133.

ولعلها لا تشعر بحاجة إلى ذلك في ظل ثقافة ذكورية تلغي المرأة في الواقع والكتابة معاً. ومن ثم لاحظنا كيف يتراجع **فضاء الجسد**، كحلم أو كمتخيل أو كاستعارة لحساب تجليات **الجسد في الفضاء**. الكتابة في حالة «**انتقال من الطفولة إلى الوعي**»، بتعبير هنري لوفيفر⁵⁶. ونحن نعرف أن الجسد الأنثوي ما لم يتحول إلى صورة، إلى شذرات إغراء، إلى تمثيلات حاملة يصبح جسداً عادياً، مبتدلاً ضمن ابتذال الحياة اليومية. ولعل سحر تنقص هذا الحضور الجسدي لإعاقة الرغبة وتوجيه انشغال القراءة إلى الأفكار والطروحات لا إلى اللذائذ. فالمرأة ليست شيئاً؛ إنها إنسان له همومه واهتماماته ومواقفه. حتى الحب تتم إعاقة في المحكي ما دام ممارسة وجودية تكسر سلطة الرجل أكثر مما تقوي سلطة المرأة. ولذلك تراقبه آليات الكتابة حتى عندما يتعلق بتجربة فردية خصوصية. لا حب يستقيم في روايات سحر خليفة إلا إذا كان بين امرأة خائنة وعشيق متهور، بين شابة حاملة وشاب ملثم يضع رجلاً في الحياة وأخرى على حافة الموت، بين زوجة تبحث عن بديل وزوج ساذج مخلوع ثقيل الدم. وحتى عندما تتقدّر رغبة المرأة باتجاه الرجل، فإن هذا الأخير يظل مجرد حاجة (Manque)، مجرد نقص تتلاقى باتجاهه الرغبات والأفكار والمواقف، نقص تشعر فيه المرأة بغياب الرجل وينقصها الخاص أيضاً:

- «لقد حاولت البحث عن رجل. لم تكن تؤمن بأن للرجل من الحق في الحياة أكثر مما لها، وقد حاولت البحث عن الحياة من خلال الجنس، عدة مرات، وكل مرة انتهت إلى هزيمة، فما كان الجنس يثير في نفسها سوى حاجة ملحة للتقيؤ...» (لم نعهد جواردي لكم، ص. 21).
- «... وهكذا ظل الباب موصداً، والأرض البور قاحلة جدياء، واللوحة الفارغة قطعة قماش، لم تُلَوَّن بعد!» (لم نعهد جواردي لكم، ص. 40).
- «وأنا كإنسان، كامرأة، بحاجة للدفء واللذة، وهذا ما يقهرني: كوني إنساناً بحاجة للدفء واللذة! (...). لو كان باستطاعتي سحق هذا الجسد، لو كان باستطاعتي قتل مادتي! (لم نعهد جواردي لكم، ص. 112).

- «المهم هو أن أحصل على ذلك الإحساس الحار تجاه إنسان ما. أريد أن أحب رجلاً، أن أتذوق ذلك الإحساس اللذيذ. أريد أن أحس بأشياء،

56 - Henri LEFEBVRE, La production de l'espace, op. cit., p. 339.

كثيرة كثيرة!« (لم نعد جوارى لكم، ص. 132).

ومثلما في رواية «لم نعد جوارى لكم» كذلك في «عباد الشمس» يُصدر صوت الراوي صوت الشخصيات النسوية: عندما يتحدث الصوت الأنثوي مباشرة إلينا يعلو بوح صارخ، عار، راغب، وعندما يتحدث الراوي (وهو بالمناسبة راوٍ عالم بكل شيء) تحتفي الرغبة ويظهر الرجل في قصص الاتهام. فالمرأة التي جربت أو الراغبة في خوض التجربة لا تعيش إلا الهزيمة وركام الفجائع. لماذا؟ لأن الرجل شرقي أولاً، ولأن الرجل رجل قبل كل شيء: «ونظرت إليه من خلال الظلمة وعيناها تنضحان وأنفاسهما تنقطع. وأنت.. أخاف أن أظل وحيدة. أنا بحاجة إليه. بحاجة إلى حبه. وهو لا يعرف كيف يحب» (عباد الشمس، ص. 18)، كما أن الرجل الذي ثمة رغبة فيه هو من نوع خاص: «الرجل العربي ما زال مريضاً، منفصلاً منقسماً يرغب في شيء ويطبق شيئاً آخر... مشدود إلى الماضي ويتغنى بالمستقبل» (عباد الشمس، ص. 19). أما «عفاف» في «مذكرات امرأة غير واقعية»، فإن الحلم الذي تتعلق بهدبه هو أن تعثر على نموذج مختلف للرجل: «سأظل أحلم برجل له صوت هادئ وعينان متفهمتان ويناديني بلطف. ينطق اسمي بنبرة أليغة لا أتر فيها للتسلط أو السلطة» (مذكرات امرأة غير واقعية، ص. 17).

وإذن فالرجل موجود في الرواية، ولكنه في الوقت نفسه غير موجود. إنه موجود هنا، بين موضعين، حيث لا جسر، لا تواصل، لا شيء غير نوع من الرفض المضمر أو الخوف أو التوقعات المقيتة. إن الرغبة مقموعة والتواصل مُحجَّاة بقوة الفضاء نفسه، الفضاء السالب الذي «أُمننت [فيه] سيطرة الرجل مناخاً إيديولوجياً للإذعان»⁵⁷. لذلك طالما هناك تعطيل لفعل الحب والجنس، فإن فضاء الحب يبقى ضيقاً جدياً وغير فاعل لا في تحريك المحكي ولا في الدينامية السردية، خصوصاً بالنسبة للغة الروائية. ولذلك أيضاً يتحول غياب الرجل إلى انتصار شامل يلقي بظلاله على الفضاء النفسي لروايات سحر خليفة، حيث القلق والحيرة والشك حتى لتكاد كتابة سحر تصبح تعبيراً عن علم يقين واضح بالمستقبل وإحساس باستحالة السيطرة على الواقع.

هل يمكن أن نزعج إذن أن الفضاء الأنثوي، بمعنى ما، ليس شيئاً آخر غير الفضاء النفسي لهذه التجربة الروائية؟ وإلا ما الذي يبقى في فضاء أنثوي بلا حب، بلا جنس، بلا

حضور فعلي لا يتبدل العلائق بين النساء والرجال؟ هو ما كان يسميه جورج باطاي بـ «التواصل الأبيض»⁵⁸، وهو التواصل البارد، اليائس، الفارغ، العدمي، غير المقصود، وغير المحسوب للأثنى مع مختلف فضاءاتها.

إن القارئ، حتى القارئ المستعجل، يمكنه أن يكتشف طبيعة وعي سحر خليفة أو بدقة أكثر، طبيعة الوعي الجماعي للنساء الفلسطينيات (و لم لا النساء العربيات؟...) الذي ترجمه، بمعنى ما، «كمجرد وعي «ممكّن» لا يتحقق بصرامة إلا في الرواية»⁵⁹. أما إن تعاملنا مع هذا الوعي واقعياً، أقصد إن اختبرناه في الواقع الاجتماعي والثقافي الفلسطيني والعربي السائد، فإنه سيكون وعياً يناهض «عجزاً جسدياً» كما لو كان مجرد عجز طارئ. لذلك، يبدو لنا أن أثنى سحر خليفة هي أثنى ذات خصوصية معينة: تكشف عمق الوجود فيما هي تكتشفه في فراغ كل وجود، تكبر أحلامها ورغباتها وفي نفس الآن تصبح حاجزاً تصطدم به الخطوة المرتابة وغير المتيقنة. ذلك لأنها «ضحية لتعذيب باطل وغير مفهوم - بتعبير لوكاش - كما تصطدم النحلة بالزجاج، من غير أن تنجح في اختراقه، بل ومن غير أن تدرك أن ليس ها هنا طريق»⁶⁰.

هكذا يتبدى لنا الفضاء الأثري في هذا المتن فضاءً تتلاقى فيه استراتيجيات الخيبة والإحفاق والانتظار. لكنه فضاء يستدعي صيغة أخرى، بلا شك، للفعل والوجود.

58 - Cité par Henri LEFEBVRE, in La production de l'espace, *op. cit.*, p. 296.

59 - ج. مويو، الرواية والواقع، ترجمة رشيد بنحدو، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص. 76.

60 - جورج لوكاش، نظرية الرواية، ترجمة الحسين سحّان، منشورات التل، الرباط، الطبعة الأولى، 1988، ص. 86.

الفصل الثامن

فضاء المحتل

I - عنف الفضاء:

«فضاء المحتل»!

كم تستحق هذه العبارة مُعَقِّفَاتُهَا! ذلك لأن كتابة سجر خليفة لا تمنح المحتل (الصهيوني) أية إمكانية للاعتراف أو التحسيس بشرعية معينة، حتى وإن بدت بعض شخصياتها في حالة انكسار نفسي أو هشاشة معرفية وثقافية. ومن ثم، فالكتابة - على الأقل - لا تمنح للاحتلال أي فضاء فارغ كي يُؤثِّثه بقبول أهله ورغبتهم. وإنما تتعامل الروايات الخمس بخيارات الرفض والمجابهة مع مجموع تجليات الاحتلال. صحيح، ثمة إشارتان عابرتان لأنسنة العدو والتعايش معه، لكن مع ذلك لا يبدو أنهما تخترقان النص أو تؤثران على الخيارات الأساسية لاستراتيجية هذه التجربة الروائية، استراتيجية الصراع والمقاومة:

● هناك أولاً في «الصبار» مشهد إنساني يتم داخل السجن:

«والقى الطفل نفسه بين ذراعي زهدي وبكى نائحا:

- بابا. بابا.

وضغط زهدي الجسم الصغير المرتعد إلى صدره وبكى بحسرة. وكان الرجال يحملون في الطفل يدهول. انسحب بعضهم نحو ممر الغرف خوفا من رؤية المزيد وآخرون خبأوا رؤوسهم في جدران الساحة وبكوا بصمت. والمرأتان المتقدمتان برفقة الضابط تمسحان دموعهما بالمناديل. وتأمل زهدي الجنديين الواقفين على الباب بحيرة. تكيان! أنتما

تبيكان! كل ما ترونه من وحشية وتعذيب داخل جدران الزنانات لا يبيكيكما ويبيكيكما طفل لا يجاوز الخامسة؟!» (ص. 124).

● هناك أيضا في «عباد الشمس» فكرة التعايش التي تعبر النص من خلال حديث «عادل»، إحدى الشخصيات الأساسية في المتن الحكائي للرواية:

«وقد بحث الأمر مع حضرون ومثقفين يساريين آخرين في إسرائيل وقالوا إن مشروعا كهذا قد يحقق ما لم يحققه الحرب أو هيئة الأمم. إحدى الأستاذات في الجامعة العبرية قالت: حين قرأت تلك القصة المترجمة أحسستُ بالفاجعة وبكىْتُ لأنني، ولأول مرة، أحس أني أقف في الجانب المظلم» (ص. 126).

وباستثناء هذين الموقعين لا يحضر الاحتلال الإسرائيلي على امتداد النصوص الروائية إلا حضورا عتيفا، استغزاليا، مهددا، ثقيلا ومرفوضا. إن الكتابة تقدم واقعا مشحونا بالاضطهاد والمصادرة فيما يبدو أنه دليل تجربة فردية وجماعية، حتى لنشعر من داخل رصدنا لهذا الفضاء بالذات أن لسحر خليفة ككاتبة فلسطينية نوعا من «غمرة التخيل» كما يسميها جورج بولي¹. يَغَار فضاءها الروائي من فضائه المرجعي، يغار زمنها الروائي من الزمن الكرونولوجي، وتغار شخصياتها المتخيلة من شخصيات الواقع المعيش. بمعنى أنها حريصة على أن تمد جسورا بين ما تعيشه وما تكتبه بخصوص تجليات وامتدادات الاحتلال الصهيوني. وذلك إلى درجة تجعلنا نستشعر أن الموضوع الواقعي بحاجة لكي يتضح وليستوعبه الذهن إلى أن يعثر على امتداده في الكتابة.

إن سحر في رصدها لفضاء الاحتلال تبدو أكثر وضوحا وانسجاما من رصدها لفضاءات أخرى. ربما لأن استراتيجيتها على هذا المستوى واضحة وتواجه استراتيجيات واضحة كذلك، إذ ليس ثمة التباسات من قبيل تلك التي نعرش عليها في مستويات الصراع بين المرأة والرجل أو بين الفرد وآليات امتثال لهويته الجماعية. الأمر يتعلق هنا بسلطة احتلال تستبد بالفضاء الخصوصي للفلسطيني، وتديره بكل وسائل القهر والإكراه والاحتواء الإيديولوجي والرمزي. ومن ثم، تصبح الكتابة تنطعا للمواجهة، بتعبير جوليا كريستيفا،

¹ - George. POULET, L'espace proustien, *op. cit.*, p. 79.

حيث يتحول النص إلى «مجال يُلقَبُ فيه وَيُمارَس وَيُتمَثَّل التحويل الإستيمولوجي والاجتماعي والسياسي»². كما يتحول إلى شاشة كبرى تنعكس عليها إفرازات واقع الاحتلال وأنماط معاشة الناس لهذه الإفرازات. إن «ما أفرزه الاحتلال من علاقات جديدة نراها في النص الروائي حاضرة بكثافتها الداخلية ووقائعها وتفصيلاتها»³، وذلك عبر كتابة تسجيلية ثرية ونادرة في المتن الروائي العربي، خصوصاً في ثنائية «الصبار» و«عباد الشمس»، حيث يستدفيء النص وتمتع الكتابة بـ «ميزة استحضار الوقائع والتفصيلات ورصفها في المشهد الروائي، أي أنها تبدو كما لو كانت إعادة خلق للواقع، مشابه له في مآهاته وإعادة تركيبه» على نحو ما يؤكد الناقد الصديق فخري صالح⁴.

وإذا تركنا السيورة الحكائية الرئيسية، في كل رواية، جانباً أمكننا أن نجمع شتات حكاية أخرى تبدأ من أول رواية لسحر خليفة إلى آخر رواية لها، هي بالذات حكاية الاحتلال الصهيوني. ففي «لم نعد جوارى لكم»، فضلاً عن تجربة عبد الرحمن المثلوني ومعاناته مع الاعتقال وسنوات السجن ثمة مشهد المباحث الممتد الخائق «... ورجال المباحث المختفون خلف النظارات القاتمة كانوا يذرعون الصالة بنشاط» (ص. 105). وتبدأ «الصبار» بثقل الحضور الصهيوني. فمن صورة السلطة وهي تطبع الجسد الفلسطيني بكل عنف: «عذبوه في كل شبر من جسمه حتى في تلك المنطقة. أطلقوا عليه كلباً مزقاً أعضائه. قد يصبح عاقراً»، يحكي أبو محمد عن ابنه خالد، «ابن الحرام لم يتعلم. مازالت آثار التعذيب في جسمه، لكنه لم يتعلم، ويا خوفي يعمل عمله وينسفوا الدار» (ص. 8-9). وتتوالى صور الاحتلال في الرواية: «تصلون آبار البترول وتعودون هنا؟ ماذا يعجبكم هنا؟ أنتم لا تقدرون النعمة، لكننا نقدرها، سنوات قليلة ونكون هناك وتدخلون الكعبة بتصريح» (ص. 11-12)، يقول جندي الحدود للفلسطينيين العائدين. وينطق الفلسطيني أسماء بلاده بالعربية وينطقها الجندي الإسرائيلي بالعبرية (ص. 14)، ويتبدى الهاجس الأممي حتى في الأرض التي عرّتها الأيدي الخبيثة من كل أغطية الربيع حتى لا يندس شيء غير مرغوب فيه (ص. 21)، وفي الأراضي التي يتم إحراقها غصبا عن الفلاحين وإمعاناً في

2 - جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 13.

3 - فخري صالح، في الرواية الفلسطينية، مرجع المذكور، ص. 78.

4 - المرجع نفسه، ص. 88.

اضطهادهم (ص. 36). وتتحول الحياة في الأرض المحتلة إلى منع تحول مستديم مزمّن (ص. 25)، «والناس نيام. والدورية لا تنفك تذكر بالعين البصيرة واليد القصيرة» (ص. 58). ويصبح نفس البيوت والمخيلات مشهدا لأشدّ حضورات الاحتلال عنفا وقسوة: «قل له يا عادل بحياة والدك. قل له بأن إسرائيل نسفت 20 ألف دار وأربع قرى» (ص. 72). أما الجيش فقد تحول عن الجبهات ليحرس الشوارع بالمجنزرات والمدافع والرشاشات» (ص. 88).

ولا تخلو رواية لسحر خليفة من مظاهر التفتيش والمداهمة والمراقبة «- افتح هاديلت! (افتح الباب بالعبرية) / اليهود! رحمتك يا رب ماذا يريدون؟» (الصبار، ص. 138) «- تصرفين كما لو كنتِ قد اعتدتِ وجودنا في دارك؟ / - اعتدتُ وجودكم في منازل الجيران. لا أفارق النافذة إلا للنوم..» (الصبار، ص. 140).

في «عباد الشمس» تتواصل مشاهد النفس (ص. 20) والتفتيش (ص. 23)، ومنع التحول (ص. 38)، والحضور العسكري (الجيش) في الشارع (ص. 52)، والدوريات والتضييق (ص. 55)، وحصار المدن (ص. 93)، والمراقبة ومشكلة الماء (ص. 154)، والمستوطنات الجديدة الزاحفة كالفطر (صص. 220-258)، والحواجز الأمنية (ص. 248). ويعود هاجس المداهمة واقتحام البيوت وإجراءات التفتيش إلى «باب الساحة» ليشكل المشهد المهيمن على طول امتداد الرواية، بل ويتقاطع مع كل مشاهدنا مسهما هذه المرة - وأكثر من أي نص آخر - من حيث يشكل حضورا تكوينيا على مستوى بنية النص ودينامية المحكي: العُوزيات مصوّبة والأمر الدائم يفتح الحقائق (ص. 12)، «والجنود يفتشون باب الساحة ولا يدعون ماراً يقلت دون تحرش. ضرب. صيحات. لكلمات..» (ص. 17)، والكشافات تُضأّ فيتوهج الليل ويبدأ الاقتحام، ويبدأ الطُرقُ على الأبواب بالمراوات وأعقاب البنادق «افتح، افتح، يا لله افتح باب، وافتح سباك، افتح كله..» (ص. 59)، وتنزل السلطة بكل ثقلها لتثبت الحضور وتحكم القبضة أكثر: «سدوا فوهة الزقاق المؤدي إلى باب الساحة ببوابة مسلّحة بالحديد والإسمنت. فرضوا منع التحول، وخلال المنع نصبوا البوابة المعهودة. براميل ملأوها بقطع الحديد والإسمنت المسلح. صفوها فوق بعضها حتى سدت فوهة الزقاق. وفي الفوهة الأخرى وضعوا نقطة يتدلى منها علّم كبير يغطي نوافذ الدار السفلى ويحجب الضوء عن السكان. لا أحد يخرج أو يعبر بدون تدقيق بالهويات وتفتيش» (ص. 69). ولما تهدم البوابة، تعود السلطة الإسرائيلية من جديد لينائها. «وهذه المرة ما كانت بوابة، بل كانت جدارا يمتد من دار الست زكية حتى

حاكورة نزهة. أحضروا خلاطة ضخمة أضاءت الرقاق والمناطق المجاورة بأنوار ساطعة كغزو الفضاء، فبدت من بعيد كطبق طائر...» (ص.124).

إن رسدا دقيقا للمشاهد التي ترسمها سَحَر خليفة وتضع فيها تجليات معينة للاحتلال يؤكد لنا أن الكاتبة لم تغتر هذه التحليلات بانتقائية تملئها بعض التأثيرات غير الواقعية. كما أنها لا تحرص على تشويه صورة اليهودي أو الإسرائيلي تشويها كاريكاتوريا أو حاقدا، بل تقدم الصورة كما هي في الواقع. تقدمها كمتناقضات اجتماعية أو ثقافية أو سياسية أو إيديولوجية. نلاحظ مثلا أنها لا تمس الحقل الديني اليهودي، لا تشوه تمايزات الشخصية الإسرائيلية (اللباس، بنية الجسم، تقاطيع الوجه، لون الشعر والبشرة...)، لا تجعل شخصية من شخصياتها تبدي عداً للعدو يصل درجة من درجات «اللاسامية الأوروبية»⁵. إنها تقدم عناصر لفهم طبيعة الاحتلال الإسرائيلي، عناصر لإقناع القارئ بشرعية مقاومته.

إن الاحتلال كما تقدمه مختلف الروايات الخمس لا يظهر كأفراد أو كتصرفات وتعبيرات فردية. إنه يظهر كمؤسسة، كسلطة عسكرية أمنية، قمعية بالأساس. سلطة تطبع الجسد الفلسطيني بمعالم جسدية (التعذيب، بتر الأعضاء التناسلية...). ذلك لأن الجسد المحكوم يمكنه أن يكون مادة للفعالية السياسية للحاكم المستبد، خصوصا إذا علمنا أن الجسد «يعتبر بمثابة مجال متنقل يستطيع نشر المعالم السياسية في كل مكان حل به مما يوسع من حدود المجال السياسي لكل فاعل ويقوي بذلك قوته ووزنه أمام باقي الفاعلين السياسيين»⁶. وهو سلطة توسعية النزعة: «سنوات قليلة وتكون هناك وتدخلون الكعبة بتصريح» (الصبار، ص. 11-12)، سلطة تضع اليد على أرض فتسيحها وترمي العين إلى الأراضي الأخرى خارج السياج. لا حدود، لأن الرغبة أكبر مما هو تحت القبضة الحديدية، لا حدود، لأن الفضاء المنشود يقترحه الحلم والمتخيل وليس نتاجا لحقيقة تاريخية أو

5 - يشير البروفيسور شموئيل موريه، وهو ناقد إسرائيلي مشبع بالفكر الصهيوني، إلى أن غالبية النتاج الأدبي العربي المعاصر تعاملت مع النماذج اليهودية تعاملًا «مشرعا أمام شتى التأثيرات الخارجية، بدءا بالقرآن الكريم والحكايات الشعبية وانتهاء بما أسماه اللاسامية الأوروبية بعامة، والنازية بخاصة». انظر تفاصيل طرحه في دراسة أنطوان شلحت، «مقدمات لدراسة شخصية العربي في الأدب الصهيوني»، ضمن مجلة الكرمل (الفلسطينية)، العدد السابع، 1983، صص. 377-384.

6 - انظر دراسة محمد شقير، «مقاربة في المجال السياسي»، ضمن المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، محور المجال والسلطة، السنة الثانية، صيف - خريف 1988، ص. 7.

جغرافية. إن الفضاء الترابي اقتضاه الانتصار السياسي والعسكري مثلما كان فقدان هذا الفضاء من جهة أخرى تعبيراً عن هزيمة سياسية وعسكرية وثقافية أصبحت الآن جزءاً من التاريخ.

ومن خلال تراكم مشاهد التفتيش والمداخلة ونسف البيوت، تحاول سَحَر خليفة أن تبرز كيف تسعى الدولة الصهيونية إلى أن تبلور معالمها السياسية في الفكر والذاكرة. بمعنى أن يصبح شكل الدولة مقبولا كواقع في أذهان الفلسطينيين، وذلك من خلال ترسيخ صور الجندي في جمارك الحدود، صورة الجندي في الشارع، صورة الشرطي يفتش ويراقب ويستخبر، صورة الجرافة وهي تنسف بيتاً تحت أعين ساكنيه، صورة المدن والشوارع التي تُستبدلُ أعمارها من العربية إلى العبرية الدخيلة الاستيطانية. وفي فعل النسف ذاته للمسكن ثمة هدف سياسي وإيديولوجي واضح يستهدف الذاكرة الفلسطينية بالأساس وليس العقاب فقط. في «الصَّيَّار» تُنسفُ الدار بعد صدور أمر بإخلائها، بعد ثبوت أنها كانت مكاناً لتخزين الأسلحة واستعمالها لأغراض ثورية. لكن ما يُنسفُ في الواقع هو شيء آخر: «وتأمل الدار من خلال ضباب. للمرة الأخيرة. ولن ترى مسقط رأسك بعد الآن. هذه الأدراج كم قطعتها جواً. زحفاً. قفزاً. والساحة السماوية أعلاها. والبركة وأصص الرخام. والأمسيات الجميلة تحت الليمونة مع الأقارب والاصدقاء. أمسيات. ذكريات» (ص. 174).

إن الدولة اليهودية تعرف معنى الجرح الذي يجترحه فعل مهول كهدم بيت وترك أهله في العراء. وهل جرحٌ شخص كاليهودي في التاريخ الإنساني جرحاً عميقاً في الذاكرة كهذا الجرح؟ لذلك تلعب ضحية الأمس دور الجلاد اليوم وتعيد إنتاج صورها القديمة في أجساد الآخرين، في فكرهم وروحهم وذاكرتهم، وكأن الأمر يتعلق بنوع من التعويض! ولعله يتعلق بإعادة إنتاج فكرة «الفضاء الفارغ» التي تحدث عنها «رواد الصهيونية» عندما تحدثوا عن «وطن بلا شعب لشعب بلا وطن»، حتى وإنْ تعلق الأمر هنا بفعل نابع من اللاوعي، أي ما يمكن اعتباره نوعاً من «تطبيع لفضاء الحلم»، بتعبير يوري إيزنزويغ Uri EISENZWEIG في كتابه الفذ «الأراضي المحتلة للمتخيل اليهودي»⁷. ومعناه أن إقصاء الفلسطيني من بيته، من أرضه، من فضاءاته المختلفة، هو إعادة إنتاج لفضاء الحلم

7 - Uri EISENZWEIG, *Territoires occupés de l'imaginaire juif: Essai sur l'espace sioniste*, Ed. Christian Bourgois, Paris, 1980, p. 85.

الصهيوني. إعادة صياغة للعلاقة «الكونية» المستحيلة بين الهوية والفضاء، بين «المنظر الطبيعي للوطن» الذي اجْتُثَّ منه شعبه و«روح الشعب الذي يسكنه»⁸.

ومن الواضح أن سحر خليفة لا تتخيل هذه التحليلات، بل هي تحليلات مرجعية أساسا تحملها من واقعها المادي والتاريخي إلى المستوى الذي يجعل اللغة تستوعبها، وبالتالي يصبح المرجع منتجا للخطاب على العكس تماما من ميزة الأدب الصهيوني، حيث «المرجع كنتاج للخطاب» - والتعبير لجاك ديريدا⁹ - مادامت هناك حاجة إيديولوجية لصياغة معالم فضاء معين، ينبغي أن يصبح له وضع اعتباري متميز واستثنائي في أذهان مَنْ ينبغي أن يخضعوا له أو يَقْبَلُوا به!

إن سحر خليفة، على هذا المستوى بالذات، تغمس شخصياتها كليا في المعطيات الإيديولوجية والسياسية كما لو كانت تستأنف الحرب الأخرى بأدوات لسانية وثقافية وجمالية. ورغم التصاق هويات هذه الشخصيات بخيارات سحر، وتحدد أساسا في علاقتها بالكتابة الروائية، فإنها تظل في مواقفها وردود أفعالها أكثر انسجاما مع معطيات واقع الصراع ضد الكيان الصهيوني. بمعنى أن الشخصية الروائية في هذا السياق تظل قوية الاحتمال على عكس الشخصية الأثرية مثلا التي تظل احتمالياتها ضعيفة، مقارنة مع ظروف وشروط الواقع الفلسطيني.

واللآفت بهذا الخصوص أن سحر وهي تسوق العناصر التفصيلية لهذا الفضاء تبقى عند أبسط درجات الحكيم، فهي تحكي بنمط الحكيم كما هو محدد اجتماعيا. تماما كما لو أنها كانت تصرُّ على ألا ترتقي بالفضاء المرجعي إلى مستوى البنية المتخيَّلة.

إن الفلسطيني (ة) - على نحو ما تقدمه هذه الكتابة الروائية - موجود لتحسين فضاء ملموس، سواء من احتياح التخيل المضاد أو من أي شرخ أو اهتزاز في الهوية الجغرافية في حين أن الصهيوني (كفكرة وكدولة..) جاء ليشيد - بالقوة وبالفعل - فضاء متخيَّلا لهوية متشظية. ومن ثم، فالكتابة تتحكم في تحديد المسار العام لشخصياتها كي تجابه منزعا صهيونيا تحكيمياً يستهدف الهيمنة المادية والرمزية على المرجع الوجودي الفلسطيني.

⁸ - *Ibid.*, p. 87.

⁹ - Cité par Uri EISENWEIG, *Territoires occupés de l'imaginaire juif...*, op. cit., p. 51.

تأخذنا الكاتبة إلى داخل فضاء منفلق كي نقضي مع شخصياتها فصولاً في الجحيم. ولذلك، فهي تُخضعنا لنظرة مُغرِضة مشروطة باستراتيجية المجابهة والصراع، حيث يحق للشخصية الفلسطينية أن تفعل ما تفعل وتقول ما تقول في مواجهة ثقلها المأساوي الرهيب وهي ترى فلسطين تندرج في «معادلة جغرافية إشكالية»¹⁰. وفيما يسعى الوجود الصهيوني إلى تطبيع معالمة وامتداداته في الإدراك الفلسطيني لا يكف هذا الأخير عن تآريق الوعي الصهيوني.

هناك حالة توتر قصوى دائمة لم تتوقف إلا في رواية «مذكرات امرأة غير واقعية»، حيث ذهب سحر خليفة تغفو قليلاً في الجهة الأخرى لليل، وهي حالة تنتجها العلاقة النافرة بين الفلسطيني والصهيوني، بين صاحب الفضاء ومن جاء واغتصبه. وأكثر من ذلك أيضاً، العلاقة النافرة بين السلطة كسلطة - وهي هنا السلطة الإسرائيلية - وبين أولئك الذين تسعى لترويضهم وتطبيعهم والاشتغال بهم.

من هنا يلقي الهاجس الأمني بظلاله على فضاء المحكي: إن الفلسطيني عدوٌ بالتعريف، أي أنه مصدر لكل شر محتمل! معناه، أنه مهما عدلّ الزمن من مستويات العلاقة المطبوعة بالنفور والتناقض والعداء، فالعدو موجود هنا دائماً بوصفه آخر. ومن ثم، ضرورة عسكرة الفضاء ليتسنى للسلطة الاستيطانية أن تعيد إنتاج هذا الفضاء، وأن تعيد نسج علاقته، وأن تبني من جديد معماره الاجتماعي ونسقه الثقافي والرمزي. ومادامت هذه السلطة قائمة على أساس عسكري فإن خطابها - بما هو عسكري - «يرى في كل غريبة عدواً له، مثلما يرى رجل الشرطة في كل فرد شخصاً مشبوهاً»¹¹. كما أن زمنه هو، بمعنى ما، زمن ثابت: «طالما هناك عدو، هناك خطر. وبما أن سيزيف يضع على رأسه قبة، فإن الخطاب الأمني لا يمكنه أن ينتهي»¹². وبالتالي، لا ينتهي التفتيش والمباحث والدوريات والمداهمة والتضييق والرقابة وحظر التحول والمنع والتعذيب والعقاب.

II - فضاء النظام.. ونظام الفضاء:

إن فضاء الاحتلال، فيما يبدو لنا، فضاء بنيوي، حيث يحمل كل مكان منه أو أي

10 - Ibid., p. 25.

11 - Ibid., p. 380.

12 - Idem.

شيء في ذاته، طابعٌ بنيةً بكاملها¹³. ومثلما اعتبرنا الفضاء الأنثوي في جوهره فضاءً نفسياً، يمكن اعتبار الاحتلال **فضاءً سياسياً بامتياز**، لكن له أبعاده التاريخية والثقافية والإيديولوجية والرمزية والحقوقية. وبما هو كذلك فإنه يصبح فضاءً لتقاطع الاستراتيجيات السياسية والإيديولوجية وتصادمها نظراً للتعارض الجذري الحاصل في المنطلقات وفي الرهانات، ولأن «الحرب ليست بمثابة سعي للتفاهم»، بتعبير تودوروف¹⁴.

لقد علمنا هنري لوفيفر بعمق أن المنظور السياسي عندما يصبح محدداً، فلا شيء في الفضاء باستطاعته أو بإمكانه أن ينفلت من هيمنة السلطة وامتداداتها الرقابية، فالسلطة تريد أن تراقب الفضاء بأسره وأن تحفظه منفصلاً أو متصلاً، متشذراً أو متجانساً مهما كانت الصعوبات والتحديات المطروحة¹⁵. وذلك إلى درجة يصبح فيها «**فضاء النظام**» متخفياً في «**نظام الفضاء**»، ويصبح هذا الأخير نظاماً لبث الخوف والرعب والتوقع المريب: «**كان الظلام قد خيم على المدينة. والشوارع خالية من الناس. والرجال قد لاذوا ببيوتهم خوفاً مما تحمله الظلمة من مفاجآت**» (الصبار، ص. 81). بل ولبث الإحساسات السالبة، حيث الإحساس بثقل التبدلات ومرارتها والإحساس بكون الفضاء المفتوح يصبح سحناً في عمق النفوس، وتفقد الأشياء طعمها وبهاءها ويخرج المولود من الرحم كما ليتيها لموته:

- كل الأشياء أصبحت تافهة: الألوان أصبحت كالحبة، الطبيعة ما عادت جميلة، وهي كذلك ما عادت جميلة.. والحياة أصبحت عبارة عن درب أسود كيب «**لم نعد جوارى لكم، ص. 21**».

- «أخذ يسير وهو يتلفت حوالبه حيث اعتاد أن يرى الخضرة تنتشر في كل مكان. لكن المزارع كانت مهجورة، والأشتال ما عادت تغطي سوى رقع متفرقة من الأرض المهملّة، وأصوات الدواب التي كانت تملأ الفضاء بشغائها ورغائها ما عادت تملأ سمق الأجواء.

13 - انظر حديث غوسدورف عن «فضاء البنية» ضمن البحث الخاص بالفضاء الأسطوري في كتابه الصادر بالفرنسية:

- GUSDORF, *Mythe et métaphysique*, Ed. Flammarion (Champs), Paris, 1984, p. 101.

14 - تودوروف، نقد النقد، مرجع سابق، ص. 152.

15 - Henri LEFEBVRE, *La production de l'espace*, op. cit., p. 446.

- شيء ما قد تغير. بل كل شيء تغير، والتغير قد شمل الريف أيضا لا المدينة فحسب. ماذا حدث؟! الخ» (الصبار، ص. 38)
- «ماذا حدث للدنيا؟! ماذا حدث للناس؟ ماذا فعل بنا الزمن.. والاحتلال! هذه المزرعة الميتة!» (الصبار، ص. 40).
- كم كبرت الصبية. لكنها تذبل، ككل الناس في الاحتلال» (عباد الشمس، ص. 21).
- «الاحتلال يا أمي لا يرحم الصغار ولا الكبار» (عباد الشمس، ص. 29).
- «السجن.. دائما السجن. إذا خرجت للشارع فالسجن بانتظارك وإذا بقيت في المنزل فالسجن بانتظارك. وهناك ما بعد الجسر سجن ضخم، سجن كبير، أحكام عسكرية وزعماء مؤلّهون كانوا منك وصاروا عليك. والويل لك كفرد والويل لك كشعب، فبأمرهم كل من عليها فان، ويبقى ذو الجلال والاحتلال» (عباد الشمس، ص. 38)
- «إيه يا أبو العز، قسمتنا نشفاق واحنا في قلب البلد» (عباد الشمس، ص. 52).
- «طعم الميَّة تغير يا أبو صابر» (عباد الشمس، ص. 57).
- «حتى الميَّة نشربها واحنا خايفين» (عباد الشمس، ص. 58)
- «القبالة: «اهدأ يا ابني رعاك الله، اليوم اسحبك من رحم الأم وغدا يسحبك رحم الأرض» (باب الساحة، ص. 218).

إننا نتحدث عن تبدلات، عن منفى داخلي، عن إحساس بالزمن، عن سجن رمزي ونفسي كبير، عن إحساس بالعزلة وبالخوف وبالذبول وبالتخاذل العربي: «زعماء مؤلّهون كانوا منك وصاروا عليك»، عن «هذه المزرعة الميتة»، عن تغير الريف والمدينة... ولا نتحدث في الحقيقة إلا عن استراتيجية سياسية شاملة يتم تصريفها عبر هذه الشذرات التي تلنقظها الكتابة. إن فضاء هيمنة السلطة هو أساسا «الفضاء الذي تنتشر فيه الاستراتيجيات»¹⁶. و«ليس هناك في الواقع من استراتيجية إلا لأن هناك مسبقا مشروعا

سياسيا» كما يؤكد ذلك صاحب كتاب ما يسميه بـ «*فضاءات إسرائيل*»¹⁷، حيث يعرض لمختلف الاستراتيجيات الإسرائيلية التي يتم بموجبها ضبط فضاء الاحتلال، المادي والبشري والاقتصادي والرمزي، وبالاخص الاستراتيجية الترابية (*La stratégie territoriale*) باعتبارها إوالية لمراقبة الفلسطينيين، ولخلق تجانس داخل الكيان الصهيوني نفسه (باعتباره كيانا لقيطا)، ولتصريف وتجسيد المشروع الصهيوني على أرض فلسطين... طبعاً، إن سحر خليفة لا تقدم بحثاً تحليلياً لمكونات هذه الاستراتيجية الصهيونية، ولكنها كمبدعة تحاول أن تكشف ما يتخفى من أبعادها وامتداداتها في الهوامش والخُلوات، وفي النفوس. كما تحاول أن ترصد آليات الاستيعاب التي تخرب الذات الفلسطينية وتسعى لتذويب هويتها كي يسهل إدماجها في طاحونة الدولة الإسرائيلية. ولعل رواية «الصبار» هي الأكثر تعبيراً عن هذه الآليات واشتغالها:

- «ماذا حدث للبلد؟ ماذا حدث للناس؟ ماذا حدث لكم؟ لقد تغيرتم. حتى الصبية يدخنون في الشوارع. ودعايات الأفلام الفاضحة تلتطخ الشوارع. والناس يلتهمون الكنافة ويتسمون. وأنت أيضاً تبسم [أسامة يخاطب ابن خاله عادل بعد عودته من الخارج]. ماذا حدث لكم؟ ماذا حدث للبلد؟ ابطروكم. استوعبوكم. ولا أرى في عيونكم ومضة خجل» (ص. 27).
- «العمل في إسرائيل فرض على عالمنا فرضاً. نحن لسنا ملومين. ولا التركيب الاجتماعي ملوم. الاحتلال هو المعلوم» (ص. 31).
- «- من أين هذا؟

(...)

- هذا خبز يا أستاذ

ورأى في عيني الشاب ملامح الهجوم فاتخذ موقف الدفاع

- هذا خبز يا أستاذ. وكمان الخبز له دين وملة؟ هذا خبز ممتاز مثل الذهب. أمسك الشاب بقالب خبز ورأى عليه طابعا يحمل حروفا عبرية. وكان

¹⁷ - Alain DIECKHOFF, *Les espaces d'Israël*, Ed. Fondation pour les études de défense nationale, Paris, 1987, p. 161.

- انتظر عرضاً لهذا الكتاب في مجلة الدراسات الفلسطينية (بالفرنسية) / *Revue d'études palestiniennes*, n° 27, Printemps, 1988.

القلب جافا كجذع زيتونة رومانية. قال بغيط:
- خبز من هناك. وجاف كمان؟ يا عيب الشوم.

(...)

- نعم يا سيد من هناك. واللا مين فين؟ كله من هناك يا أستاذ. كله من هناك» (ص. 61).

● «عيب؟ نزلت اشتغل هناك قُلتوا عيب. قعدت في الدار مثل النسوان قالوا عيب. بعنا الخبز قُلتوا عيب. وانت يا أستاذ لابس بنطلون عالموضة وقميص مكوي وبتقوللي عيب! يا عمي مش احنا أول ناس اشتغلوا معاهم. لما كنا لسه دايرين في شوارع نابلس ندور على خبز كنتوا حضراتكم دايرين في شوارع تل أبيب تدوروا على شركات تسلمكم وكالات. مضبوط واللا لأ يا أستاذ؟ قول مضبوط واللا لأ...؟» (ص. 62).

● «أنت ما زلت في بداية عهدك بالتحجير. بكرة تتعلم.
● أدون وجيفيرت واسلخلي وشالوم. كل هذا يعني أنك مودب ومهذب. أما عرافيم فتعني أنك لص قذر وخنزير ابن قواد. آخر مرة سمعت فيها كلمة عرافيم كانت من سائق إيجيد. لعنت أمه بعزا أبوه. لم يسمع ما قلت ولم يفهم. على الأقل فشيت قلبي. سلاحنا الوحيد يا ابن الأجاويد. والحالة زفت والأجر مضمون. يسحبوا الأرض من تحت رجلحك ويقولوا يا حبيبي. عكاريت لا يحترموك إلا وهم محتاجين لذراعك. وعندما تهبط لا يكلف الواحد منهم خاطره برد السلام» (ص. 69).

والواقع أن الكتابة توقف المستوى السردى ليبدأ مجال سيميائي آخر مع كل مقطع من هذه المقاطع، ليبدأ الواقع الاجتماعي والإيديولوجي القادم من خارج القضاء النصي. إنه واقع معيش له أنساقه الأخرى (الاقتصادية، الاجتماعية، الإيديولوجية، النفسية، اللغوية...) ويقتحم النص الروائي مسلحاً بوقائع، بتحديات، وبأنماط سلوكية جاهزة. وهذا معنى إشارة رولان بارت الذكية: «ومثلما تتوقف اللسانيات في التحليل عند الجملة، يتوقف

تحليل السرد عند الخطاب، وبعد ذلك ينبغي الانتقال إلى مجال سيميائي آخر»¹⁸. أي أن كتابة سحر في بعض مستوياتها وفضاءاتها تغدو - في ظننا - بحاجة إلى أدوات أخرى للقراءة والتحليل غير الأدوات النقدية الأدبية وحدها. تماماً مثل الطبيب الجراح الذي يحتاج، لإجراء عملياته بنجاح إلى تغيير المِقْصَآت. صحيح أن طرائق تحليل الاشتغال الإيديولوجي في الكتابة الأدبية يمكن أن تُسَعَفَ إلى حد بعيد، لكنها مع ذلك لا تكفي عندما يتعلق الأمر برواية لا تتجرد من الفكر السياسي أو من الواقع السياسي، بل على العكس تجعلهما ظاهرة تكوينية أساسية في نصوصها. وأكثر من ذلك لا يتعلق الأمر بتفكير بالصور فحسب، بل بكتابة ذات طبيعة تصويرية كذلك¹⁹.

إننا بصدد سلطة سياسية لم تنتج فضاء معيناً، لكنها تنشط في إعادة إنتاجه، كما يوضح لوفيفر ذلك، بوصفه مكاناً ووسطاً لإعادة إنتاج العلائق الاجتماعية المستجيبة لاستراتيجيتها في الهيمنة والإخضاع والاستيعاب. وطبعاً، ففي فضاء السلطة، لا تظهر السلطة كما هي فحسب، بل إنها تَتَسَرَّ تحت «نظام الفضاء» كذلك، حيث تَحْلِفُ، تراوغ وتفرغ كل ما يتعارض معها بالعنف الذي يقتضيه الحرص على الواجهة الخارجية، وإن لم يَكْفُرْ هذا العنف المتسَرَّ فبالعنف المفضوح²⁰. ومهما يكن، فليس في السلطة ما هو سرّي، على نحو ما أكدّه البروفيسور إدوارد سعيد، فهي «تشكل، وتفيض، وتنتشر، وهي تونس شرائع للذوق والقيم»²¹. وبالتالي، فإسرائيل - كما يقدمها النص الروائي لسحر خليفة - لا تشغل فقط في ممارستها الفضائية كاستعمار استيطاني يصادر الأرض

18 - رولان بارت، «التحليل البنيوي للسرد»، ترجمة حسن بحراوي - بشير القمري - عبد الحميد عقار، ضمن مجلة آفاق، مرجع مذكور، ص. 23
19 - انظر التمييز الذي يضعه افتر زيس في دراسته المشار إليها بين الصورة والطبيعة التصويرية، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، م. م.

20 - Henri LEFEBVRE, *La production de l'espace*, op. cit., p. 370.

21 - انظر أجزاء من وجهة نظر إدوارد سعيد في نص افتتاحي مجلة ييادر (الفلسطينية)، العدد 3، خريف 1990، ص. 7. إلا أننا، من جهة أخرى، وبالرغم من أن ليس هناك في السلطة ما هو سرّي، فليس هناك أيضاً فضاء واضح وشفاف. ذلك الذي تكلم عنه مسرلوبوني في كتابه *فينومينولوجيا الإدراك* كفضاء تحظى فيه الأشياء والموضوعات بنفس الأهمية ولها نفس الحق في الوجود. انظر: Maurice MERLEAU-PONTY, *La phénoménologie de la perception*, op. cit., p. 332.

ويدمر الممارسة الاجتماعية التي وجدها أمامه قائمة، بل تشتغل أيضا كاية سلطة تحاول أن تنسّ في الوجدان وفي الذاكرة، وفي الاقتناعات الفردية والجماعية، مراهنة على تأزيم الهوية الفلسطينية وجعل الناس تعيش مأزقية ذاتية في علاقتها بالقيم وبالواقع وبالذاكرة.

وعندما تلتقط الكاتبة ذلك الشكل المتطرف لقابلية الناس للسلطة القائمة، فإنما هي تؤكد ضمنا أن هذا الشكل يصبح السلطة التي تجرد الناس من حقوقها وقدراتها كأنها تريد أن تبدي موقفا تجاه حالة الامتثال الصامت الذي عليه العجز والإحباط وثقل المنفى الداخلي العميق، وذلك بكونه موتا بطيئا غير معلن، وتعبيرا عن واقع يتحول إلى «لا واقع لا نهائي»²²: «برطع يا سيدي برطع وخلي إسرائيل تخيل وتميل» (الصبار، ص. 78).

ينبغي أن نسجل أن سحر خليفة لا يتيح فرصا أكثر ليكلمنا الإسرائيلي مباشرة، اللحظات التي يتكلم فيها في رواياتها يتكلم كجندي في الحدود أو كجندي يدهم البيوت في التفتيش والمطاردة. ربما لأن هناك أدبا صهيونيا مكلف بهذه المهمة مثلما يتكلف الأدب الفلسطيني بمهمة السند (Le support) الرئيسي للتعبير والتواصل مع العالم من داخل وجهة النظر الفلسطينية المخاربة. لكن مع ذلك، فإن خطاب السلطة الصهيونية ليس بعيدا عن الفضاءات التي تكتبها سحر خليفة في أعمالها. وهنا ينبغي أن نشير كذلك إلى أن فضاء الاحتلال في هذا المتن هو كذلك فضاء خطابي، والخطاب ليس هنا بالضرورة خطابا لسنيا وإنما يتبدى كإيديولوجيا معلقة على كل شيء، لاصقة بكل فضاء: في تحويل الفكرة إلى فضاء مادي وممارسة اجتماعية واقتصادية وعسكرية وأمنية، في تنظيم السنن الثقافية²³، في مسح الفضاء الذي يتخذ طابعا دراميا²⁴، في جعل الفضاء حقلا لاستعراض القوى، للإرغام والتوترات²⁵...

22 - Cf., Maurice BLANCHOT, L'espace littéraire, *op. cit.*, p. 130.

23 - Steffen NORDAHL LUND, L'aventure du signifiant, *op. cit.*, p. 97.

في هذه الدراسة يؤكد سفيان نوردا لاند أن «الإيديولوجيا أيضا (ودائما) هي التي تنظم حياة السنن الثقافية».

24 - Henri LEFBVRE, La production de l'espace, *op. cit.*, p. 450.

25 - يشير هنري لوفيفر (المراجع السابق، ص. 170) إلى المهندس والمنظر المعماري فوتتوري Venturi الذي لا يرى في الفضاء وسطا فارغا ومحايدا، تشغله بعض الأشياء المينة، وإنما له صَوغٌ حدلي للفضاء (Une dialectisation de l'espace) على اعتبار أن الفضاء حقلاً للقوى، مليء بالاحتلالات والتوترات...

لذلك يتراجع النص الروائي لسحر خليفة باعتباره «مؤسسة أدبية» مع المؤسسة - الطاحونة الصهيونية القائمة في الواقع وفي جسد النص ذاته. وبما أن هذا النص الإبداعي هو جهاز إيديولوجي كذلك، فضلاً عن أبعاده المعرفية والجمالية، فهو يأخذ على عاتقه أن يجابه الخطاب الإيديولوجي السائد، الذي ليس في الحقيقة غير الفكرة الصهيونية ذاتها. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار التأكيد الذي يبلوره بير زهما بخصوص قضايا الكتابة الأدبية، فإن كتابة سحر - بخصوص «فضاء المحتل» - «لا يمكن تناولها على المستوى الفردي، ولكنها تحيل إلى الوعي الجماعي»²⁶. ومن ثم، نجد أنفسنا أمام فضاء خطابي يصارع فضاء خطائيا آخر، كتابة روائية تحاول إفراغ «الهوية الصهيونية من كل بعد فضائي»²⁷، أي من كل شرعية للوجود أو السلطة أو التحكم.

إن الإسرائيلي أجنبي، آخر، جسد غريب في أعين الشخصيات العربية الفلسطينية. لا شيء يسعفه داخل العمل الروائي لينتسب إلى هذا الفضاء الذي ليس له: ذاكرته مجرد أداة للانتباه والحيلة والخوف الدائم من المباغته، خصوصيته المستديرة هي أنه مجرد «غيطو» يلتصق بالجسد ويعمق غربته وغيريته، قوته العسكرية لا تفعل أكثر من تعميق الأحقاد.

وأهم ما تنجزه كتابة سحر خليفة، شخصياتها الروائية تجاه الاحتلال كما يظهر في فضاء النص، هو أنها لا تُشعرُ الآخر بأي اعتراف. حتى عندما لا يكون هناك عمل فدايي أو صراع، فإن الصمت والمناجاة والتعليق الخفيض والمونولوجات تقول كل شيء عن الرفض المطلق.

إنها كتابة تعرف أن الفضاء الأعزل وحده، وبدون إرادة وقبول الآخر (الفلسطيني)، لا قيمة له بالنسبة للإحساس الإسرائيلي. وتعبير سارتر، «يكفي أن ينظر آخرٌ إليّ لكي أكون أنا كما أنا»²⁸. وإذا كان يكفي ألا ينظر الآخر إلى الإسرائيلي لكي لا يكون هو هو. بمعنى آخر، طالما لم يعرف الفلسطيني به فهو بلا فضاء، ومن لا فضاء له لا وجود له. ومن لا وجود له، بالطبع لن يكون إلا خيالاً. وبالفعل، فإن «الأمة» التي تريد أن تتشكل

26 - انظر بير زهما، النقد الاجتماعي، ترجمة عائدة لطفي، مرجع سابق الذكر، ص. 23.

27 - Uri EISENZWEIG, *Territoires occupés de l'imaginaire juif: essai sur l'espace sioniste*, op. cit., p. 77 et p. 86.

28 - Alain FINKIELKRAUT, *Le juif imaginaire*, Ed. Seuil, Paris, 1980, p. 207.

على أنقاض أمة فعلية حية متواصلة في الفضاء وفي الزمن، و«الأمة» التي تريد أن تعثر لها على فضاء داخل فضاء الأمة الأخرى القائمة شرعياً، ليست أمة بالفعل، بل مجرد وَرَمٍ في الأحشاء.

من هنا يمكننا أن نفهم أيضاً لماذا رفضت تلك المرأة (فرح حاطوم) في شريط «ميشيل خليف» السينمائي «الذاكرة المخصصة» أن تتنازل عن وثائق ملكية أرض صودرت منها، ولماذا يصبر بعض الإسرائيليين دفع المال مقابل تلك الأوراق مع أنهم أصبحوا يملكون الأرض ويتصرفون فيها. فالحجة هنا ليست بمجرد أوراق، إنها اعتراف بوجود وإحساس بشرعية وجود. البحث عن الحجة إذن من وجهة نظرنا هو السعي لامتلاك *الجوهر الفضائي* الذي قد يشعر الإسرائيلي بتطبيع فضاء حلمه وتجسيد وطنه التجريدي. الوطن المتخيل لهوية ممزقة.

ويمكننا أن نفهم كذلك، من ثم، عدداً من المشاهد التي تسوقها سحر ويظهر فيها الإسرائيلي مستفزاً للفلسطيني بدون داع، خاصة أثناء تلاسن الجند الإسرائيليين في نقاط عبور الحدود أو مع الأمهات عند كل مدهامة للبيوت. إنه الاستفزاز الراجب في أن يلفت نظرة الآخر واهتمامه. ففي نظرة الفلسطيني اعتراف بوجود الإسرائيلي، بوجوده معه في نفس الفضاء.

إن الإسرائيلي يأخذ بتلايب الفلسطيني، يمسك بياقته لكي يجعله يفتح عينيه على فرجة يومية يلعب فيها الإسرائيلي نفسه دون غيرة (Altérité) ينبغي الإقرار بوجودها: فضاء مسرحي مفتوح يمثل فيه الإسرائيلي نفسه²⁹. والإسرائيلي الذي ترك تراثه الروحي ووطنه في مكان آخر، يحاول أن يعيد إنتاج ذلك من جديد. ترك فضاء حياته اليومية في وطن بعيد ويحاول أن يخترق فضاء الحياة اليومية الفلسطينية، سواء كأجساد أو كسلع أو كجنسيات متعددة أو كإكراه مادي أو كإرغامات رمزية...، ليستوعب هذا الفضاء الجديد ويصادره لحسابه، حتى لا يظل مقيماً «إقامة متخيلة»³⁰ على الأرض، على هامش أهلها وعلى تخوم نظامهم الاجتماعي: «ونظر في ساعته متلهفاً. ثم أخذ يرقب إشارات المرور وقد تراكت أفواج السيارات من حولها. وكانت الشوارع مزدحمة. والأرصفة مغطاة بشتى أصناف البشر. شرقيون. غربيون. آسيويون. إفريقيون. أوروبيون. وأمريكان.

29 - *Ibid.*, p. 208: «J'étais simplement le comédien de moi même».

30 - *Ibid.*, p. 215.

مختلف الجنسيات. مختلف العروق. مختلف الألوان. وباتوا يحملون جنسية موحدة تنتمي للشرق الأوسط» (الصبار: صص. 47-48).



ليس هناك حياد في الفضاء الروائي، وفي المحكي الأدبي عموماً، كما نيهنا إلى ذلك جان إيف تادي³¹: كل فضاء هو ضد فضاء آخر. ونحن نعرف أن «النص يظهر، رغمًا عنه ورغم نوايا الكاتب(ة)، التناقضات الإيديولوجية التي لا يمكن حلها في الواقع الاجتماعي. فهو لا يمثل الإيديولوجية ولكنه يعرض لها مع إظهار تناقضاتها وفجواتها: «من هنا كانت فكرة أن النص الأدبي ليس تعبيراً عن الإيديولوجية» («صياغتها في كلمات») بقدر ما هو إخراج لها (mise en scène) وعرض لها في عملية تنقلب فيها الإيديولوجية بشكل ما ضد نفسها...»³².

هكذا نثر على علاقة أخرى بين سحر خليفة ككاتبة والشخصية الإسرائيلية في الواقع وفي الكتابة: شخصية ممثلة.. لا تمثل إلا نفسها، وكاتبة تتكلف بالإخراج عما هو كشف وإضاءة وتحويل «فضاء فارغ» إلى مشهد³³، حيث يتداخل الفضاء الجغرافي والطوبوغرافي بالخطاب اللساني، وحيث يتدسّ الإيديولوجي في المشهد ليلعب دوراً أساسياً في إنتاج الفضاء الروائي، وفي إنتاج المعنى.

31 - Jean Yves TADIE, Le récit poétique, *op. cit.*, p. 61.

32 - بالييار وماشري: عن بيير زعما: النقد الاجتماعي، م. م.، ص. 59.

33 - يرى بيتر بروك، المخرج المسرحي البريطاني الكبير، في «الفضاء الفارغ» أن الإخراج المسرحي يبدأ من أبسط فعل: «أستطيع أن أتناول أي فضاء فارغ وأسميه مشهداً. يكفي أن يُعَبَّرَ شخص ما هذا الفضاء الفارغ بينما يكون شخص آخر يصدد النظر إليه لكي يصبح فعلٌ مسرحي جاهزاً». انظر: Peter BROOK, L'espace vide - *Ecrits sur le théâtre*, Ed. Seuil, Paris, 1977, p. 25.

كشف الظنون

(على سبيل الخاتمة)

I.

هي ذي إذن محاولة لقراءة سحر خليفة:

قراءة طمحت إلى إنصاف كاتبة روائية عربية ظلّمتها قراءات نقدية حيث كان ينبغي أن تُنصَفَ وأن تُقرأ قراءة عاشقة، وأن يُوجَّهَ إليها النقد حيث لا يمكن السكوت على عدد من أخطاء الكتابة والإبداع.

قراءة أيضا فيها إعادة اعتبار لمكون أساس من مكونات الخطاب الروائي، وهو الفضاء. وخاصة عندما يكون هذا المفهوم هو جوهر كتابة أدبية قد لا تكون لها أية قيمة بدون التركيز عليه وإعلاء شأنه في كل قراءة.

قراءة، من جانب آخر، تعرف قدرها وتعرف ما تريد. ومن ثم، فقد اختارت الجوانب التي ترى ضرورة إبرازها - الآن على الأقل - ذلك «أنني لم أقل أشياء كثيرة: وبعضها ظل في منطقة الصمت لأن التلفظ بها سيكون سابقا لأوانه في الوقت الراهن» على نحو ما عبّر عنه بعمق إلرود إيش¹، ربما لكثافة المادة التي تستلزم الاكتفاء بما هو ممكن، وربما لاتصال دراسة الفضاء في كتابة فلسطينية بواقع سياسي وإيديولوجي يحتاج إلى نضج الشروط والظروف، وربما لكون هذه القراءة اختارت مقارنة تجربة روائية: فلسطينية وكتبها امرأة، أي فيها بعضٌ مما يخيف و«ما يخيف في

1 - إلرود إيش، التلقي الأدبي، ترجمة محمد برادة، م. م.، ص. 35.

الكتابة هو ما تُحَفِّزُ عليه من انتشار للوعي»²، من إثارة للقلق وتحريض على الرفض والشَّعْب والمساءلة.

II

حاولنا أن تكون هذه القراءة نقدية، أن تكون نقدا للوعي، ووعي كتابة سردية عربية فلسطينية معاصرة بالفضاء وبالمعنى. ذلك أن «كل ما يتبدى للوعي وكل ما يوجد بالنسبة للوعي هو عموما معنى»³. ولقد قرأنا طويلا السرد الروائي والقصصي الفلسطيني، وبغض النظر عما حققه بعض الشعر الفلسطيني في تمثله الجيد العميق للإشكال الفضائي، يمكننا القول الآن إنه لأول مرة، ربما، تتوقف كتابة روائية فلسطينية في استبطان إشكالات الفضاء داخل الأرض المحتلة وتفكرها. وذلك لا بوصفها حيننا أو استرجاعا، وإنما كتابة تعيش الفضاء وتكتبه، بل وتعيش مشاكله ثمَّجته وتمثله واحتماليته عن قرب، أي كيف تنتظم العلاقة الجمالية بين الفضاء المرجعي والفضاء بوصفه بنية مُتخيَّلة.

لذلك جاءت «قراءتنا تحويلية»⁴ كذلك. فقد حاولنا أن نتسلَّل إلى طيات النص الروائي عبر امتداده في خمس روايات، هي: لم نعد جوارى لكم، الصَّبار، عباد الشمس، مذكرات امرأة غير واقعية، باب الساحة لنسهم في بناء المعنى وإثراء الحقل الدلالي لهذه التجربة.

صحيح، لا يبدو أن سَحَر خليفة مهتمة بأن تكون لها «إشكالية سرديّة»⁵ مما معينة، مما قد يجعل الكثير من الأفكار حول الفضاء الأدبي غير قابلة للاختبار. والمشكلة تكمن في أن عددا من العوائق التي تلقي بها كتابة سحر خليفة أمام القارئ

2 - كاظم جهاد، في تقديمه لترجمة ديريدا، الكتابة والاختلاف، م. م.، ص. 33.

3 - ديريدا، مواقع (حوارات)، م. م.، ص. 32.

4 - نفس المرجع، ص. 62.

5 - نفسه، ص. 56 - ويمكننا أن نشير إلى بعض التجارب الروائية العربية التي تأخذ على عاتقها الانشغال لا بمن حكايا فقط، بل بتشديد بناء سردي إشكالي يمتحن القراءة ويطاؤها بأسئلته (صنع الله إبراهيم - إلياس خوري - سليم بركات - محمد براءة - أحمد المديني - الميلودي شغوم - جمال الغيطاني - حيدر حيدر - محمد عز الدين النازي...)

التمحّص تجمله لا يستطيع أن يبرهن على أهمية بعض الأفكار إلا بالحدس. ونحن نعرف أن الحدس وحده لا يكفي لنعرف عمق الأشياء وجوهرها. إنه مجرد «وسيلة للاقتراب قليلا من الحقيقة، ولكنه ليس في النهاية حقيقيا»⁶. لكن سحر مع ذلك يتيح إمكانية هائلة للحديث عن موضوعاتية فضائية (Une thématique de l'espace). فقد أظهرت وعيا متناميا، من رواية لأخرى، بأهمية الفضاء في تعميق وبلورة التيمات النفسية والوجودية والإيديولوجية المختلفة إلى درجة أن الفضاء يصبح أحيانا تيمة حقيقية للكتابة، موضوعا لتأملها فيما بدا لنا نوعا من التفضية المحتشمة.

من هنا نظن أن الفضاء سيغدو مستقبلا انشغالا مركزيا في كتابة سحر خليفة عندما يتخلص من كل ما تراكم في جسدها من ازدحام إيديولوجي ونفسي. سيحدث لها - في نظرنا - ما يحدث لابن المدينة الذي تتغير نظرتة لمدينته عندما يراها لأول مرة فارغة من أهلها، حيث يتخلص قليلا من ازدحام الأجساد البشرية الذي يلهمه عن تأمل المعمار وتفصيل الواجحات والأرضية وغيرها. ذلك أن ما كرس له كتابتها حتى الآن من قضايا واهتمامات، وما ضمنتها رواياتها من قول إيديولوجي أو سياسي ذي وطأة ثقيلة، ظل يربك كثيرا شعرية الكتابة، شعرية الفضاء أساسا.

إن سحر التي كتبت *راهن الفضاء* الفلسطيني روائيا مدعوة إلى التساؤل حول *مصير هذا الفضاء*، روائيا كذلك. والحق أن سحر ليست هي نفسها في مجموع مراحل مطولتها الروائية، إنها أضعف وعيا وتجربة في رواياتها الأولى وأنضج في «باب الساحة»، لكن آليات الكتابة والوعي السردي بحاجة إلى جهد إضافي مكثف. وذلك، للرهانات التي تتحملها سحر بوصفها روائية مصارعة على جبهات متعددة، ولا تنقصها الجرأة وروح الحوار والإنصات.

III

من الواضح أن كتابة سحر خليفة تحاول صياغة وإبداع الهوية من جديد ضمن تفاعل معقد مع الواقع والتاريخ، لكن حسها النسائي المفرط - والذي ييلور في الغالب

6 - انظر: «حوارا مع كارل بوبر»، ضمن كتاب حوارات في الفكر المعاصر، إعداد وترجمة محمد سيلا، م. م.، ص. 77.

رؤية مائلة وفكرا تدميريا - يُعيق إمكانات الإمساك بمصادر الواقع، خاصة منها اللغة والفضاء، ويجعل الكتابة في النهاية حبسية تقاطب مركزي فضلنا عدم إعطائه اعتبارا كبيرا خشية الاختزال، ونقص ما أسماه باشلار في «شعرية الفضاء» بـ «جدلية الداخل والخارج، جدلية تترد إلى جدلية للمفتوح والمغلق»⁷، بحيث كنا نجد الكتابة عند كل فضاء أنثوي تستبطن العالم الخارجي، تدخله إلى قمقم نفسي خائق ولا تسمح لفكرتها عن المرأة أن تصبح مشروعا أو معنى راسخا قابلا للانتشار والإقناع والانتظام في التاريخ. كما كنا نراها في فضاءات أخرى (فضاء الاحتلال مثلا) تتعامل مع الواقع تعاملًا سياسيًا واضحًا، أي تنتقل من *إيديولوجيا الفردية* والإدراك الذاتي (حيث منطق الذات والداخل) إلى *إيديولوجيا عمومية* حيث الوعي النقدي متقد والإدراك يكاد يكون مفتوحا كليًا على معطيات التاريخ والمجتمع، حيث يوجد هذا المجتمع قائما على القمع الخالص، ومحصلة آلية للعب قوى متناحرة لا نتاجا للعفوية الرواعية للأفراد الأحرار⁸. ومن هنا يمكننا أن نعتبر أن لفضائية الكتابة الروائية (Spatialité) وظيفتين أساسيتين: من جهة، الوظيفة «الباطنية» للفضائية التي اشغلت في الفضاء الأنثوي وفي فضاء الهوية أساسًا، ومن جهة أخرى الوظيفة «البرانية» للفضائية التي ظهرت نشيطة في فضاء اليومي وفضاء الاحتلال مثلا. وقد تساءل هنري ميزان عما تعنيه الوظيفة «الباطنية» للفضائية لدى دوني برتران في تقديمه لكتاب هذا الأخير «الفضاء والمعنى»⁹، لكنها بالنسبة لسحر خليفة فقد كانت لها أهمية تنشيط آليات استبطان العالم الخارجي وتحويله إلى مشاعر وأحاسيس وردود فعل ذاتية، في حين لعبت الوظيفة «البرانية» للفضائية دورا معاكسا تمامًا من حيث أسعفت الكتابة، عبر صوتها الطاعني في كتابتها وعبر شخصياتها، على إخراج الطاقات الكامنة لتصيد مشاهد العالم الخارجي وتصيد لحظاته وتفاصيله.

إن السؤال المركزي الذي تطرحه كتابة سحر في النهاية هو: كيف تتشكل

7 - G. BACHELARD, La poétique de l'espace, *op. cit.*, p. 20.

8 - ماكس هوركهايمر، *النظرية التقليدية والنظرية النقدية*، ترجمة مصطفى الناي، مراجعة مصطفى خياطي، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1990، ص. 21.

9 - D. BERTRAND, L'espace et le sens, *op. cit.*, p. 11.

تجربة ترتبط فيها العلاقة مع الذات بالعلاقة مع الآخرين؟¹⁰ وبالتالي، كيف يمكننا صياغة هوية لا تتحدد كوحدة في السلوك أو ككتابات في الفكر والأحاسيس والتعلق بالفضاءات والأمكنة والأشياء؟

لجوفي الحقيقة، وهذا ما حاولنا التأكيد عليه بإلحاح، لا يمكن فهم بنيات الفضاء الروائي للكاتبة الفلسطينية الكبيرة إلا في سياق نظام إيديولوجي واضح المعالم. كتابة تتغذى على إيديولوجيا وتحاول تفجير أخرى. لها نسقها الإيديولوجي وتجاهه نسقا إيديولوجيا هو نفسه الذي يحدد نظرة الاحتلال للفضاء وشكل تأنيته وللسلطة القائمة وإرغاماتها. من ثم أكدنا على أن سحر خليفة، وهي تكتب فضاء متخيلا مشدودا رغم كل شيء إلى نموذج المرجعي الملموس، تجاهه **فضاء متخيلا** آخر مشدودا على العكس إلى يوطوبيا مرجعية، إلى متخيل آخر كامن في الفكرة الأصلية التي كانت مجرد حلم فأصبحت واقعا، أو أمرا واقعا بالتحديد.

لذلك، يمكن القول إن فضاءات سحر وأمكنتها كانت تبدئ في الكتابة **إيديولوجية بامتياز**، سواء من حيث اختياراتها وتشكيلها أو من حيث كونها سندات (Supports) لصراع إيديولوجي بين الفضاء الفلسطيني الراسخ واليوطوبيا الصهيونية من جهة، وبين الفكرة النسائية الفلسطينية الغاضبة والافتقاعات المنغلقة للرجل الفلسطيني من جهة أخرى.

أما الشخصيات الروائية، وبرغم ما يمكننا تسجيله حول طبيعتها غير التلقائية وغير الحرة، فقد تحددت مصائرهما بقوة هذه الفضاءات المعمدة بالإيديولوجي. ذلك أن الفضاء العام للكتابة لم يتح للشخصية أن تتبلور. لم يتح لها كذلك أن تتنصر. ولذا، يمكن اعتباره **فضاء إعاقه**. فضاء انشطار شامل: الشخصية الإسرائيلية منشطرة بين تراث المتخيل الصهيوني وما يطرحة الواقع من تحديات وأسئلة مؤرقة، والشخصية الفلسطينية المنشطرة بدورها بين وعيها الذاتي وتجربتها الشخصية المرة من جهة وبين مستلزمات الانتماء الوطني من جهة أخرى، بل وتعيش حالة انشطار بين رفض

10 - هذا السؤال الذي سبق أن طرحه فوكو وتوقف عنده: انظر حوار ميشيل فوكو ضمن كتاب «حوارات الفكر المعاصر»، ترجمة محمد سيلا، م. م.، ص. 128.

الاحتلال ومجابهته الشرسة وإمكانية معاشته (ولم لا.. إعلان تصالح معه في ظل تآكل خفيف للهوية الجماعية، على الأقل كما لمسنا ذلك في أمثلة عابرة لم تؤثر كما قلنا على المسار العام لطروحات هذه الكاتبة الروائية!).

لذلك، ينبغي التساؤل: كيف يمكن أن تكون هناك «هوية - قائمة بين خطابين»¹¹ فلسطيني يتنازع خطاب الذات والنزعات الفردية، ثم خطاب الانتماء، والتواصل والهوية الجماعية، وإسرائيلي وَجَدَ نفسه في مواجهة قَدَر رهيب ليس بإمكانه رفضه ولا قبوله، مما جعله يعيش دورا ملتبسا: «دور الضحية» و«دور البطل»¹²، في فضاء من الالتباس الشامل.

IV.

لا نريد لهذه الخاتمة أن تكون تلخيصا لدراستنا ولا تكرارا لما قلناه في مدخل أو تمهيد أو في هذا الفصل أو ذاك، لكن يبقى أن نقف عند جانب آخر، فضاءي بامتياز، ويمكنه أن يضيء بعض أبعاد هذا المتن الروائي، وهو فضاء الغلاف أساسا، سواء على مستوى صورة الغلاف أو عنوان الرواية أو طريقة تقديم الغلاف ذاته للقراء مما يحتاج في الحقيقة إلى دراسة متكاملة.

وعموما، لا يهتم النقد العربي بهذا الجانب رغم أهميته القصوى، معرفيا وجماليًا، بل ولصلته العميقة بالتحلل التداولي للنص الأدبي العربي. وربما كان ذلك عائدا إلى ما يطرحه الفضاء البصري والحواسل الإستيعافي بشكل عام في الساحة الثقافية العربية. لكن ينبغي أن نسجل أيضا اهتمام بعض النقاد المغاربة بدلالة الغلاف وجمالياته وإسهامه في تشكيل معنى النص¹³.

11 - Uri EISENZWEIG, Territoires occupés de l'imaginaire juif..., *op. cit.*, p. 375.

12 - Alain F., Le juif imaginaire, *op. cit.*, p. 48.

13 - انظر على سبيل المثال: عبد الفتاح كيليطو: الغائب، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987 (الخاتمة، ص. 91)، وعبد جبران، «لعبة الغلاف في "لعبة النسيان"»، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 231، فبراير، 1988، وأحمد فرشوخ، «لعبة الغلاف في لعبة النسيان»، ضمن الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي، العدد 213، فبراير 1988...

ولعل أهم ما يثير في أغلفة روايات سحر خليفة، أخذاً بالاعتبار درجة معينة من التواطؤ الذي يديه كل كاتب مع أغلفته وكذلك ضرورة التحوُّط التي يفرضها احتمال اعتبارية الإنجاز أو عدم موافقة الكاتبة مسبقاً على شكل أغلفة أعمالها. لكن في كل الأحوال، ثمة علاقة واضحة بين الرواية كنص أدبي مكتوب والشكل الذي تظهر به للقراء: ما يتعلق بصور الغلاف، اللون، نوعية الحروف الطباعية، العنوان، ترتيب إسم الكاتبة، نوعية الورق، الحجم، إلخ. وبالتالي لا يمكن للغلاف أن يكون محايداً أو غير ذي موضوع في تشييد معنى النص والتأثير على مستوى توقعات القارئ ودرجات الانتشار وطبيعة التداول فيما يمكن إدراجه في باب سوسيولوجيا الثقافة.

وإذا كان الأستاذ عبد الفتاح كيليطو اعتبر أن صورة الغلاف نوع من الشرح، وأنها ككل شرح تضيف شيئاً إلى النص وقد تعرض بعض التفاصيل التي لا توجد في النص¹⁴، وإن كنا لا نرى في ذلك - على الأقل في سياق دراستنا هذه - شيئاً من «عجائب الاتفاق»، فإن الناقد المغربي عبده جيران قدّم جهداً نظرياً وتطبيقياً جيداً، خصوصاً ما يتضمنه الغلاف من مكونات التلقي التواصلية، وما يقترحه على مستوى شرط التعاقد ومحتواه الرمزي أو الإيضاحي، والمؤلف بوصفه «مالكا للبلاغ الأدبي»، أي كل ما يهم تصرفات التواصل التي يديها كل غلاف.

«إن الصورة تظل على ظهر الغلاف قصدية بالمعنى الذي أرساه رولان بارت بصدد تحليل الصورة الإشهارية، ما دامت تطمح إلى أن تكون ترجمة ما للمحتوى الإيضاحي، وقد تكون لا قصدية - في نفس الآن - وفق التحليل النفسي كما أرساه فرويد بصدد اللوحة»، يؤكد جيران في دراسته، معتبراً من جانبه أن الصورة لا تعمل في الغلاف «سوى على مضاعفة دلالة الخطاب وتدعيمه وترجمته»¹⁵، ومن ثم نعتبر أن سحر خليفة، سواء كانت هي من اقترَحَ صور أغلفتها أو توأطأت بقبولها

14 - كيليطو، الغائب، مرجع سابق، ص. 91.

15 - عيد جيران، «لعبة الغلاف»، م. م.

مقترحات لفنانين آخرين¹⁶، لها أساما حرص على إبراز انشغالها النسائي أكثر من أي انشغال آخر تضمنته كتاباتها. إن صورة المرأة هي التي تملأ العين وتمنح أغلفة الروايات خطابا يشي بخطاب الروايات قبل قراءته. وخطاب الغلاف كما يظهر في روايات سحر لا يشكل عتبة أولى للقراءة فحسب، بل ويفرض سلطته كاملة على القارئ ويمنح النص هوية بصرية ينبغي أن نقبلها كأحدى هويات النص، «فـالغلاف هو أول من يحقق التواصل مع القارئ»، قبل النص نفسه، فهو ينتزع السلطة من النص ويتحدث باسمه إلى إشعار جديد، فهو الناطق بلسانه، يقدم قراءة للنص، وبالتالي يضع سمات النص وعلاماته وهويته»¹⁷.

إن المرأة ذات الأذرع الثمانية محمّلة بكل ما يؤثر إلى تعدد وظائفها ومتاعبها (أواني، مكنسة، بندقية، حقنة، كتاب، رضاعة...) في صورة غلاف «لم نعد جوارى لكم»، كافية لتقول كل شيء¹⁸، وينضاف إليها مشهد المرأة وهي تقف في مقدمة الصورة وخلفها أجمة وكان الرسالة الأيقونية تقول شيئا عن علاقة الشجرة بالغابة (من يخفي من؟). هذا بينما تقف المرأة في صورة غلاف «مذكرات امرأة غير واقعية» برأس له أذن قطة مغمور بما يشبه البخار في إشارة إلى المرأة «الهوائية» أو «غير الواقعية» كما تصفها الرواية¹⁹. وطبعاً لا تنسى الرسالة التفاحات الحمراء كما ظهرت في

16 - نلاحظ أن غلاف «لم نعد جوارى لكم» من تصميم نيكول برسودر، وغلاف «مذكرات امرأة غير واقعية» من تصميم مهي نصر الله، وغلاف «باب الساحة» من تصميم بنجاح طاهر، في حين لم تشر دار النشر إلى مصمم غلاف كل من «الصبار» و«عباد الشمس»، وهي عادة غير عمودة إطلاقاً. (نشير إلى أغلفة الروايات في الطباعات التي اعتمدناها في دراستنا هذه).

17 - أحمد جاريد، «الغلاف فضاء آخر للصورة»، مداخلة في ملتقى وطني حول «الدور التربوي والتعليمي للصورة»، انعقد بجامعة مولاي إسماعيل، كلية الآداب بمكناس (المغرب - العدد الثالث - سلسلة الندوات - 1992).

18 - في نص «لم نعد جوارى لكم» (الصفحة 146) نقرأ عن «شكري» يؤنب إيفيت زوجته وهي ترد على مرأى ومسمع من سامية وبمجرة: «لسنا في عصر الحريم يا مولاي!». وتصف الأعمال المنزلية: «هذه الأعمال التافهة باستطاعة أية فتاة محدودة الثقافة والإمكانات أن تقوم بها!»

19 - تقول «عفاف» بطللة «مذكرات امرأة غير واقعية» في مونولوجها الطويل (الصفحة 35): «صممت أن أقوم برسم لوحة لامرأة نصفها آدمي والنصف الآخر قطة. أو أن أرسم امرأة تنظر في

النص فتتشعر في الغلاف الأول واحدة وتشطر أخرى في الغلاف الأخير للرواية. وللتفاح - كما نعلم - علاقة إيروسية وجنسية لها تاريخ يعود إلى جدنا آدم مثلما لها تراث جمالي في التصوير العالمي (تراث «الطبيعة الميتة» وتفاعلات الفرنسي بول سيزان (1839 - 1906)، أشهر من نار على علم). أما النساء الثلاث وهن وراء البوابة الحديدية في صورة غلاف «باب الساحة» فيظهرن في لحظة انتظار أو ترقب أو اندهاش أو تساؤل. هذا بينما ظهر غلاف كل من «الصبار» و«عباد الشمس» أضعف الأغلفة دلاليا، خاصة من حيث رسم نبات الصبار وزهرة عباد الشمس مما يضعف من إمكانية التوقع لدى القارئ. وطبعاً، فهوية نساء الأغلفة يكشف عنها لباسهن المطرّز تطريزاً فلسطينياً واضح المعالم.

وبما أن خطاب الغلاف ليس عناصر إيقونية (صورية) فقط، فإن إسم المؤلفه وجنس الكتابة (رواية) واسم الهيئة الناشرة (دار الآداب) وعنوان الرواية تشكل عناصر لسانية في الخطاب نفسه. فإذا ظل المعنى خفياً بين طيات الصور أو التباسها فإن هذه العناصر اللسانية تضيق اقتراحات واضحة المقاصد والوظائف لجعل التعاقد بين سحر خليفة وقرائها المفترضين ممكناً وقابلًا للتنفيذ والتأكيد. ولعل العنوان بالذات يظل أكثر هذه العناصر إثارة لفضول التحليل والمقاربة. وذلك لما توفره العناوين عادة - بتعبير سوزان سونتاج²⁰ - من «إمكانية إضافية» لفهم النص الأدبي.

إن عنواناً مثل «لم نعد جوارى لكم»، بكل هذا النفي والجزم، يعلن عن خيار نسوي قاطع وحاسم وواضح من شأنه أن يوجه القراءة من البداية. كما أن «الصبار» و«عباد الشمس» بوصفهما عنوانين يحملان بعض أسماء النبات يحملان مباشرة على علاقة مفترضة مع الأرض ويؤشران إلى معنى له خطابه الجاهز حول عالم معين يُفترض أن يعثر عليه القارئ داخل النص الذي سيُدعى لقراءته عندما يجتاز عتبة الغلاف. أما «مذكرات امرأة غير واقعية» فهو عنوان كتاب لم تتم فيه الإشارة مطلقاً، لا في الغلاف ولا داخل الكتاب، إلى جنسه الروائي. كأن هناك رغبة مبطنّة لحمل القارئ

المرأة وترى قطرة. أو أن أرسم امرأة جهنمية لها عينا قطرة جميلة، فإذا حدّق رجل في عينيها رأى بؤيين كنفهي الإبرة يفتحان ويتسعان حتى ينفرشا على كرتي العينين فيصرخ ويركض جرياً».

20 - Susan SONTAG, L'écriture même..., op. cit., p. 26.

على الاعتقاد مسبقاً بأنه مقبل على قراءة *ملوكرات حقيقية* (وهو جنس أقرب إلى الرواية والكتابة الأدبية عموماً) *لامرأة غير حقيقية*، «*هوائية*» (الرواية، الصفحات: 5-6-7-8-34-58-95-112-129-130). وهو عنوان لا يخلو كسابقه «لم نعد حوارياً لكم» من إثارة أو استفزاز يأخذ بعين الاعتبار ضرورة استدراج قراء جدد، إضافة إلى القراء التقليديين للكتابات الروائية العربية. أما عنوان «باب الساحة»، فهو يُوْشِرُ إلى اسم مكان يجعلنا نتوقع كقراء مسبقاً بأن النص سيقدم رواية لأحداث مسرحها مكان يحمل نفس الاسم.

والعنوان لدى سحر خليفة على العموم يكشف قبلها عن محتوى النص أو معالمة الأساسية. العنوان بهذا المعنى «*علامة واصفة*»²¹ (Un méta-signe) يبعث بالقارئ لا إلى محتوى النص الذي سَيُقرأ، وإنما يبعث به كذلك - في هذه التجربة - إلى طبيعة صاحبة النص نفسها، سواء بوصفها المرأة التي نلتقيها خارج الكتابة، أي بوصفها إنسانة تعيش وجودها البيوغرافي، أو بوصفها مبدعة لها امتدادات معينة في النص. وهي علاقة قائمة كما أوضح ذلك باختين²².

إن عناوين سَحَر، بمعنى ما، *عناوين براغماتية* تحاول أن تضمن للنصوص قراء إضافيين. وذلك بإبراز أبعاد التوتر الجنسي أساساً الذي تعمقه الصورة أكثر، وبإثارة الفضول والاهتمام ورغبة الاقتناء. ومن ثم، فالعناوين «*تكمل وأسمالا إيديولوجيا*»²³ تتبعنا كيف شيدته وصرفته الكاتبة على امتداد مطولتها الروائية. كما بممارسة وظيفة معرفية من حيث يوجه ويرمج سلوك القارئ، وينمذج مسبقاً طريقة تلقي النص وتفكيكه²⁴.

ومع أن هذه العناوين تحاول أن تكون نفعية، على قدر من الوضوح المثير للفضول، فإنها مع ذلك تظل تحجب أبعاداً أخرى للنصوص تحتاج إلى قراءة متمحصنة

21 - Henri MITTERAND, «Les titres des romans de Guy des Cars», in Claude Duchet et autres: *Sociocritique*, op. cit., p. 90.

22 - M. BAKHTINE, *Esthétique et théorie du roman*, op. cit., pp. 394, 395, 396).

23 - Henri MITTERAND, «Les titres des romans...», op. cit., p. 91.

24 - *Ibid.*, p. 91.

يقظة. وتلك إحدى وظائف العنوان الإيديولوجية التي تغري بالدراسة الهادئة العميقة.

.V

ومهما يكن، فإن الكتابة الروائية لسحر خليفة تثير شهية القراءة، خصوصاً بالنسبة لأبعادها الفضائية الثرية. وقد حاولنا أن نقرأ جانباً من شساعة هذا المتن، ويبقى أن يتم الاهتمام بالمكونات الأخرى (الزمن، الشخصيات، اللغة...). كما أن هناك مهمة علمية تقتضيها حاجتنا إلى نقد الوعي الفلسطيني عبر الكتابة الأدبية (الشعرية والسردية)، مما يستلزم توسيع مقاربة مفهوم الفضاء في كتابات أخرى، ولم لا.. إنجاز دراسة مقارنة - على هذا المستوى - بين متن سحر خليفة ومتون روائية فلسطينية أخرى (غسان كنفاني، جبرا إبراهيم جبرا، إميل حبيبي، يحيى مخلف، رشاد أبو شاور، ليانة بدر...)، وهو ما يحتاج إلى جهد وإمكانيات تتجاوز قدراتنا المحدودة راهنا.

البليوغرافيا

المثنى الروائي

- 1 - **لم نعد جوارى لكم**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1988. (181 صفحة من القطع الكبير، غلاف الرواية بالألوان من إنجاز وتصميم: نيكول برسود). وتبلو إشارة دار النشر إلى أن الطبعة هي طبعة أولى غير دقيقة، أو ربما تقصد بها طبعة أولى خاصة بلبنان مثلاً. إذ أن الطبعة الأولى لهذه الرواية ظهرت - حسب «موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين» لمؤلفه أحمد شاهين - بالقاهرة سنة 1975.
- 2 - **الصَّبَار**، دار الآداب، بيروت، بلون إشارة إلى رقم الطبعة أو تاريخها، حسب مستلزمات النشر الضرورية. لكن «موسوعة كتاب فلسطين..» تشير إلى أن الرواية نشرت سنة 1978 بالقدس. كما نقرأ على ظهر الغلاف الأخير لرواية «لم نعد جوارى لكم» إشارة دار النشر إلى أن الأمر يتعلق بطبعة جديدة لروايات: لم نعد جوارى لكم - الصبار - عباد الشمس. (176 صفحة من القطع الكبير)
- 3 - **عباد الشمس**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987. وتشير الموسوعة المذكورة آنفاً (ص. 209) مثلما هو مشار إليه في الطبعة الثالثة نفسها إلى أن الرواية طُبِعَت أول مرة في بيروت سنة 1980 (279 صفحة من القطع الكبير).
- 4 - **مذكرات امرأة غير واقعية**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1986، وهي الطبعة التي اعتمدناها في هذه الدراسة. لكن لا نعرف لماذا أشار صاحب «موسوعة كتاب فلسطين..» إلى أن هذه الرواية طبعت في بيروت سنة 1988، وهل يتعلق الأمر بطبعة ثانية؟ (لا علم لنا بها)، الغلاف من تصميم مهى نصر الله - 150 صفحة من القطع المتوسط.
- 5 - **باب الساحة**، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1990. في الموسوعة الفلسطينية المذكورة يُشارُ إلى طبعة للرواية في بيروت سنة 1991 (لا علم لنا بها). (أما تصميم الغلاف فمن إنجاز: نجاح طاهر، 223 صفحة من القطع المتوسط).

المصادر والمراجع:

- في هذا الثبوت الجيولوجي (بالعربية، والفرنسية والإنجليزية)، ثبتت المصادر والمراجع التي اعتمدها في دراستنا منه. وتنفي الإشارة إلى أن هذه المراجع هي من ثلاثة أنواع:
- 1 - مرجعيات تتصل بالجوانب المنهجية والإجرائية وصيغ تصريفها، أخذنا بعين الاعتبار طبيعة وخصوصية المتن الروائي للمروص.
- 2 - مرجعيات خاصة بمفهوم الفضاء ومختلف تطبيقاته وتحليلاته؛ في الحقل السردى بالخصوص. وكلنا خاصة بالرواية العربية، نظرية وتحليلًا نقديًا.
- 3 - ثم هناك مرجعيات عامة، ذات طبيعة معرفية أو ثقافية أو سياسية، خصوصًا منها تلك التي لها صلة بالفضاء العربي الفلسطيني والصراع العربي - الصهيوني. وهي مرجعيات استرشدنا بها، كلاً أو جزءاً، أو اتكأنا عليها في البحث عن معطيات أو حقائق أو عناصر تفكير جديد.

I - باللغة العربية (والمترجمة إليها)

- أدونيس (علي أحمد سعيد)، *ديوان الشعر العربي* (الكتاب الأول)، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1986.
- أفاية (محمد نور الدين)،
- *الخطاب السينمائي بين الكتابة والتأويل*، منشورات عكاظ، الرباط، الطبعة الأولى، 1988،
- *الهوية والاختلاف*، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.
- إيش (إلرود)، «التلقي الأدبي»، ترجمة محمد برادة، مجلة *دراسات سيميائية أدبية ولسانية*، العدد 6، خريف/شتاء 1992.
- باخطين (ميخائيل)، *الخطاب الروائي*، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987.
- بارت (رولان)،
- *النقد والحقيقة*، ترجمة وتقديم: إبراهيم الخطيب (مراجعة محمد برادة)، مؤسسة سميير، الرباط، الطبعة الأولى، 1985.
- *لسنة النص*، ترجمة فؤاد صفا والحسين سحبان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.

- «التحليل النبوي للسرد»، ترجمة حسن بحراوي - بشير القمري - عبد الحميد عقار، مجلة *آفاق*، عدد 8-9، 1988.
- باشلار (غاستون)،
- *جماليات المكان*، ترجمة غالب هلسا، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1984.
- *حلمس اللحظة*، تعريب رضا عزوز - عبد العزيز زمزم، دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، الدار التونسية للنشر - تونس، 1986.
- باونيس (الآن)، *الفن الأوروبي الحديث*، ترجمة فخري خليل (مراجعة جبرا إبراهيم جبرا)، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، الطبعة الأولى، 1990.
- بحراوي (حسن)، *بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)*، المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990.
- برجسون (هنري)، *التطور الخاطئ*، ترجمة دكتور عمود محمد قاسم (مراجعة دكتور نجيب بلدي)، دار الفكر العربي، المطبعة الدولية (بنون مكان النشر)، 1960.
- بردياتيف (نقولا)، *رؤية دوسوفسكي للعالم*، ترجمة فؤاد كامل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، 1986.
- بريس (جون)، *كتابة الرواية*، ترجمة محمد ياسين (مراجعة د. مدحي النوري)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، 1993.
- بنعبد العالي (عبد السلام)، *ثقافة الأذن ثقافة العين*، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1994.
- بنيس (محمد)، *الشعر العربي الحديث*، بنياته وإبدالاتها (الجزء الثالث)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990.
- تودوروف (تريستان)، *نقد النقد (رواية تعلم)*، ترجمة د. سامي سويدان، مراجعة د. ليليان سويدان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الثانية، 1986.
- التوحيد (أبو حيان)، *المقاييسات*، تنسيق وتعليق وشرح وفهرسة د. علي شلق، دار المدى، بيروت، الطبعة الأولى، 1986.
- *جماعي، جماليات المكان*، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الثانية للملف مجلة «ألف» القاهرية، 1988.

- **جماعي، الرواية العربية: واقع وآفاق** (اشغال ندوة فاس، 1979)، دار ابن رشد، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
- **جماعي، شعرون المسراة**، شارك في هذا الكتاب إلى جانب د. سحر خليفة: فلدوى طوقان، سلمى الخضراء الجيوسي، د. ريتا حقمان، إصلاح جاد، د. سليم عماري، منشورات جمعية شؤون المرأة، نابلس (فلسطين)، الطبعة الأولى، أيار، 1991.
- **جماعي، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية**، (مشاركة: العروي، كيليطو، الفاسي الفهري، عابد الجابري)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986.
- **خوري (إليس)، تجربة البحث عن الحق: مقالة للرواية العربية بعد الهزيمة**، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى، 1974.
- **دوبريه (ريجيس)، نقد العقل السياسي**، ترجمة عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، الطبعة الأولى، 1986.
- **ديريلا (جك)**.
- **الكتابة والانحلاف**، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.
- **مواقع (حوارات)**، ترجمة وتقديم: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1992.
- **الراعي (د. علي)، الرواية في الوطن العربي (نماذج مختارة)**، دار المستقبل العربي، بيروت - القاهرة، 1991.
- **راي (وليم)، المعنى الأدبي: من الظاهرية إلى التشكيكية**، ترجمة د. نويل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، الطبعة الأولى، 1987.
- **الريعي (فاضل)، السؤال الآخر: تأملات نقدية في نصوص مختارة من الأدب القصصي الفلسطيني**، دار الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى، 1988.
- **راسموسين (ستين أ.)، الإحساس بالعصارة**، ترجمة المهندس عماد الكيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1993.
- **ريكار دو (جان)، قضايا الرواية الحديثة**، ترجمة وتعليق صياح الجهم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1977.

- زعما (يسر)، *النقد الاجتماعي: نحو علم اجتماع للنص الأدبي*، ترجمة عايدة لطفي، القاهرة، دار الفكر، الطبعة الأولى، 1991.
- زين الدين (أمل)، با سل (جوزيف)، *تطور الوعي في نماذج قصصية فلسطينية*، دار الحدائق، بيروت، الطبعة الأولى، 1980.
- سبيلا (عمد): *حوارات في الفكر المعاصر* (إعداد وترجمة)، مؤسسة اليادر، الرباط، الطبعة الأولى، 1991.
- السعد (جودت)، *الأدب الصهيوني الحديث بين الإرث والواقع*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
- سعيد (خالدة)، *المرأة، التحرر، الإبداع*، دار النشر الفنك، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
- سلدن (رامان)، *النظرية الأدبية المعاصرة*، ترجمة وتقديم جابر عصفور، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1991.
- شاهين (أحمد عمر)، *موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين*، دائرة الثقافة (م.ت.ف.) - دمشق/دار الأهالي للنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 1992.
- شراوس (كلود ليفي)، *الأسطورة والمعنى*، ترجمة صبحي حديدي، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1986.
- صالح (فخري)
 - *في الرواية الفلسطينية*، دار الكتاب الحديث، بيروت، الطبعة الأولى، 1995.
 - *القصة الفلسطينية القصيرة في الأراضي المحتلة*، دار العودة، بيروت، الطبعة الأولى، 1982.
 - *طليمات (عبد العزيز)*، «الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند فولغاغ إيزر»، *دراسات سيميائية أدبية لسانية*، العدد 6، خريف - شتاء 1992.
 - *عبد الله (د. محمد حسن)*، *الريف في الرواية العربية*، سلسلة عالم المعرفة (143)، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1989.
 - *عبد القادر (فاروق)*، *من أوراق الرفض والقبول (وجوه وأعمال)*، دار شقيقات للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1993.
 - *العبيدي (حسن مجيد)*، *نظرية المكان في فلسفة ابن سينا*، مراجعة وتقديم: د. عبد الأمير الأعسم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، 1987.

- عثمان (اعتلال)، *إضاءة النص*، دار الحداثة، بيروت، الطبعة الأولى، 1988.
- العمري (د. محمد)، *تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر (الكثافة، الفضاء، التفاعل)*، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990.
- فايز (ديان دوات)، *فن كتابة الرواية*، ترجمة د. عبد الستار جواد (مراجعة: عبد الوهاب الوكيل)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، 1988.
- فرنجية (د. بسام خليل)، *الاغتراب في الرواية الفلسطينية*، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت (د. ت.، د. م.م.).
- فضل (د. صلاح)، *إنتاج الدلالة الأدبية*، مؤسسة مختار للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987.
- فوكو (ميشيل)، *نظام الخطاب*، ترجمة د. محمد سيلا، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- قاسم (سيزا)، *بناء الرواية (دراسة مقارنة في «ثلاثية نجيب محفوظ»*، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1985.
- القاضي (إيمان)، *الرواية النسوية في بلاد الشام: السمات النفسية والفنية (1950-1985)*، دار الأهالي، دمشق، الطبعة الأولى، 1992.
- القمري (بشير)، *شعرية النص الروائي: قراءة تناصية في كتاب التجليات*، شركة البادر للنشر والتوزيع، الرباط، الطبعة الأولى، 1991.
- كريستيفا (جوليا)، *علم النص*، ترجمة فريد الزاهي (مراجعة عبد الجليل ناظم)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
- كتفاني (غسان)، *الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال (1948-1968)*، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 1981.
- كيرزويل (إيديث)، *عصر النبوية، من ليفي ستراوس إلى فوكو*، ترجمة جابر عصفور، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1986.
- كيليطو (عبد الفتاح)،
- *الغائب (دراسة في مقامه للحريوي)*، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1987.
- *الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي*، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.

- لحميداني (د. حميد)، *بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- لو كاش (جورج)، *نظرية الرواية*، ترجمة الحسين سحبان، منشورات التل، الرباط، الطبعة الأولى، 1988.
- محجوب (د. محمد)، *المدينة والخيال، دراسات فارابية*، منشورات دار أميمة - دار العهد الجديد، تونس، الطبعة الأولى، 1989.
- الموسوي (د. محسن جاسم)، *الرواية العربية، النشأة والتحول*، منشورات مكتبة التحرير، بغداد، الطبعة الأولى، 1986.
- مويو (ج.)، *الرواية والواقع*، ترجمة رشيد بنحلو، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.
- ميكشيللي (أليكس)، *الهوية*، ترجمة د. علي وطفة، دار الوسيم، دمشق، الطبعة الأولى، 1993.
- هامون (فيليب)، *سيمولوجية الشخصيات الروائية*، ترجمة سعيد بنغراد، تقديم عبد الفتاح كيليطو، دار الكلام، الرباط، الطبعة الأولى، 1990.
- هوركايمر، ماكس، *النظرية التقليدية والنظرية النقدية*، ترجمة مصطفى الناي، مراجعة مصطفى خياطي، منشورات عيون، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1990.
- وادي (فاروق)، *ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية (غسان كنفاني، إميل حبيبي، جبراً إبراهيم جبراً)*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
- اليسوري (أحمد)، *دينامية النص الروائي*، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، الطبعة الأولى، 1993.

II - باللغة الفرنسية

- ALI (Sami), *L'espace imaginaire*, Ed. Gallimard (Tel), Paris, 1974.
- ALLEGRIA (J.) et autres, *L'espace et le temps aujourd'hui*, Ed. Seuil (Points), Paris, 1983.
- ARNHEIM (Rudolf), *La pensée visuelle*. traduit de l'américain par Claude Noël et Marc Le Cannu, Ed. Flammarion, Paris, 1976.

- **BACHELARD** (Gaston),
 - *La poétique de l'espace*, Ed. P.U.F., Paris, 1957.
 - *Le droit de rêver*, Ed. P.U.F., Paris, 1973.
- **BAKHTINE** (M.), *Esthétique et théorie du roman*, traduit par Daria Olivier, Ed. Gallimard, Paris, 1978.
- **BARTHES** (Roland),
 - *SZ*, Ed. Seuil (Points), Paris, 1970.
 - *La chambre claire: note sur la photographie*, Ed. Gallimard (Cahiers du cinéma), Paris, 1980.
- **BERTRAND** (Denis), *L'espace et le sens*, Ed. Hadès-Benjamins, Paris-Amsterdam, 1985.
- **BLANCHOT** (Maurice), *L'espace littéraire*, Ed. Gallimard (Idées), Paris, 1955.
- **BORNEUF** (Roland) - **OUELET** (Réal), *L'univers du roman*, Ed. P.U.F., Paris, 1981.
- **BOUYER** (Louis) et autres, *Qu'est-ce qu'un texte? (Éléments pour une herméneutique)*, Ed. José Corti, Paris, 1975.
- **BROMBERT** (Victor), *La prison romantique*, Ed. José Corti, Paris, 1975.
- **BROOK** (Peter), *L'espace vide (Ecrits sur le théâtre)*, Ed. Seuil, Paris, 1977.
- **BUTOR** (Michel), *Répertoire II*, Ed. Minuit, Paris, 1964.
- **CLAVAL** (Paul), *Espace et pouvoir*, Ed. P.U.F. (Coll. espace et liberté), Paris, 1978.
- **COLLECTIF**, *Espace et représentation* (Colloque), Les Editions de la villette, 1982.
- **COLLECTIF**, *Espace: construction et signification* (Colloque), Les Editions de la villette, 1984.
- **CONTRAT** (Michel) et autres, *De la genèse du texte*, Ed. Du Lérot, Tusson, 1988.
- **CRESCIVICCI** (Alain), *Les territoires Céliniens*, Ed. Klincksieck, Paris, 1990.
- **CRIVEL** (Charles), *Production de l'intérêt romanesque (un état du texte: 1870-1880)*, Ed. Mouton, 1973.
- **DIECKHOFF** (Alain), *Les espaces d'Israël*, Ed. Fondation pour les études de défense, Paris, 1977.
- **DUCHET** (Claude) et autres, *Sociocritique*, Ed. Nathan, Paris, 1979.
- **DUVIGNAUD** (Jean), *Les lieux et non lieux*, Ed. Galilée, Paris, 1977.
- **ECO** (Umberto),
 - *La structure absente*, Ed. Mercure de France, Paris, 1972.
 - *L'Œuvre ouverte*, Ed. Seuil (Points), Paris, 1972.
- **EISENZWEIG** (Uri),
 - *Territoires occupés de l'imaginaire juif: Essai sur l'espace sioniste*, Ed. Christian Bourgois, Paris, 1980.
- «L'espace imaginaire du texte et l'idéologie: propositions théoriques», in *Sociocritique* (C. Duchet et autres).

- EPRI (Colloque), *Imaginaire de l'espace - Espaces imaginaires*, Ed. EPRI (Faculté des lettres et des Sciences Humaines I - Casablanca), 1988.
- ERMAN (Michel), *L'Oeil de Proust*, Ed. A.-G. Nizet, Paris, 1988.
- FAUCHEUX (Pierre), *Ecrire l'espace*, Ed. Robet Lafont, Paris, 1978.
- FINKIELKRAUT (Alain), *Le juif imaginaire*, Ed. Seuil, Paris, 1980.
- FRANK (Joseph), «La forme spatiale dans la littérature moderne», in *Poétique*, n° 10, 1972.
- GENETTE (Gérard),
 - *Figures I*, Ed. Seuil (Points), Paris, 1966.
 - *Figures II*, Ed. Seuil (Points), Paris, 1969.
 - *Figures III*, Ed. Seuil (Poétique), Paris, 1972.
- GOLDSCHMIDT (G.A.), *Peter Handke*, Ed. Seuil, Paris, 1988.
- GRITTI (Jules), *Umberto Eco*, Ed. Universitaires, Paris, 1991.
- GUYOM (Françoise Van Rossum), *Critique du roman*, Ed. Gallimard, Paris, 1970.
- GUSDORF, *Mythe et métaphysique*, Ed. Flammarion, Paris, 1984.
- HAMON (Philippe),
 - *Introduction à l'analyse du descriptif*, Ed. Hachette, Paris, 1981.
 - «La hiérarchie; littérature et architecture: tout, Parties, dominante», in *De l'architecture à l'épistémologie* (Collectif), Ed. P.U.F., Paris, 1991.
- HERBET (Pierre), *Le temps et la forme*, Ed. Naaman-Scherbrook, Quebec, 1983.
- ISER (Wolfgang), *L'acte de lecture: théorie de l'effet esthétique*, Ed. Pierre Mardaga, Bruxelles, 1985.
- ISSACHAAROFF (Michael), *L'espace et la nouvelle*, Ed. José Corti, Paris, 1975.
- KAUFMANN (Pierre), *L'expérience émotionnelle de l'espace*, Ed. J. Vrin Coll. Problèmes et controverses, Paris, (2ème édition), 1969.
- LEDRUT (Raymond), *L'espace en question*, Ed. Anthropos, Paris, 1976.
- LEFEBVRE (Henri), *La production de l'espace*, Ed. Anthropos, Paris, (13ème édition), 1986.
- LUND (Steffen Nardhal), *L'aventure du signifiant (une lecture de Barthes)*, Ed. P.U.F., Paris, 1981.
- MAFFESOLI (Michel), *Au creux des apprentissages pour une éthique de l'esthétique*, Ed. Plon, Paris, 1990.
- MARIN (Louis), *Utopiques: Jeux d'espaces*, Ed. Minuit, Paris, 1973.
- MATORE (Georges), *L'espace humain*, Ed. La colombe, Paris, 1962.
- MERCIER (Michel), *Le roman féminin*, Ed. P.U.F., Paris, 1976.
- MERLEAU-PONTY (M.),
 - *Le visible et l'invisible*, Ed. Gallimard, Paris, 1964.
 - *Phénoménologie de la perception*, Ed. Gallimard (Tel), Paris, 1945.
 - *L'Oeil et l'esprit*, Ed. Gallimard (Folio), Paris, 1964.

- MITTERAND (Henri),
 - *Le regard et le signe*, Ed. P.U.F., Paris, 1ère édition, 1987.
 - *Le discours du roman*, Ed. P.U.F. (écriture), Paris, 1981.
- MONTAUDON (Alain), *Les formes brèves*, Ed. Hachette, Paris, 1992.
- PASSERON (René), *L'Oeuvre picturale et les fonctions de l'apparence*, Ed. Vrin, Paris, 1980.
- POULET (Georges), *L'espace proustien*, Ed. Gallimard (Tel), Paris, 1963.
- REGY (Claude), *Espaces perdus* (carnets), Ed. Plon, Paris, 1991.
- RICHARD (Pour: Jean Pierre), *Territoires de l'imaginaire* (hommage), Ed. Seuil, Paris, 1986.
- SAINT-MARTIN (Fernande), *Structures de l'espace pictural*, Ed. Biliothèque Québécoise, 1989.
- SONTAG (Susan), *L'écriture même: à propos de Barthes*, Ed. Christian Bourgois, Paris, 1982.
- STAROBINSKI (Jean), *L'Oeil vivant*, Ed. Gallimard (Le Chemin), Paris, 1961.
- TADIE (Jean Yves),
 - *Le récit poétique*, Ed. P.U.F., Paris, 1978
 - *La critique au XXème Siècle*, Ed. Belfond, Paris, 1987.
- TOURNIER (Paul), *L'homme et son lieu*, Ed. Delachaux et Niestlé, Neuchâtel, Paris, 1985.
- UBERSFELD (Anne), *L'école du spectateur* (Lire le théâtre 2), Ed. Sociales, Paris, 1981.
- WEISGERBER (Jean), *L'espace romanesque*, Ed. d'Homme, Lusan, 1978.
- YAGUELLO (Marina), *Les mots et les femmes*, Ed. Payot, Paris, 1987.
- ZERRAFA (Michel) et autres, *Positions et Oppositions, Le roman contemporain*, Actes du colloque de Strasbourg (Avril, 1970), Ed. Klincksiek, Paris, 1971.

II - باللغة الإنجليزية

- GULLON (Ricardo), *On Space in the novel*. Critical Inquiry, Aut., 1975
- KESTNER (Joseph A.), *The spatiality of the novel*. Wayne state university press, Detroit, 1978.

IV - القواميس والموسوعات

- *لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1955. (مصورة)*
- *Dictionnaire historique, thématique et technique des littératures françaises et étrangères*, Ed. Larousse, Paris, 1985.
- *Encyclopédia Universalis*, Paris, 1955,
 - Espace (Esthétique), pp. 170-179, Corpus, 7.
 - Stratégie et tactique, pp. 247-249, Corpus 17.
- *Le Robert*, Tome 2, Paris, 1976, pp. 625-627.

٧ - المجالات والصحف والدوريات

أ - المجالات العربية (بالترتيب الأبجدي)

- 1 - إيلاع، القاهرة (مصر)
- 2 - آفاق، اتحاد كتاب المغرب، الرباط (المغرب).
- 3 - أصوات معاصرة، مراكش (المغرب).
- 4 - ألف، القاهرة (مصر).
- 5 - يسافر، تونس (منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الثقافة والإعلام).
- 6 - المجليد، بيروت/عمّان (الأردن).
- 7 - دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس (المغرب).
- 11 - الفكر العربي المعاصر، بيروت (لبنان).
- 12 - الطريق، بيروت، لبنان.
- 13 - الكرمل، قرص (م.ت.م - اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين).
- 14 - مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت (لبنان).
- 15 - المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، الدار البيضاء (المغرب).
- 16 - مواقف، بيروت (لندن).
- 17 - اليوم السابع، باريس (فرنسا).

ب - الصحف العربية (نفس الترتيب)

- الاتحاد الاشتراكي، الملحق الثقافي - الدار البيضاء (المغرب)
- الحياة، لندن (بريطانيا)، العددان 11328 (20 فبراير 1994) و 11336 (28 فبراير 1994).
- القدس العربي، لندن (بريطانيا)، العددان 567 (4 مارس 1991) و 1212 (9 أبريل 1993)

ج - المجالات والدوريات الفرنسية

- *Archives de philosophie*, 45, 1982, (109-131).
- *Communications*, Sémiotique de l'espace, n° 27, Seuil, Paris, 1977.
- *Diogenes*, L'espace et le désir, n° 132, 1985.
- *Espace et sociétés*, Parler l'architecture, n° 60-61, L'Harmatan, Paris, 1991.

- *L'Espace géographique*, de l'espace subjectif à l'espace objectif, n° 4, 1990-1991.
- *Magazine littéraire*,
 - L'espace et le regard dans huis-clos, n° 103-104, Septembre 1975, p. 22-23.
 - n° 221, Juillet-Aout, 1985.
- *Poétique*, La forme spatiale dans la littérature moderne, n° 10, 1972.
- *Protée*, Narratologie: Etats des lieux, Volume 19, n° 19, n° 1, hiver 1991.
- *Qantara* (IMA- Paris): La fin des territoires (Entretien avec Bertrand Badie), n° 17, Oct/Nov/Déc. 1995.
- *Remica 08*, L'espace, document de travail (par Guy Jalabert), Centre national de la recherche scientifique, Toulouse.

المحتويات

ص	المحتوى
	- تقديم عام:
11 بحثاً عن الفضاء الضائع
11 • اختيار الموضوع: لحظات ثلاث
13 • قراءة نقدية
20 • لماذا سحر خليفة
	- الباب الأول:
29 - الفصل الأول: الفضاء، أية استراتيجية؟
29 • فضاء الاستراتيجية
31 • استراتيجية الفضاء
35 • هل للفضاء تاريخ؟
39 • الفضاء المعيش
41 • الفضاء والمكان
45 • الفضاء الروائي
	- الفصل الثاني: السيرة الحكائية ومشكلة الفضاء. (الفضاء،
51 الزمن، الوصف)
51 • الفضاء في الخطاب النقدي العربي
58 • الفضاء هوية من هويات الخطاب الروائي
64 • «الجزء الثابت»: عن الفضاء والزمن
69 • الفضاء ومشكلة الوصف

- 75 - الفصل الثالث: الفضاء المفتوح
- 75 • كيف نقرأ الفضاء
- 84 • الفضاء رَجْمُ المعنى
- 88 • أفق التقطيع: شذرات الفضاء
- الباب الثاني
- 101 - تمهيد
- 109 - الفصل الرابع: فضائية النظر
- 109 I - العين والمشهد
- 119 II - التأطير: عن العين والنافذة
- 133 - الفصل الخامس: سحر خليفة.. وأمكنها
- 133 I - أمكنة اللغة
- 138 II - الأشياء والأمكنة
- 143 III - نابلس: معنى المدينة
- 147 IV - السجن: رومانسية الفضاء
- 155 - الفصل السادس: فضاء الهوية
- 155 I - نواة الهوية
- 166 II - من الهوية الجماعية إلى الأنا المتمردة
- 173 - الفصل السابع: الفضاء الأنثوي
- 173 I - عتبات لقراءة أنثى سحر خليفة
- 184 II - قراءة أخرى: فضاء المفارقة
- 189 III - جسد أنثوي بدون هوية جنسية
- 195 - الفصل الثامن: «فضاء اغتال» (!؟)
- 195 I - عنف الفضاء
- 202 II - فضاء النظام.. ونظام الفضاء
- 213 - كشف الظنون (على سبيل الخاتمة)
- 225 - المصادر والمراجع

حسن نجمي

شعرية الفضاء

التخيل والهوية في الرواية العربية

لقد شكّل الفضاء على الدوام «محاياً للعالم» تنتظم فيه الكائنات والأشياء والأفعال، معياراً لقياس الوعي والعلائق والتراتيبات الوجودية والاجتماعية والثقافية، ومن ثمة تلك التقاطبات الفضائية التي انتهت إليها الدراسات الأنثروبولوجية في وعي وسلوك الأفراد والجماعات.

لذلك، سعينا إلى إعادة الاعتبار لمفهوم الفضاء في الفكر والكتابة، بل وإعادة التفكير في الوضع الاعتباري الذي أضحي يعطيه الخطاب النظري والنقدي الغربي لهذا المفهوم انسجاماً - بطبيعة الحال - مع تراثه النظري وحاجياته الراهنة. فقد اعتبرنا أن تلقي الفضاء يظل مركزياً في «تلقي رمزية اجتماعية» معينة، في سياق اجتماعي ثقافي وتاريخي معين، خصوصاً إذا كانت هذه الرمزية الاجتماعية لا تظل بمنأى عن الحدس والتعبير ذاتهما.

لذلك، نرى أن من الأهمية نهوض الفكر العربي، وليس الخطاب النقدي وحده، بمهام بلورة وإثراء معرفة خاصة بالفضاء، والحال أننا لم ننتج حتى الآن خطاباً معرفياً عربياً حول الفضاء. فلعل مثل هذه المعرفة يتيح لنا - كعرب - أن نجد إجابات ممكنة على الأسئلة التي يطرحها علينا «ما يحيط بنا وما يحددنا».

